من ذي القعدة.
وفيها قتل الأمير شيحه، صاحب المدينة النبوية - على ساكنها أفضل الصلاة والسلام -
وولي بعده ولده عيسى بن شيحه.
وفيها في خامس عشر شعبان، توفي الطواشي مسرور بالقاهرة، ودفن بتربته بالقرافة.
وفيها توفي الشيخ صالح أبو الحسن علي، بن أبي القاسم بن عربي بن عبد الله،
الدمياطي، المعروف بابن قفل - في يوم الأحد الرابع والعشرين من ذي الحجة، برباطه
بالقرافة، وبه دفن.
وفيها توفي شهاب الدين ابن قاضي دارا. وكان من النظار في الدولة الكاملية، وبعدها.
ولي نظر الأعمال القوصية. وكان السلطان الملك الكامل يكتب إليه بخطه، ويأمره وينهاه.
ويقال إنه كان من ظلمة النظار، يضرب بظلمه المثل. سامحه الله - وإيانا بكرمه.
واستهلت سنة ثمان وأربعين وستمائة:
أسر ملك الفرنج ريدا فرنس
قال المؤرخ: لما وصل السلطان الملك المعظم إلى المنصورة، كان ملك الفرنج ريدا فرنس -
بعساكره وجموعه - بالجزيرة التي قبالة المنصورة، وهي الدقهلية. فرحل بمن معه طالباً
دمياط. وذلك في ليلة الأربعاء، مستهل المحرم، من السنة.
فتبعته عساكر المسلمين إلى فارس كور، وقاتلوه قتالاً شديداً وأخذوه أسيراً - هو وأخوه
- واستولوا على عساكر الفرنج، وقتلوا منهم زيادةً عن عشرة آلاف فارس. وأسر من
الخيالة والرجالة ما يناهز مائة ألف. وجيء بريدا فرنس وأخيه إلى المنصورة، فاعتقلا في
دار فخر الدين بن لقمان بها. ورتب السلطان الأمير فخر الدين الطوري لقتل أسرى الفرنج
فكان يقتل منهم في كل ليلة ثلاثمائة نفر، ويرميهم في البحر.
وكتب السلطان الملك المعظم - كتاباً بخطه إلى الأمير جمال الدين موسى ابن يغمور النائب
بدمشق، مضمونه بعد البسملة:
ولده تورانشاه. الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن. وما النصر إلا من عند الله. ويومئذٍ
يفرح المؤمنون بنصر الله، ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم.
وأما بنعمة ربك فحدث.
وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها. يبشر المجلس السامي الجمالي - بل يبشر الإسلام كافة -

بما من الله به على المسلمين، من الظفر بعدو الدين. فإنه كان قد استفحل أمره، واستحكم
شره، ويئس العباد من البلاد والأهل والأولاد. فنودوا: لا تيأسوا من روح الله.
ولما كان في يوم الأربعاء - مستهل السنة المباركة - تمم الله على الإسلام بركاتها - فتحنا
الخزائن، وبذلنا الأموال، وفرقنا السلاح، وجمعنا العربان والمطوعة، واجتمع خلقٌ لا
يحصيهم إلا الله تعالى، وجاؤوا من كل فجٍ عميق، ومن كل مكان بعيدٍ سحيق. ولما رأى
العدو ذلك أرسل يطلب الصلح، على ما وقع الاتفاق بينهم وبين الملك الكامل، فأبينا. ولما
كان الليل، تركوا خيامهم وأموالهم وأثقالهم، وقصدوا دمياط هاربين، ونحن في آثارهم
طالبين. وما زال السيف يعمل في أدبارهم، عامة الليل. وحل بهم الحرب والويل.
فلما أصبحنا نهار الأربعاء قتلنا منهم ثلاثين ألفاً، غير من ألقى نفسه في اللجج. وأما
الأسرى فحدث عن البحر ولا حجر. والتجأ الإفرنسيس إلى المنية، وطلب الأمان فأمناه،
وأخذناه وأكرمناه. وتسلمنا دمياط بعون الله تعالى، وقوته وجلاله وعظمته. وذكر كلاماً
طويلاً.
وبعث مع الكتاب غفارة ريدا فرنس إلى الأمير جمال الدين، فلبسها. وهي اسقلاط أحمر،
تحته سنجاب، وفيها شكل يكلة ذهب. فنظم الشيخ نجم الدين محمد، بن الخضر بن
إسرائيل، مقطعات ثلاثاً، ارتجالاً، وهي:

إن غفارة الفرنسيس التي جا ءت حباءً لسيّد الأمراء
كبياض القرطاس لوناً، ولكن صبغتها سيوفنا بالدّماء

وقال - يخاطب الأمير جمال الدين:

يا واحد العصر الذي لم يزل يجوز في نيل المعالي المدا
لا زلت في عزٍّ وفي رفعةٍ تلبس أسلاب ملوك العدا

وكتب عن الأمير جمال الدين مقدمة كتاب، للسلطان:

أسيّد أملاك الزمان بأسرهم تنجّزت من نصر الإله وعوده
فلا زال مولانا يبيح حمى العدا ويلبس أسلاب الملوك عبيده

ولما وصل هذا الكتاب بهذه البشرى، اجتمع عوام دمشق في العشرين من المحرم ودخلوا
كنيسة مريم بالمغاني والبشائر، وهموا بهدمها. وأما النصارى ببعلبك فيقال إنهم سودوا
وجوه الصور، التي في كنائسهم، حزنا على هذه الحادثة. فعلم بهم متولي البلد، فجناهم

جنايةً شديدة، وأمر اليهود بصفعهم وضربهم وإهانتهم.
وفيها نفى السلطان الملك المعظم الملك السعيد مجير الدين حسن، بن الملك العزيز عثمان،
بن الملك العادل - وهو ابن عم أبيه - من الديار المصرية إلى الشام. ووصل إلى دمشق،
واعتقل بعزتا ثم أفرج عنه، على ما نذكره - إن شاء الله تعالى.
مقتل السلطان الملك المعظم
كان مقتله - رحمه الله تعالى - في يوم الثلاثاء، السابع والعشرين من المحرم، سنة ثمان
وأربعين وستمائة
وسبب ذلك أنه لما ملك شرع يبعد مماليك والده وغلمانه وترابيه، ويقرب غلمانه الذين
وصلوا معه من بلاد الشرق وجعل خادمه الطواشي مسرور أستاد داره، والطواشي صبيح
أمير جاندار - وكان عبداً حبشيا فحلاً - وأمر أن يصاغ عصاة من ذهب، وأنعم عليه
بالأموال والإقطاعات. وتوعد جماعةً من مماليك والده، وأهانهم. وكان يسميهم بأسمائهم،
من غير أن ينعت أحداً منهم.
وكان قد وعد فارس الدين أقطاي بالإمرة، فلم يف له. فاستوحش منه. وكانت والدة
خليل - سرية أبيه - قد توجهت إلى القلعة لما وصل إلى الشام، فأرسل إليها يتهددها،
ويطلب منها الأموال والجواهر. فيقال إنها خافته، وكتبت إلى المماليك الصالحية بسببه.
فاجتمع منهم جماعةٌ، واتفقوا على قتله. فلما كان يوم الإثنين - سادس أو سابع عشرين
المحرم، جلس السلطان على السماط، واجتمع الأمراء على العادة. فلما تفرقوا، تقدم أحد
مماليك والده، وضربه بالسيف. فالتقى الضربة بيده، فانهزم الضارب فقام السلطان، ودخل
إلى برج خشب كان في خيمته، وقال: من ضربني ؟ قالوا: الحشيشية. فقال: لا والله، إلا
البحرية ! والله لا أبقيت منهم بقية ! وقد عرفت الضارب واستدعى الجرائحي ليخيط
يده.
فاجتمع الجماعة الذين اتفقوا على قتله، وهجموا عليه، وبأيديهم السيوف مجذوبة. فهرب
إلى أعلى البرج، وأغلق بابه. فحرقوه بالنار، فنزل من البرج، وهرب إلى البحر. فأدركوه،
وضربوه بالسيوف ! فرمى نفسه في البحر، وهو يستغيث بهم، وتعلق بذيل أقطاي،

واستجار به، فما أجاره. وهو يقول: دعوني أعود إلى الحصن، فوالله ما أريد الملك. وهم
لا يلتفتون إلى قوله. وقتلوه في الماء، فمات قتيلاً حريقا غريقا ! وكانت مدة سلطنته واحداً
وسبعين يوماً. وانهزم أصحابه الذين وصلوا صحبته من الشرق، واختفوا.
وكان الذين باشروا قتل الملك المعظم، من مماليك أبيه، أربعة حكى عن سعد الدين
مسعود، بن تاج الدين شيخ الشيوخ، أنه قال: أخبرني صادقٌ أن السلطان الملك الصالح، لما
أمر الطواشي محسن الخادم بقتل أخيه الملك العادل - أمره أن يأخذ معه من المماليك من
يخنقه، فعرض محسنٌ ذلك على جميع المماليك، فامتنعوا بأسرهم، إلا هؤلاء الأربعة، فإنهم
أجابوه وتوجهوا معه، وخنقوا الملك العادل. فسلطهم الله تعالى على ولده الملك المعظم
هذا، فقتلوه.
قال أبو المظفر يوسف سبط ابن الجوزي: وحكى لي العماد بن درباس، قال: رأى جماعةٌ
من أصحابنا الملك الصالح نجم الدين في المنام، وهو يقول:

قتلوه شرّ قتله صار للعالم مثله
لم يراعوا فيه إلاًّ لا، ولا من كان قبله
ستراهم عن قليلٍ لأقلّ الناس أكله

والملك المعظم هذا هو آخر ملوك الدولة الأيوبية، بالديار المصرية، المستقلين بالملك.
وملكت بعده شجر الدر.
ملك شجرة الدر
والدة خليل سرية الملك الصالح نجم الدين أيوب
قال: ولما قتل الملك المعظم، اتفق الأمراء الصالحية والبحرية على إقامة شجر الدر - سرية
السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب - وحلفوا لها، واستحلفوا جميع العساكر الشامية
والمصرية.
وكانت المناشير والتواقيع تخرج باسمها. ويكتب عليها ما صورته: والدة خليل.
ويكتب الموقع: خرج الأمر العالي المولوي السلطاني الخاتوني الصالحي، الجلالي العصمي
الرحيمي - زاده الله شرفاً ونفاذا. وقد شاهدت منشوراً منها، هذه ترجمته.
وتواقيعها موجودةٌ بأيدي الناس، إلى وقتنا هذا. وخطب باسمها على المنابر. واستقر
الأمير عز الدين أيبك - التركماني الصالحي - أتابك العساكر.

ذكر استعادة ثغر دمياط من الفرنج وإطلاق ريدا فرنس
قال: ثم حصل الاتفاق بين الأمراء وريدا فرنس - ملك الفرنج - على أن يسلم ثغر دمياط،
ويحمل إليهم وظيفةً تقررت بينهم، ويطلقوه. فسلم إليهم الثغر في يوم الجمعة، ثالث صفر،
سنة ثمانٍ وأربعين وستمائة. وتوجه هو - وأخوه وزوجته، ومن بقي من الفرنج - إلى
بلادهم. فكانت مدة استيلائهم على الثغر أحد عشر شهرا، وتسعة أيام.
انقراض الدولة الأيوبية من مصر
كان سبب ذلك أن الأمراء اتفقوا على أن يتزوج الأمير عز الدين أيبك التركماني شجر
الدر، فتزوجها، وخلعت نفسها من الملك، وسلمت السلطنة إليه - في التاسع والعشرين من
شهر ربيع الآخر من السنة. وكانت مدة ملكها ثلاثة أشهر وقد قيل إن زواجه بها كان في
سنة تسع وأربعين وستمائة
وانتصب الأمير عز الدين في السلطنة، وتلقب بالملك المعز.
وأقام معه الملك الأشرف:
مظفر الدين موسى، بن صلاح الدين يوسف، بن الملك المسعود صلاح الدين أقسيس ملك
اليمن، بن الملك الكامل - وكان عمره ست سنين. فأقام على ذلك زمناً، ثم حجبه الملك
المعز، واستقل بالملك.
وانقرضت الدولة الأيوبية من الديار المصرية.
الأيوبيون في غير الديار المصرية
وبقي من ملوكها من نذكرهم: بالشام، وحصن كيفا، ونصيبين، وميافارقين. وهم:
الملك الناصر صلاح الدين يوسف، بن الملك العزيز غياث الدين محمد، بن الملك الظاهر
غياث الدين غازين بن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادي - صاحب
دمشق وحلب وحمص، وما مع ذلك
وليس من الذرية الصلاحية من يخطب له بمملكة، سواه. ومن الذرية العادلية من
نذكرهم.
وهم:
الملك المغيث فتح الدين عمر، بن الملك العادل سيف الدين أبي بكر، بن الملك الكامل
ناصر الدين محمد، بن الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد، بن أيوب - صاحب
الكرك والشوبك.

والملك الموحد: تقي الدين عبد الله، بن الملك المعظم غياث الدين تورانشاه، بن الملك
الصالح نجم الدين أيوب - صاحب حصن كيفا ونصيبين، وأعمال ذلك.
والملك الكامل ناصر الدين محمد، بن الملك المظفر شهاب الدين غازي، بن الملك العادل
سيف الدين أبي بكر بن أيوب - صاحب ميافارقين.
ومن الذرية الأيوبية:
الملك المنصور ناصر الدين محمد، بن الملك المظفر تقي الدين محمود ابن الملك المنصور
محمد، بن الملك المظفر تقي الدين أبي سعد عمر، بن شاهنشاه، بن أيوب - صاحب
جاه.
هؤلاء ابن أيوب
ومن الذرية الأسدية: شيركوه بن شادي
الملك الأشرف مظفر الدين موسى، بن الملك المنصور إبراهيم، بن الملك المجاهد أسد
الدين شيركوه، بن الأمير ناصر الدين محمد، بن الملك المنصور أسد الدين شيركوه، بن الأمير
ناصر الدين محمد، بن الملك المنصور أسد الدين شيركوه بن شادي - صاحب تل باشر
والرحبة.
وسنورد في هذا الموضع نبذاً من أخبارهم، تدل على ملخص أحوالهم، إلى حين وفاة كل
منهم، ومن قام بعده من أولاده، إن كان - على سبيل الاختصار.
أما السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف، بن الملك العزيز، بن الملك الظاهر، ابن
الملك الناصر: صلاح الدين يوسف بن أيوب - فإنه كان بيده ملك حلب وأعمالها
ملك ذلك بعد وفاة والده الملك العزيز - كما تقدم - في سنة أربع وثلاثين وستمائة. ثم
استولى على حمص، في سنة ست وأربعين وستمائة: انتزعها من الملك الأشرف موسى، بن
الملك المنصور إبراهيم، بن شيركوه، وعوضه عنها تل باشر - وقد تقدم أيضاً. ثم استولى
على دمشق.
ذكر استيلاء الملك الناصر على دمشق
وفي سنة ثمان وأربعين وستمائة - بعد مقتل الملك المعظم تورانشاه - تجهز الملك الناصر
من حلب بعساكره، فوصل إلى قارا في مستهل شهر ربيع الآخر.

وسبب ذلك أن الأمراء القيمرية، الذين بدمشق، كاتبوه وباطنوه على أخذها. فإن الأمير
جمال الدين موسى بن يغمور - نائب السلطنة بها - اتفق هو والأمراء الصالحية النجمية،
الذين كانوا بدمشق، وتظافروا، واجتمعت كلمتهم. فتغيرت بواطن الأمراء القيمرية،
فكاتبوه، فسار إلى دمشق. ولما اتصل خبر مقدمه بالأمير جمال الدين بن يغمورن أحضر
الملك السعيد بن الملك العزيز عثمان، من قلعة عزتا إلى دمشق - وكان قد اعتقله بها -
كما تقدم، وأنزله في دار فرخشاه.
وتقدم الملك الناصر بعساكره، ونزل القصر. ثم انتقلوا إلى داريا، في يوم السبت سابع
الشهر. وزحفوا على المدينة يوم الأحد ثامنه، وجاؤوا إلى باب الصغير - وكان مسلماً إلى
الأمير صارم الدين القيمري، وإلى باب الجابية وكان مسلماً إلى الأمير ناصر الدين القيمري.
فلما انتهى العسكر الناصري إلى البابين، كسرت أقفالها من داخل المدينة، وفتح البابان،
ودخل العسكر الناصري منهما.
ونهبت دار الأمير جمال الدين، بن يغمورن وسيف الدين المشد. ونهب عسكر دمشق،
وأخذت خيولهم من إسطبلاتهم. ودخل الأمير جمال الدين بن يغمور القلعة، وبها الملك
المجاهد إبراهيم. ثم نودي بالأمان.
ونزل الملك الناصر في دهليز ضرب له بالميدان الأخضر. ونزل الأمير شمس الدين لؤلؤ -
أتابكه - في الجوسق العادلي. ثم انتقل الملك الناصر بعد ذلك إلى القلعة، واستولى على ما
بها من الخزائن والذخائر. واعتقل الأمير جمال الدين بن يغمور، ثم أفرج عنه وأحسن إليه.
واعتقل الأمراء الصالحية، وأرسلهم إلى الحصون، وأقطع أصحابه أخبازهم.
وكان الملك الناصر داود - بن الملك المعظم - قد نزل بالعقيبة، فجاءه الملك السعيد بن
الملك العزيز عثمان، فبات عنده ليلة. ثم هرب إلى قلعة الصبيبة - وكان بها أحد
خدامه، وقد كاتبه - فوصل إليها وفتح له الباب، فدخلها واستقر بها.
وتسلم الملك الناصر داود بعلبك من الحمدي، وتسلم بصرى وصرخد. ثم قبض عليه

الملك الناصر يوسف بعد ذلك - في ثاني شعبان من السنة.
وذلك أن السلطان كان قد
مرض ونزل بالمزة، ونزل الناصر داود بالقصر بالقابون، فأرسل إليه الأمير ناصر الدين القيمري
ونظام الدين بن المولى، فأحضراه إلى المزة، وضربت له خيمة واعتقل بها.
واختلف في سبب القبض عليه: فنقل أنه كان قد طلب من السلطان دستوراً إلى بغداد،
فأذن له وأعطاه أربعين ألف درهم، فأنفقها في الجند وعزم على قصد الديار المصرية. وقيل:
إن الملك الصالح إسماعيل جاءه كتاب من الديار المصرية، فأوقف الأتابك شمس الدين لؤلؤ
عليه. وأخبر القاصد أنه أحضر إلى الناصر داود كتاباً، فسئل عن ذلك، فأنكره. فنقم
عليه السلطان بسبب ذلك. وقيل: بل أشار عليهم الملك الصالح إسماعيل بالقبض عليه،
وقال أنتم ما تعرفونه، نحن نعرفه. وأنتم على قصد الديار المصرية، والمصلحة أن لا نتركه
خلفنا، ولا نستصحبه.
فقبض عليه، واعتقل بالمزة أياماً. ثم نقل في قلعة حمص، واعتقل بها. وأسكن أهله
ووالدته وأولاده في خانقاه الصوفية، التي بناها شبل الدولة كافور الحسامي. ثم نقل إلى
البويضا - وهي قرية قبلي دمشق، كانت تكون لعمه الملك المعز مجير الدين يعقوب بن
العادل. وتوفي بها، كما تقدم.
ذكر توجه رسول السلطان الملك الناصر يوسف إلى الديوان العزيز ببغداد، وما جهزه
صحبته من الهدايا والتقادم، وما أورده الرسول في الديوان العزيز من كلامه
ولما استولى الملك الناصر على دمشق، جهز الصاحب كمال الدين أبا حفص عمر بن أبي
جراده - المعروف بابن العديم إلى الديوان العزيز.
قال تاج الدين علي بن أنجب - المعروف بابن الساعي - في تاريخه: كان وصول كمال
الدين بن أبي جراده إلى بغداد، في شعبان، سنة ثمانٍ وأربعين فأكرم، وخرج إلى لقائه موكب
الديوان العزيزي، مصدراً بعارض الجيش، مجنحاً بخادمين من خدم الدار العزيزة. فالتقاه
ظاهر البلد، ودخل معه. وقبل صخرة باب النوبي على العادة، وانكفأ إلى حيث أنزل.

وحضر - في اليوم الثالث من قدومه - دار الوزير، وأدى رسالته. وعرض ما صحبه من
تحف وهدايا. ومن جملة ذلك: دار خشب بديعة الصنعة، وخمسة وعشرون جملاً،
وعشرة أرؤس من الدواب: منها أربع بغلات، وبقيتها من جياد الخيل، مجللة بالأطلس
وزرديات وخوذ - عمل الفرنج - ومائة وخمسين طقشاً،
وثلاثمائة ترس لليد، وعشرين ثوباً
سقلاط. ومن الثياب: الأطلس والروسي والخطائي والممّوج، ومقاصير ونقايير وخياشى
مذهبة، وحريري ألف وخمسمائة قطعة، وصناديق بها أواني ذهب وفضة مجوهرة، وثلاثمائة
مجلد بخطوط منسوبة، وأصولٍ صحيحة الضبط، ومصحف كريم بخط ابن الخازن، وكتب
عليه من نظمه قوله:

وعليكم نزل الكتاب وفيكم وإلى ربوعكم نحنّ ونرجع

قال: وكان قد جلس له الوزير في الشباك العالي، وجلس بين يديه على الصفة الطويلة،
ظاهر الشباك، حاجبا باب النوبي - وذكر جماعةً. قال: ثم أذن للرسول في الدخول،
وجلس إلى جانب حاجب باب النوبي. وقرأ القراء، ثم نهض الرسول، وخطب خطبةً
بلغية من إنشائه.
قال ابن أنجب: وكنت حاضرا ومن خطه الرائق نقلتها، وهذه نسختها:
بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي أسبغ علينا جزيل النعمة. ودفع عنا وبيل النقمة. ومن علينا بالخلفاء
الراشدين، والأئمة المهديين. وجعلنا باقتفاء آثارهم والاهتداء بأنوارهم خير أمة.
أحمده على هباته السنية، وصلاته الهنية، ومننه التي لا تحصى بحد ونعمه التي لا
تستقصي بعد - حمد من لزمه الحمد ووجب. وتمسك من الطريقة المثلى بأقوى سبب.
وأحلنا الله دار المقامة من فضله، لا يمسنا فيها نصب.
وأشهد أن لا إله الله وحده، شهادة من أزال عنه الشك ونفى، وخلص منه الإيمان
وصفا. وتبوأ من منازل الفوز غرفا، واكتسب بطاعة إمامه فخرا وشرفا. وأشهد أن
محمداً عبده المصطفى المجتبي، ورسوله الذي اقتعد ذروة الشرف واجتبى. وتبوأ على

المقامات رتبا، وفضل العالمين أصلا ونسبا - صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه، ما هبت
شمالٌ وصبا.
والصلاة والسلام على قسيم النبي في النسب، وشريكه في مدارج الفخار والرتب. واحدى
ماله من المناقب والحسب: خليفة الله في أرضه. القائم بسننه وفرضه. المستخرج من
عنصر النبوة، المخصوص بفضيلتي. العلم والأبوة:
إمام الزمان، المتهجد بتلاوة القرآن. الذي هجر في حفظ دين الله وسنه. ودعا إلى سبيل
ربه بالحكمة والموعظة الحسنة. ذي الفضل المبين، والحق اليقين. الإمام الأواه: المستعصم
بالله، أمير المؤمنين لا زالت جباه الملوك العظماء بثرى عتباته الشريفة موسومة. وأرزاق
العباد بما جرى من أوامره اللطيفة مقسومة. والأقضية والأقدار جاريةً بما يوافق حكمه
ومرسومة. والأقذية والأقذار بطول بقائه منفيةً محسومة:
ماذا يقول الذي يتلو مدائحه وقد أتتنا بها الآيات والسّور
إن قال، فالقول يفنى دون غايتها وإن أطال، ففي تطويله قصر
خليفة الله، لا تحصى مناقبكم إنّ البليغ بها في حصرها حصر
أما الشفاعة عنكم في المعاد لنا لذي الكبائر والزّلاّت تدّخر
أما النّدى من نداكم جاد صيّبه من بعد ما ضنّ، فاستسقى به عمر
فالغيث في هذه الدنيا لنا بكم والغوث نرجوه في الأخرى وننتظر
وبعد: فإن الله - وله الحمد - جعل لنا أئمةً خيرة، راشدين بررة. يهتدى بهداهم،
ويجتدى نداهم. دفع عنا الشبة والياس، ورفع بهم النقمة والالتباس. وآخر نسل عم نبيه
العباس. من تمسك بهداهم اهتدى. ومن حاد عن طريقهم حاد الله واعتدى. بحبهم
يدرك الأمل والسول وطاعتهم مقرونةٌ بطاعة الله والرسول. تعظيمهم واجب مفترض.
وبموالاتهم يدرك الفوز والغرض. أقرب الناس إلى الله من هو في ولايتهم عريق، وأولاهم
بالنجاة من هو في بحر محبتهم غريق.
ولما كان عبد الديوان العزيز: يوسف بن محمد بن غازي - المستعصمي - ممن تقمص
بلباس هذه الأوصاف، وتخصص باقتباس هذه الشيم الشراف. وتردى بالتمسك في هذه

الحلة الجميلة، وتبدي بالتنسك بهذه الخلة الجليلة. واغتدى متقلباً في صدقات الديوان.
واغتذى من نعمه بلبان الإحسان، وورث ولاء هذا البيت النبوي الفاخر، كابراً عن كابر،
وأصبح أولاً في العبودية، وإن أمسى زمنه الآخر. وكان أحق العبيد بأن يقبل - لسلفه
سوالف الخدم. وأولاهم بأن يسبل عليه معاطف أذيال الجود والكرم - أحب أن تظهر
عليه آثار هذه النعمة، وأن يدرك بها الفضل في الدنيا، كما يرجو في الآخرة الرحمة.
فارتاد من رعيته من يقوم مقامه في تقبيل الأرض، ويقف عنه هذا الموقف الجميل لأداء
الفرض. ووجد هذا العبد المملوك - الماثل بين يدي مولانا: سلطان الوزراء وسيد الملوك -
أقدمهم في ولايات هذه الدولة النبوية المعظمة أصلا، وأبلغهم في موالاة المواقف المقدسة
المكرمة نسلا، وأصلبهم، عند العجم في دعوى الرق والولاء عودا. وأثبتهم في التعلق بدولة
الحق والانتماء عمودا. فندبه إلى المسير إلى دار السلام. والنيابة عنه في هذا المقام.
والطواف حول كعبة الرجاء والاستلام. وإنهاء ما تجدد من الأحوال بمصر والشام. وأن
يضرع إلى عواطف الإفضال، ومشارع النوال، ويخضع لمواقف الآمال، وشوارع الإقبال في أن
يحفظ له حق الآباء والجدود.
وقد وقف العبد المملوك عنه في هذا الموقف الجليل، وحج عن فرضه إلى كعبة الجود
والتأميل. وحظى باستلام حجر ركنها وفاز بالتقبيل. ويود مرسله لو فاز به أو استطاع إليه
سبيل. فإنه قد حصل للعبد من القبول والثواب. ما أفاء على الأمل وزاد على الحساب.
وتصدق عليه من الديوان العزيز بصدقة، يبقى فخرها في الأعقاب. ولا ينسخ حكمها مر
السنين والأحقاب. والله تعالى يسبغ ظل الديوان العزيز على كافة أوليائه. ويمتعهم بدوام
اقتدار سلطانه وطول بقائه. ويوزعهم شكر مولانا سلطان الوزراء وجزيل آلائه. ويتولى
حسن مجازاته عنهم، فإنهم عاجزون. والحمد لله رب العالمين. وصلى الله على سيدنا
محمد وآله وصحبه، وسلم تسليما.
قد سير عبد الديوان العزيز: يوسف، إلى الخزائن المقدسة، والمواطن التي هي على التقوى

مؤسسة - خدمةً على يد أقل مماليك الديوان وعبيده من طارف إنعام الديوان العميم
وتليده، وسالف الإحسان القديم وجديده. وهو يضرع إلى العواطف الرحيمة، ويسأل من
الصدقات العميمة، أن ينعم عليه بقبولها، والتقدم بحملها إلى الخزائن الشريفة ووصولها. وأن
يكسى بذلك فخراً لا يبلى جدته مر الليالي والأيام. ولا يذهب نضرته كر السنين والأعوام.
والسلام.
فعند ذلك، أذن الوزير مؤيد الدين بن العلقمي في إحضار الهدايا والمد، المقدم ذكره، فأدخل
شيئاً فشيئاً - والرسول قائم - إلى أن أحضر جميعه، وعرف قبوله. ثم انكفأ إلى منزله،
واستحسن إيراده، واستجيد إنشاده وزيد في احترامه، وبولغ في إكرامه.
الحرب بين الملك الناصر والملك المعز
وفي سنة ثمان وأربعين وستمائة - أيضاً - كانت الحرب بين الملك الناصر، والملك المعز
صاحب الديار المصرية.
وذلك أنه لما استقر له ملك دمشق، وأضافها إلى ما بيده، حسن له أتابكه - شمس الدين
لؤلؤ - والأمراء القيمرية، أن يقصد الديار المصرية، وينتزعها من الملك المعز: عز الدين أيبك
التركماني. وكان شمس الدين لؤلؤ - المذكور - يستقل عساكر الديار المصرية، ويقول: أنا
آخذ الديار المصرية بمائتي قناع !.
فسار بجيوشه إليها، فخرج إليها الملك المعز بالعساكر المصرية. والتقوا واقتتلوا بمنزلة
الكراع، بالقرب من الخشبي. فكان الظفر له أولاً، وبلغت الهزيمة بالعسكر المصري إلى
القاهرة. ومنهم من فر إلى جهة الصعيد وذلك في يوم الخميس، العاشر من ذي القعدة من
السنة. واتصل خبر الهزيمة بمن بقلعة الجبل، فخطب للملك الناصر بها - في يوم الجمعة
الحادي عشر من الشهر.
ولما حصلت هذه الهزيمة على العسكر المصري، ثبت الملك المعز في نحو ثلاثمائة فارس
أبطال أصحابه. وحلم بهم على الصناجق الناصرية، رجاء أن يكون الملك الناصر تحتها،
فيظفر به. وكان الملك الناصر قد احتاط لنفسه واعتزل المعركة، وتحيز إلى فئة. فرجع إلى

الشام - وصحبه نوفل الزبيدي، وعلى السعدي. وكان من انهزام عساكره وتمزيق جيوشه،
وقتل أتابكه، ما نذكره في أخبار الملك المعز - جرياً على القاعدة.
وكان الأتابك شمس الدين لؤلؤ قد أسر، فأراد الملك المعز إبقاءه، وأشار عليه بذلك الأمير
حسام الدين بن أبي علي، وقال: لا تقتله، فإنك تأخذ به الشام. فقال الأمير فارس الدين
أقطاي: هذا الذي يقول: إنه يأخذ مصر بمائتي قناع ! فضربوا عنقه !. وكان - رحمه الله
تعالى - أرمني الجنس، صالحا عابدا، يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر. وقتل وقد ناف
على ستين سنة.
ولما حصلت هذه الوقعة، تأكدت أسباب الوحشة بين الملكين: الناصر والمعز، وثارت الفتن
بينهما. وتجردت الجيوش من كل من الطائفتين مقابلة الأخرى، إلى أن قدم الشيخ نجم الدين
البادرائي رسول الخليفة، فأصلح بين الملكين. ووقع الاتفاق على أن يأخذ الملك المعز من
الملك الناصر القدس وغزة، وجميع البلاد الساحلية، فتسلم ذلك. وحلف كلٌ من الملكين
للآخر. ثم استعاد الملك الناصر ذلك من الملك المعز، لما التحق بها لأمراء البحرية عند
هربهم من الديار المصرية، بعد مقتل الأمير فارس الدين أقطاي - على ما نذكر ذلك - إن
شاء الله تعالى. فلنذكر خلاف ذلك من أخباره.

ذكر اتصال السلطان الملك الناصر بابنة السلطان علاء الدين كيقباذ

وفي سنة اثنتين وخمسين وستمائة، وصلت الخاتون الكبرى، ابنة السلطان علاء الدين
كيقباذ السلجقي - صاحب الروم، وأمها ابنة السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر
بن أيوب - صحبة الشريف عز الدين المرتضى - وكان السلطان قد عقد نكاحها قبل
ذلك، فزفت إليه الآن. ووصلت إلى دمشق، واحتفل لها إحتفالاً عظيماً، وتلقاها القضاة
والأكابر، وقدموا لها التقادم الكثيرة، وتجمل الملك الناصر لقدومها تجملاً، لم ير الناس مثله.
وفي هذه السنة، توفي الملك القاهر: نصرة الدين بن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن
أيوب - وهو عم والد الملك الناصر. وكانت وفاته بحلب - رحمه الله تعالى.

وفي سنة أربع وخمسين وستمائة
فتحت المدرسة الناصرية، التي عمرها الملك الناصر داخل باب الفراديس بدمشق، وذكر
بها الدرس بحضرة السلطان.
وفيها شرع الملك الناصر في عمارة تربته ورباطه، غربي قاسيون.
وفيها وصل الشيخ نجم الدين البادرائي رسولا من جهة الخليفة، إلى دمشق. فرتب له في
كل يوم مائة دينار، والإقامات الوافرة. وبنيت له المدرسة البادرائية بدمشق - وكانت قبل
ذلك الدار المعروفة بأسامه.
وفيها - أيضاً - كانت وفاة الملك المعز مجير الدين يعقوب، بن الملك العادل سيف الدين
أبي بكر بن أيوب. ودفن بتربة والده بالمدرسة العادلية بدمشق، وحضر السلطان جنازته
وغلق البلد. وخلف ولدين وهما: شهاب الدين غازي المعروف بالأسود، وسيف الدين أبو
بكر، وابنة - رحمه الله.
وفيها كانت وفاة الشيخ الإمام، العالم الواعظ، شمس الدين أبي المظفر يوسف بن قزغلي:
سبط الشيخ جمال الدين أبي الفرج بن الجوزي. كان والده قزغلي تركياً من عتقاء الوزير
عون الدين بن هبيرة، زوجه أبو الفرج بن الجوزي ابنته، فولدت شمس الدين هذا، فنسب
إلى جده، لا إلى أبيه.
وكانت وفاته بدمشق في ليلة الثلاثاء، حادي عشر ذي الحجة، بمنزله بقاسيون، ودفن
هناك. ومولده في سنة إحدى وثمانين وخمسمائة ببغداد. وشهد السلطان جنازته. وكان
كريماً على الملوك الأيوبية، تقدم من أخباره ما يدل على ذلك.
وله مصنفات منها: مرآة
الزمان - رحمه الله تعالى.
وفي سنة ست وخمسين وستمائة:
كانت وفاة الأمير سيف الدين: علي بن عمر بن قزل التركماني، الياروقي، المصري المولد
والمنشأ، الدمشقي الوفاة، المعروف بالمشد. ودفن بقاسيون. ومولده في شوال سنة اثنتين
وستمائة. وكان فاضلاً أديباً. وله ديوان شعر مشهور - رحمه الله تعالى.
وفيها توفي الشيخ محي الدين: محمد بن علي بن محمد بن أحمد، الطائي الحاتمي، المعروف

بابن العربي، بدمشق - في ثاني جمادى الآخرة، ودفن بقاسيون. ومولده في سابع عشر
رمضان، سنة ثمان عشرة وستمائة.
الملك الناصر ومراسلته هولاكو
وغير ذلك من أحواله - إلى أن قتل - رحمه الله
قالوا: ولما اتصل بالملك الناصر صلاح الدين ما ذكرناه، من أخبار هولاكو، واستيلائه على
الممالك، وتقدم جيوشه، ارتاع لذلك وسقط في يده. وكان قبل ذلك قد تغافل عن مراسلة
هولاكو منذ وصل إلى العراق، فاستدرك الفارط، وجهز ولده الملك العزيز إلى خدمته،
وبعث معه كتاباً إلى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، والتمس منه أن يحسن السفارة بينه
وبين هولاكو، ويعتذر عنه. وكتب علاء الدين بن يعيش - كاتب الملك الناصر - كتاباً إلى
صاحب الموصل، يذكر أنه سير ولده إلى خدمة هولاكو،
واستشهد فيه بقول الشاعر:
والجود بالنفس أقصى غاية الجود:
فقال الملك الناصر: لو استشهدت ببيتي أبي فراس كان أنسب.
فقال: وما هما ؟ قال:
قوله:
فدى نفسه بابنٍ عليه كنفسه وفي الشّدّة الصّمّاء تفنى الذّخائر
وقد يقطع العضو النّفيس لغيره ويدفع بالأمر الكبير الكبائر
فأصلح الكاتب الكتاب.
وتوجه الملك العزيز بالهدايا النفيسة والتحف، وذكر الملك الناصر زين الدين الحافظي
والأمير سيف الدين الجاكي، وجماعةً من الحجاب - وذلك في سنة خمس وخمسين
وستمائة.
فلما وصلوا إلى هولاكو وقدموا التقادم، سأل عن سبب تأخر الملك الناصر عن خدمته.
فاعتذروا أن الفرنج بجوار بلاده، وأنه خشى إن فارقها أن يستولى عدوه عليها، وأنه سير
ولده ينوب عنه. فأظهر هولاكو قبول العذر - وباطنه بخلاف ذلك - وأعادهم. وكان
وصوله إلى الملك الناصر في سنة سبع وخمسين وستمائة.
فعرف الزين الحافظي الملك الناصر أن هولاكو أقبل عليهم، وأحسن إليهم. فقال بعض
الأمراء، الذين كانوا في صحبة الملك العزيز: ليس الأمر كذلك، وإنما الزين الحافظي كان يتردد

إلى هولاكو ويجتمع به سراً، وأطمعه في البلاد. وكان الأمر كذلك.
وفي خلال ذلك، وصل الأمراء الشهروزورية إلى الشام، عند انهزامهم من هولاكو - وكانوا
نحو ثلاثة آلاف فارس. فأشار الأمراء القيمرية باستخدامهم، ليكثر بهم جمعه ويستظهر بهم
على أعدائه. فاستخدمهم، وأنعم عليهم وأحسن إليهم، ووصلهم بالأموال، وهم لا يزدادون
إلا طلبا.
ثم بلغه عنهم أنهم مالوا إلى الملك المغيث صاحب الكرك، فزاد في الإحسان إليهم، فلم
يفد ذلك فيهم. ثم فارقوه، وقصدوا الملك المغيث واتصلوا به. فاجتمع عند البحرية
والشهرزورية، فقويت نفسه وطمع في أخذ دمشق، وكاتب جماعةً من الأمراء الناصرية
وكاتبوه.
فاتصل ذلك بالملك الناصر، فأنعم على أمرائه وطيب خواطرهم، وجدد عليهم الأيمان.
فامتنع جماعةٌ من الأمراء العزيزية - مماليك والده - من الحلف، فزادهم وبالغ في الإحسان
إليهم، ولم يكلفهم اليمين.
ثم بلغه أن الملك المغيث خرج من الكرك لقصد دمشق. فخرج بعساكره في أوائل سنة
سبع وخمسين، ونزل ببركة زيزا، وخيم بها نحوا من ستة أشهر. ثم وقع الصلح بين الملكين.
وحصل الاتفاق على أن يسلم الملك المغيث إليه البحرية، فسلم إليه من نذكره منهم.
وعاد إلى دمشق. فلما استقر بها، بلغه أن هولاكو وصل إلى حران، ونازلها بعساكره.
فاستشار الأمراء فيما يفعله. فأشاروا عليه أن يخرج الشامي إلى ظاهر دمشق، وصمموا
على قتال هولاكو. فخرج بعسكره وخيموا بظاهر برزة. فصار نجم الدين الحاجب والزين
الحافظي - وجماعةٌ معهما - يذكرون شدة عزم هولاكو، ويعظمون أمره، ويقولون: من الذي
يلتقي مائتي ألف فارس ؟! فضعفت نفسه عن ملاقاته.
ثم بلغه أن هولاكو ملك قلعة حران، وأنه عزم على عبور الفرات إلى جهة الشام، ومنازلة
حلب. فازداد ضعفاً إلى ضعفه. فاجتمعت آراء الأمراء والعساكر أن يسيروا نساءهم
وأولادهم إلى الديار المصرية، ويقيمون هم في خدمة الملك الناصر جرائد، ففعلوا ذلك.

وبعث الملك الناصر زوجته: ابنة السلطان علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو السلجقي
صاحب الروم - وكان قد تزوج بها في سنة تسع وأربعين وستمائة - إلى الديار المصرية،
وبعث معها ولده وأمواله وذخائره. وكذلك فعل جميع أمرائه وأجناده، وصار الجند
يتوجهون بنسائهم على أنهم يوصلونهم ويرجعون، فمنهم من يعود، ومنهم من لا يعود.
فتفللت العساكر وتفرقت الجنود، وضعفت النفوس. ولم يبق مع الملك الناصر إلا جماعة من
أمرائه جرائد.
ونازل هولاكو مدينة حلب في المحرم، سنة ثمانٍ وخمسين وستمائة. وفتحها عنوة. وسفك
فيها من الدماء ما لم يسفك مثله، ببلاد العجم ! وأسر التتار من النساء والصبيان ما يزيد
على مائة ألف.
ثم فتح قلعة حلب، في حادي عشر ربيع الأول من السنة، وأخذ جميع ما فيها. وأسر
أولاد الملك الناصر وأمهاتهم. وخرج إليه الملك المعظم تورانشاه بن الملك الناصر صلاح
الدين يوسف بن أيوب - وكان شيخاً كبيراً - فلم يتعرض هولاكو إليه، وأمنه على نفسه.
ومات الملك المعظم بعد أيام يسيرة. واستمر هولاكو بالوزير المؤيد بن القفطي، على حاله.
فورد الخبر على الملك الناصر بأخذ حلب، وهو نازل على برزة. فاستشار الأمراء،
فأشاروا عليه أن يتأخر إلى غزة، وأن يكاتب الملك المظفر قطز ويستدعيه بعساكر الديار
المصرية، ليجتمع الكل على لقاء هولاكو، ودفعه عن البلاد.
فعمل برأيهم. ورحلوا يوم الجمعة بعد الصلاة، منتصف صفر، سنة ثمان وخمسين
وستمائة. فانقضت مملكة الملك الناصر في ذلك اليوم.
وكانت مدة ملكه بحلب ثلاثاً وعشرين سنة، وسبعة أشهر، ومدة ملكه منها بدمشق
عشر سنين، إلا خمسين يوماً. ونزل الملك الناصر بمن معه على غزة، وأقام بها.
ولما توجه الملك الناصر، دخل الزين الحافظي إلى دمشق وجمع أكابرها، واتفقوا على
تسليم دمشق لنواب هولاكو، وأن يحقنوا دماء أهلها. فتسلمها فخر الدين المردغاوي وابن
صاحب أرزن والشريف علي - وكان هؤلاء رسل هولاكو إلى الملك الناصر - وكانوا

عنده بظاهر دمشق: فلما دخلوا إليها وتسلموا قلعتها، كتبو بذلك إلى هولاكو. فسير إليها
المان التتري وعلاء الدين الكازي العجمي، نواباً، وأمرهما هولاكو أن لا يخرجا عن إشارة
الزين الحافظي. وأوصاهما بالإحسان إلى أهل دمشق.
ثم بلغ هولاكو وفاة أخيه منكوقان، فعاد من حلب - كما قدمناه في أخباره.
وبعث كتبغانوين في جيش كثيفٍ إلى الشام فوصل كتبغا إلى دمشق، وأقام بها أياماً،
ورحل عنها إلى مرج برغوث. ثم وصل الملك الأشرف صاحب حمص من عند هولاكو -
وكان قد توجه إلى خدمته وهو بحلب - فعاد، وبيده مرسومة، أن يكون نائب المملكة
بدمشق وحلب، وجميع البلاد الشامية.
فاجتمع بكتبغا في مرج برغوث. فبعث إلى الزين الحافظي ونواب دمشق بالاتفاق مع الملك
الأشرف، على مصالح البلاد. ثم عصى بعد ذلك محمد بن قرمجاه، وجمال الدين بن
الصيرفي - نقيب قلعة دمشق - وأغلقوا أبواب القلعة. فحصرها كتبغا ومن معه وقاتل
قتالاً شديداً، ثم تسلمها بالأمان. فكتب الزين الحافظي بذلك إلى هولاكو، فعاد جوابه بقتل
محمد ابن قرمجاه وجمال الدين بن الصيرفي. فقال كتبغا للزين الحافظي: أنت كتبت إلى
هولاكو بسببهم، فاقتلهم أنت. فقتلهما الزين الحافظي صبراً، بيده وسيفه، بمرج برغوث.
وبعث كتبغا نوين جيشا إلى نابلس، وقدم عليهم كشلوخان، فمضى إليها، وبها فخر الدين
إبراهيم بن أبي ذكرى، نائب السلطنة بها. فركب ومعه الأمير علي بن الشجاع الأكتع،
وفخر الدين درباس المصري وجماعة، فصادفهم كشلوخان في زيتون نابلس، فقتلهم
بأجمعهم.
قال: ولما اتصل بالملك الناصر ومن معه من الأمراء وصول كشلوخان إلى نابلس وما فعله،
حملهم الخوف على دخول الرمل فبلغ الملك المظفر دخولهم، فتوهم أن ذلك مكيدةٌ لتملك
الديار المصرية. فكتب إلى الأمراء الناصرية والشهرزورية، يعدهم بالإكرام والإحسان إن
وصلوا إليه. ففارقوا الملك الناصر ومضوا إلى المظفر، أولاً فأولا. ولم يبق مع الملك الناصر

إلا الملك الصالح نور الدين إسماعيل بن صاحب حمص، والأمير ناصر الدين القيمري،
وأخوه شهاب الدين، وابن عمه شهاب الدين يوسف بن حسام الدين. فوصلوا إلى قطيا.
ثم خشى عاقبة دخوله إلى الديار المصرية، فعطف من قطيا، وسلك البرية إلى الشوبك
بهم. فوصلوا إليها، ولم يبق لكل واحد منهم إلا الفرس الذي تحته، وكل منهم في نفرين أو
ثلاثة، وقد نهبت خزائنهم وأموالهم وذخائرهم وبيوتات الملك الناصر.
ثم توجه الملك الناصر بمن معه إلى الكرك. وأرسل إليه الملك المغيث ما يحتاج إليه من
الخيل والأقمشة والبيوتات وغير ذلك، وعرض عليه المقام عنده، والانفراد بالشوبك.
وقصد مكافأته عن سالف إحسانه، فإنه كان قد أحسن إلى ولده الملك العزيز فخر الدين
عثمان، لما توجه إليه إلى دمشق - على ما نذكره. فلم يجب الملك الناصر إلى ذلك،
ومضى إلى البلقاء وأقام بأطراف البلاد.
وسير حسين الكردي الطبردار إلى كتبغا نوين، يلتمس أمانه.
وقيل: بل حسين الكردي، لما
شعر بالملك الناصر، توجه إلى كتبغا وأعلمه بمكانه. فركب كتبغا بنفسه في جيش كثيف
إلى الملك الناصر وقبض عليه، وعلى من معه. فاعتقل الأمراء القيمرية بدمشق. وكان
الملك الظاهر - أخو الناصر - نازلاً على قلعة صرخد بحربها، بأمر هولاكو. فأمر كتبغا
بطلبه، وقبض عليه. وجاء إلى قلعة عجلون وحاصرها - والملك الناصر معه - وقدمه
إلى القلعة، فأمر من بها أن يسلموها، فسلموها بعد امتناع.
ثم جهز الملك الناصر وأخاه الملك الظاهر، والملك الصالح بن الملك الأشرف، صاحب
حمص، إلى هولاكو - وصحبتهم الملك العزيز فخر الدين عثمان، بن الملك المغيث صاحب
الكرك. فأخبرني المولى الملك العزيز المشار إليه - مد الله في عمره - أنهم توجهوا جميعاً
إلى هولاكو، واجتمعوا به بتوريز. فأما الملك العزيز فأعاده بعد يومين أو ثلاثة، فوصل إلى
دمشق - على ما نذكره. وأما الملك الناصر وابنه الملك العزيز، والملك الظاهر، وابن
صاحب حمص - فإن هولاكو أخرهم عنده.

قال: وبلغني أنه سأله عن أحوال الديار المصرية وعساكرها، فهون أمرها عنده، والتزم له
بفتحها، وحمل أموالها وأموال الشام إليه. ولم يزل يتلطف إلى أن أمر بعوده.
فلما رجع من عنده، لقيه من سلم من الجيش الذين كانوا مع كتبغا نوين، لما كسرهم الملك
المظفر قطز. فقبضوا عليه وأعادوه معهم إلى هولاكو. وقالوا له: ما كان على عسكرك
أضر من مماليك هذا، ومماليك أبيه. وهم الذين قاتلونا وقتلوا كتبغا نوين، وهزموا
عساكرك. فأمر بضرب عنقه، وعنق ولده الملك العزيز، وأخيه الملك الظاهر، وابن
صاحب حمص - وذلك في سنة ثمان وخمسين وستمائة.
واجتمع الناس لعزائه بجامع دمشق في سابع جمادى الأولى، سنة تسع وخمسين وستمائة.
ومولده بقلعة حلب في يوم الأربعاء تاسع شهر رمضان، سنة سبع وعشرين وستمائة.
وكان - رحمه الله تعالى - ملكا حليماً كريماً، لم يكن لأحد من الملوك قبله - فيما سمعنا
- ما كان له من التجمل. فإنه كان يذبح في مطبخه في كل يوم، أربعمائة رأس من الغنم
الكبار - خارجاً عن الخراج الرضع والأجدية والدجاج والحمام. وكان الغلمان يبيعون
فضلات الطعام بظاهر قلعة دمشق، بأبخس الأثمان، حتى استغنى أهل دمشق في أيامه عن
الطبخ في بيوتهم.
حتى حكى عن علاء الدين علي بن نصر الله، قال: جاء السلطان إلى داري بغتة، ومعه
جماعة من أصحابه. فمددت له في الوقت سماطا، فيه من الأطعمة الفاخرة والدجاج
المحشو بالسكر والحلويات شيئاً كثيراً. فعجب من ذلك، وقال: في أي وقت تهيأ لك هذا
كله ؟ فقلت: والله هذا كله من نعمتك وسماطك، ما صنعت منه شيئاً، وإنما اشتريته من
عند باب القلعة.
وحكى مباشرو البيوت بدمشق أن نفقة مطابخه كانت في كل يوم تزيد على عشرين ألف
درهم. وكان إذا مات أحدٌ من أرباب الوظائف في دولته، وله ولدٌ فيه أهلية، فوض ما كان
بيده من المناصب لولده. فإن كان صغيراً استناب عنه إلى أن يصلح. ومن مات من

أرباب الرواتب والصدقات، أقر ما كان باسمه باسم أولاده - رحمه الله تعالى.
وكان له شعر رقيق جيد. فمن شعره قوله، يتشوق إلى حلب:
سقى حلب الشهباء في كل لزبةٍ سحابة غيثٍ نوءها ليس يقلع
فتلك ربوعي، لا العقيبق ولا الغضا وتلك دياري، لا زرود ولعلع
إلا أنه كان ضعيف الرأي، شغلته الملاذ والشعر والغزل وتلحين الأقوال عن النظر في أمر
دولته. فآل أمره إلى ما ذكرناه.
هذا ما كان من أمر الملك الناصر - على سبيل الاختصار.
وبقي بعد مقتله عند التتار صغار أولاده، الذين أسروا من حلب، زمناً طويلاً بعد أن
هلك هولاكو. ومات بعضهم هناك. وبقي منهم ولده الصغير نجم الدين أيوب، فحضر إلى
الشام، ثم إلى الديار المصرية، ورتب له راتب من جهة الملوك - أسوة أولاد الملوك الأيوبية.
وهو باقٍ إلى وقتنا هذا، مقيم بالقاهرة المعزية - حماها الله تعالى.
وأما الملك المغيث فتح الدين عمر ابن السطان الملك العادل، بن السلطان الملك
الكامل، بن السلطان الملك العادل بن أيوب - صاحب الكرك والشوبك
فإنه لما قبض الأمراء على والده - كما قدمنا ذكر ذلك - وملك عمه الملك الصالح نجم
الدين أيوب الديار المصرية، مشى في خدمته مدة. ثم رأى منه نجابةً ونبلاً وشهامة، فأمر
باعتقاله في الدار القطبية عند عمة السلطان وعمة والد الملك المغيث - وهي ابنة
السلطان الملك العادل، أخت الملك الكامل - رحمهم الله تعالى. فلم يزل عندها، إلى أن
مات الملك الصالح وملك ولده الملك المعظم تورانشاه. فأمر بإرساله إلى قلعة الشوبك،
واعتقاله بها. وندب لذلك الأمير عز الدين الحلي، والأمير سيف الدين بلبان النجاحي،
فتوجها به إلى الشوبك، واعتقلاه بها، وعادا إلى الديار المصرية.
فما كان بأسرع من أن قتل الملك المعظم تورانشاه - كما ذكرنا - فلما اتصل خبر مقتله
بابن رسول، وشهاب الدين عمر بن صعلوك - وكانا متوليي أمر الشوبك - نهضا وأخرجا
الملك المغيث من الاعتقال، وملكاه وحلفا له، وحلفا من عندهما - وكانوا نحو عشرة -

وحلفاه بالوفاء لهم. فأرسل إليهما بدر الدين بدر الصوابي الخادم - النائب بقلعة الكرك -
وأنكر عليهم إقدامهما على هذا الأمر بغير إذنه. فأرسلا إليه يقولان: بك فعنا ذلك.
فأعاد عليهما الجواب: إذا كان كذلك، فانقلاه إلى عندي.
فحلف للملك المغيث وحلف الملك المغيث له، وتوثق كلٌ منهما من صاحبه بأكيد
الإيمان. فانتقل الملك المغيث من الشوبك إلى الكرك - في سنة تسع وأربعين وستمائة.
وتسلم ما بها من الخزائن، التي بقيت مما نقل إليها الملك الصالح نجم الدين أيوب - بعد ما
أخذه الملك المعظم منها. فوجد بها تسعمائة ألف وتسعين ألف دينار عيناً. واستمر
بالكرك والشوبك، ورزق بها أولاده.
وراسل الملك الناصر صلاح الدين يوسف - صاحب دمشق وحلب - وأرسل إليه والده
الملك العزيز: فخر الدين أبا المظفر عثمان، برسالة. فأكرمه الملك الناصر وأبره وقربه،
وأجلسه في مجلسه بالقرب منه. ورتب له في كل يوم ألف درهم، وأربعمائة جراية وأربعمائة
عليقة، وغير ذلك، ونقله في مستنزهات دمشق، وأقام عنده نحو ثلاثة شهور. ثم ركبه
الملك الناصر بشعار السلطنة، وأعاده إلى أبيه. وقد عامله بنهاية البر وغاية الإكرام.
وكان للملك المغيث أخبارٌ، يأتي ذكرها في أثناء دولة الترك.
وبعث الملك المغيث ولده العزيز إلى هولاكو، يلتمس له أمانا. وجهز معه شهاب الدين بن
صعلوك والنجيب خزاعة - وهما أعيان أصحابه.
فأخبرني الملك العزيز أنه اجتمع بهولاكو بتوريز، فأمره بالجلوس، مع صغر سنه في ذلك
الوقت. فنظرت إليه الخاتون - زوجة هولاكو - وسألته بترجمان عن أمه، وهل هي باقيةٌ
أم لا ؟ فقال: هي باقيةٌ عند أبي. فقالت للترجمان: قال له: تحب أن أردك إلى أبيك
وأمك، أو تقيم عندي ؟ قال: فأعدت عليها: أنه لا أمر لي في هذا، وإنما أبى أرسلني إلى
القان يسأله الأمان لنفسه ولمن عنده، وأنا تحت أوامره.
فنهضت قائمةً وكلمت هولاكو،
وشفعت. فأشار إليها، فقالت: قد أعطاك القان أماناً لأبيك، ودستورا بالعود !.
قال: فضربت له جوكاً، ورجعت من عنده. وأرسل معي من التتار من يوصلني إلى

الكرك، ويكون بها شحنه. قال: فلما وصلت إلى دمشق نزلت بدار العقيقي، ونزل التتار
بمدرسة العادلية. وكان كتبغا نوين قد توجه للقاء العساكر المصرية. فكانت الكسرة على
التتار - على ما نذكره.
قال: فاتصل الخبر بنا، فتحصنا بدار العقيقي. فلما كان في نصف الليل رجع التتار
هاربين. فقصدوا أخذي معهم، فمانع عني من معي، وأعجلهم الهرب عن حصار الدار،
فتركوني. قال: ولما جاء الأمير جمال الدين المحمدي إلى دمشق - قبل وصول الملك المظفر
قطز إليها - خرجت إليه وتلقيته، وسلمت عليه. فسأل عني، فأخبر أنني ابن الملك
المغيث، فعوقني إلى أن قدم السلطان الملك المظفر قطز. فأمر بإرسالي إلى قلعة الجبل.
فنقل إليها. فكان بها معوقاً في برج، عند الأمير سيف الدين بلبان النجاحي. إلى أن
أعاده الملك الظاهر بيبرس إلى أبيه الملك المغيث - على ما نذكره إن شاء الله تعالى، في
أخباره.
ولم يزل الملك المغيث بالكرك والشوبك، إلى أن استولى الملك الظاهر على الشوبك، لأربعٍ
بقين من ذي الحجة، سنة تسع وخمسين، عندما جرد إليها الأمير بدر الدين الأيدمري.
وبقي بيد الملك المغيث الكرك وأعمالها. ثم حصل الاتفاق بين السلطان الملك الظاهر ركن
الدين بيبرس والملك المغيث، وحلف السلطان الملك الظاهر له يميناً مستوفاة، وأشهد عليه
بما تضمنه مكتوب الحلف.
وقد شاهدت المكتوب. وهو بخط القاضي فخر الدين: إبراهيم بن لقمان - صاحب
ديوان الإنشاء. وما فيه من اسم السلطان بخط السلطان، ومثاله: بيبرس.
ونسخة هذه اليمين - على ما شاهدته ونقلت منه:
بسم الله الرحمن الرحيم
أقول وأنا بيبرس. والله والله والله، وتا لله وتا لله وتا لله، وبا لله وبا لله وبا لله، العظيم
الرحمن الرحيم، الطالب الغالب الضار النافع، عالم الغيب والشهادة والسر والعلانية، القائم
على كل نفس بما كسبت، والمجازى لها بما احتسبت. وجلال الله وعظمة الله وكبرياء الله،

وسائر أسماء الله الحسنى وصفاته العليا - إنني من وقتي هذا وساعتي هذه، وما مد الله
في عمري، قد أخلصت نيتي وأصفيت سريرتي، وأجملت طويتي، في موافقة المولى: الملك
المغيث فتح الدين عمر، بن سلطان الشهيد الملك العادل سيف الدين أبي بكر،بن محمد، بن
أبي بكر بن أيوب، ومصافاته ومودته.
لا أضمر له سوءاً ولا غدراً ولا خديعة ولا مكراً لا في نفسه ولا في ماله، ولا في أولاده، ولا
في مملكته ولا في قلعته، ولا في بلاده، ولا في أمرائه، ولا في أجناده، ولا في غلمانه، ولا في
مماليكه، ولا في ألزامه ولا في عربانه، ولا في رعيته، ولا فيما يتعلق به وينسب إليه، من قليل
وكثير.
وإنني والله لا أعارضه ولا أشاققه، ولا آمر من يعارضه في بلاده الجارية في مملكته، وهي:
قلعة الكرك المحروسة، وربضها وسائر عملها، والغور المعروف بغور زغر - بكماله، وحد
ذلك من القبلة الحسا، ومن الشمال حد الموجب نصف القنطرة والمسيل، ومن الشرق
الثنيتين، ومن الغرب السبخة المعروفة بأبي ضابط، ومنتهى حد الغور المذكور من القبلة
الكثيب الرمل المعروف بالدبة، ومن الشمال الماء النازل من الموجب إلى البحيرة.
وإنني واله لا آمر ولا أشير، ولا أكتب، ولا آذن بصريح ولا بكناية، ولا بقول لأحد، في
التعرض لبلاده المذكورة، ولا السعي فيها بفساد. وإنني ولله متى حضر المولى الملك المغيث
فتح الدين عمر المذكور إلى خدمتي، عند حلولي بالشام المحروس، لمنازلة عدو يطرق بلادي،
أو لعدو يطرق بلاده، لا أتعرض إليه بأذية، ولا أقصده بسوء في نفسه ولا في ما له ولا في
بلاده، ولا في أمرائه ولا في أجناده، ولا في عربانه ولا في مماليكه، ولا في رعيته، ولا فيمن
يصل صحبته من أصحابه.
وإنني والله لا أطالبه، و أطالب أحداً من أمرائه وأجناده، وأصحابه ومماليكه ولا من
غلمانه، ولا من رعيته ولا من عربانه، ولا أحداً من سائر أصحابه، بسبب متقدم إلى تاريخ
هذه اليمين المباركة. ولا أمكن أحداً من أمراء دولتي، ولا من جندها، ولا من سائر

مماليكي، وأصحابي من الجماعة البحرية وغيرهم، من مطالبته ولا مطالبة أحد من أمرائه
وأجناده ومماليكه ورعيته، وسائر أصحابه، أهل الكرك وغيرهم، بسبب متقدم عن تاريخ
هذه اليمين المباركة - صامت كان أو غير صامت - من قماش وأثاث، وغير ذلك.
وإنني والله، لا أستخدم أحداً من أمراء المولى الملك المغيث: فتح الدين عمر المذكور، ولا
من أجناده ولا من أجناد أمرائه، ولا من مماليكه ولا من مماليك أمرائه، ولا من عربانه ولا
من غلمانه، إلا من انفصل عنه بدستور. ومتى تسحب أحد من أمرائه أو أجناده، أو
أجناد أمرائه أو مماليكه، أو ممالك أمرائه أو غلمانه أو عربه، أو غير ذلك من أصحابه
وفلاحي بلاده، وحضر إلى بلادي أو إلى مملكة من ممالكي، والتمس عوده إليه - تقدمت
بإعادته إليه، بجهدي وطاقتي.
وإنني والله متى قصد بلاد المولى الملك المغيث فتح الدين عمر المذكور عدو - مسلماً كان
أو كافراً - أعنته على دفعه وزجره وردعه، جهدي وطاقتي.
وإنني والله، متى تعرض أحد
من عرب بلادي إلى بلاد المولى الملك المغيث فتح الدين عمر المذكور، أو إلى جهة من
جهات مملكته، أو إلى أحد من رعيته أو أحد من سائر أصحابه، أو سعى بفساد فيما
يتعلق بمملكته، واطلعت عليه - تقدمت بزجره وردعه عن ذلك، وفعلت في أمره ما
تقتضيه السياسة.
وإنني والله - أفي للمولى الملك المغيث: فتح الدين عمر، بن السلطان الملك العادل سيف
الدين أبي بكر، بن الملك الكامل محمد، بن أبي بكر بن أيوب - بهذه اليمين من أولها إلى
أخرها، ما دام وافياً لي باليمين التي يحلفه بها نائبي، لا أنقضها ولا شيئاً منها، ولا أستثني
فيها ولا في شيء منها، ولا أستفتي فيها ولا في شيء منها، طلباً لنقضها أو نقض شيء
منها. ومتى نقضتها أو نقضتها فيها أو في شيء منها، طلباً لنقضها أو نقض شيء منها،
فكل ما أملكه من صامت وناطق - صدقة على الفقراء والمساكين من المسلمين. وكل
مملوك أو أمة في ملكي، أو أتملكهما فيما بقي من عمري، حر من أحرار المسلمين. وعلى

أن أفك عشرة آلاف رقبة مؤمنة من أيدي الكفار، إن خالفت هذه اليمين أو شيئاً منها.
وهذه اليمين يميني، وأنا بيبرس. والنية فيها بأسرها نية المولى الملك المغيث فتح الدين
عمر، بن السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر، بن الملك الكامل ناصر الدين محمد،
بن أبي بكر، بن أيوب، ونية مستحلفي له بها - أشهد الله على بذلك، وكفى به شهيدا.
فمن نكث فإنما ينكث على نفسه، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيما.
وشهد على السلطان الملك الظاهر، بهذه اليمين، من نذكرهم وهم: الأتابك فارس الدين
أقطاي، وأقوش النجيبي، وقلاوون الألفي، وعز الدين أزدمر، وأيدمر الحلى، وبيسري
الشمسي، وبيليك الكرندار، وأيبك الأفرم، وكاتب اليمين إبراهيم بن لقمان بن أحمد. وهي
مؤرخة في الثالث والعشرين من المحرم، سنة ستين وستمائة.
وشهد على السلطان اثنان ممن
حضر من الكرك، وهما: أمجد الكركي - وهو كاتب الملك المغيث - وكان قد أمره، وآخر
لم أحقق اسمه عند قراءته.
وبآخر رسم خط الشهود خط المستحلف. وصورته:
أحلفت مولانا السلطان الكبير، العالم المجاهد، المرابط المؤيد المنصور، الملك الظاهر أبا
الفتح بيبرس بن عبد الله، الصالحي، أعز الله سلطانه - بهذه اليمين المباركة من أولها إلى
آخرها، على الوجه المشروح فيها، تاريخ الثالث والعشرين من المحرم، سنة ستين وستمائة -
أحسن الله تقضيها. وكتبه خزاعة بن عبد الرزاق بن علي - حامداً لله تعالى ومصليا.
وجهز السلطان الملك الظاهر للملك المغيث ولده الملك العزيز فخر الدين عثمان - وكان
معتقلا بالقلعة من الأيام المظفرية، كما قدمنا - فأطلقه السلطان الآن، وأقطعه ذبيان
بمنشور، ثم سير إليه السلطان بعد ذلك صنجقاً وشعار السلطنة. فقبل الملك المغيث
عقب الصنجق، وركب بشعار السلطنة.
وظن الملك المغيث أن الصلح قد انتظم بمقتضى هذه اليمين، فركن إلى ذلك. ثم جهز
والدته ي سنة إحدى وستين وستمائة إلى الملك الظاهر.
فوجدها السلطان بغزة، فأنعم

عليها إنعاماً كبيراً، وعلى من معها. وأجرى معها الحديث في وصول الملك المغيث إليه،
لينتظم الصلح شفاهاً، وتتأكد أسبابه. وأعاد عليها العطاء ثانياً، وجهزها إلى الكرك،
وجهز في خدمتها الأمير شرف الدين الجاكي المهمندار، لتجهيز الإقامات للملك المغيث.
فاغتر الملك المغيث بذلك. واستخلف ابنه الملك العزيز فخر الدين بالكرك، واستحلف له
من تركه بقلعة الكرك، وترك عنده بقية أولاده - إخوة الملك العزيز - وكان له سبعة أولاد
ذكور، أسهم الملك العزيز فخر الدين عثمان. وولد له بعد قبضه ابنان. وكان الملك العزيز،
يوم ذاك، صغير السن، فإن مولده - كما أخبرني به - في الأول من يوم الإثنين ثالث شوال،
سنة اثنتين وخمسين وستمائة.
وفارق الملك المغيث الكرك، وتوجه إلى السلطان الملك الظاهر، وهو بمنزلة الطور. فلما
بلغ السلطان وصول الملك المغيث إلي بيسان، ركب إليه وتلقاه، وساقا جميعاً إلى منزلة
السلطان. فلما وصل الملك المغيث إلى باب الدهليز، ترجل ودخل إلى الخيمة. فأدخل
على خركاه، وقبض عليه وعلى من معه - وذلك في يوم السبت السابع والعشرين من
جمادى الأولى، سنة إحدى وستين وستمائة. وأظهر السلطان لقبضه سبباً، نذكره في
أخبار السلطان الملك الظاهر - إن شاء الله تعالى - تقف عليه بعد هذا.
ولما قبض عليه، جهزه في تلك الليلة إلى قلعة الجبل - صحبة الأمير شمس الدين آقسنقر
الفارقاني. ولما وصل إلى قلعة الجبل، أدخل البرج الذي كان به ولده الملك العزيز فخر الدين
عثمان، فقال للأمير سيف الدين بلبان النجاحي - متولي قلعة الجبل -: في هذا البرج كان
ولدي عثمان ؟ قال: نعم.
ولم يستقر بذلك البرج، بل نقل منه في يومه، وأدخل إلى قاعة من قاعات الدور السلطانية،
فقتل من يومه. وكان آخر العهد به.
وتولى ذلك الأمير عز الدين أيدمر الحلى - نائب السلطنة - بالغيبة. واستدل على قتله أن
بعض الخدام حكى، فقال: لما أدخل الملك المغيث إلى القاعة، طلب له طعام من الآدر

السلطانية - قال الخادم: فتوجهت لإحضار الطعام، فأتيت به على رأس خادم آخر،
فوجدت الأمير عز الدين قد خرج من القاعة، وأغلق الباب !
فقلت: قد حضر الطعام.
فقال: بعد أن أغلقنا الباب لا نفتحه في هذه الليلة. فرجعت بالطعام. ولم يفتح ذلك الباب،
إلى ثلاثة أشهر أو نحوها.
وكان مولد الملك المغيث - رحمه الله تعالى - بمنزلة العباسة في شهر ربيع الأول، سنة
أربع وثلاثين وستمائة.
ولما قبض عليهم، جهز الملك الظاهر، إلى الكرك، الأمير بدر الدين بيسرى، والأمير أيدمر
الظاهري، وكتب إلى من بها يعدهم الإحسان. ثم توجه بنفسه إليها، وتسلمها على ما
نذكره، إن شاء الله تعالى، في أخباره. وأنعم على ولده: الملك العزيز فخر الدين عثمان
بإمرة مائة فارس. ورتب لإخوته وأهله الرواتب. ثم قبض عليه، بعد ذلك، واعتقله -
على ما نذكره إن شاء الله تعالى.
وأما الملك الموحد تقي الدين عبد الله ابن الملك المعظم تورانشاه، بن الملك الصالح نجم
الدين أيوب، ابن الملك الكامل ناصر الدين محمد، بن الملك العادل سيف الدين أبي بكر
محمد بن أيوب - صاحب حصن كيفا ونصيبين وأعمالها
فإن والده الملك المعظم كان قد تركه بحصن كيفا، عند قدومه إلى الديار المصرية، وهو
دون البلوغ. فاستمر بالحصن بعد مقتل والده، ودبر. أمر دولته خادماً أبيه: افتخار الدين
ياقوت، وجمال الدين طقز. فلم تزل هذه المملكة بيده، إلى أن استولى هولاكو على البلاد.
فلما قارب بلاد الملك الموحد خرج إليه بأمان وتلقاه، وقدم له أشياء مما كان عنده من
التحف ونفائس الذخائر، فأقره على عمله. ولم يتعرض لحصن كيفا، ولا هراق به دما. وقرر
عليه قطيعة في كل سنة أحد عشر ألف دينار ثمنها ستة وستين ألف درهم. ثم خرجت
نصيبن عنه. وذلك أن صاحب ماردين: الملك المظفر، بن الملك السعيد بن أرتق -
ضمنهما من التتار، وأضافها إلى مملكته.
ثم نقل أبغا بن هولاكو - في أول دولته - الملك الموحد إلى الأردوا، وأخلى قلعة حصن
كيفا، وخربها.

وسبب ذلك أن الملك الظاهر ركن الدين بيبرس، لما ملك الديار المصرية وما معها، خشي
عاقبة الملك الموحد، وأنه من البيت الأيوبي، وملك الديار المصرية لأبيه وجده، وجد أبيه
وجد جده. فأمر بمكاتبته ومكاتبة خادميه - عن جماعة من الأمراء الصالحية -
يستدعون الملك الموحد إليهم، ليملكوه ملك آبائه. ووصلت الكتب بذلك إليهم،فمالت
نفوس الخدام إلى ذلك ورغبوا فيه، ولم يخشوا عاقبة المكايد.
فحملهم حب ذلك على أن أجابوا الأمراء عن كتبهم: أنهم يصلون إليهم بالملك الموحد.
وأخذ القصاد الكتب ورجعوا، فظفر بهم مقدم التتار. فأرسل الكتب إلى أبغا، فأحضره،
وأحضر الخادمين، وقتلهما. وأقره بالأردوا مدة سبع سنين - هذا، ونائبه مقيم بحصن
كيفا. ثم أطلقه وأعاده إلى الحصن. فكان به إلى أن توفى.
وكانت وفاته - رحمه الله -
ضحى يوم الأحد، النصف من شهر ربيع الآخر، سنة اثنتين وثمانين وستمائة.
وكان له من الأولاد الذكور ثلاثة عشر، وهم: الأمير سيف الدين أبو بكر شادي الكبير،
وعلاء الدين علي الكبير، ومغلطاي - وإنما سمي بذلك، لأنه ولد بالأردوا، فأمرت قولى
خاتون، زوجة هولاكو، أن يسمى بذلك. وأرسلان، ويوسف، وزكرى، وعثمان، وخليل،
وعلي الأصغر، وإبراهيم شقيقه، وأبو بكر الأصغر - وهو ابن أخت ناصر الدين يحيى،
بن جلال الدين الحيتي، أحد مقدمي التتار. ونجم الدين أيوب، وحسن. ومات من أولاده
- قبل وفاته - الملك المعظم محمد - مات قبل والده بسبع أيام. واللمسن - وهو شقيق
أرسلان.
ولما مات الملك الموحد، ملك حصن كيفا بعده ولده: الملك الكامل سيف الدين أبو بكر
شادي - بتقرير التتار. فاستمر إلى شهر رجب، سنة تسع وتسعين وستمائة. ثم قتله
قازان، ملك التتار. وسبب ذلك أن بعض إخوته شكوه له، وذكروا أنه قتل بعضهم.
وملك بعده الملك العادل سيف الدين أبو بكر الأصغر، ملكه قازان، رعاية لحق أخواله.
فملك أربعة أشهر، وقتل بمنزلة الميدان - بقرب إربل - قتله الأكراد، هو وأخوه أرسلان -

وكان نازلين بتلك المنزلة مع جماعة من التتار، كبسهم الأكراد الشهرية بها.
وملك بعده أخوه الملك المعظم، حسام الدين خليل - أربعة أشهر - فعسف وظلم
فنازعه في المملكة ابن أخيه الملك الصالح صلاح الدين يوسف، بن الملك الكامل سيف
الدين أبي بكر، بن الملك الموحد، وشكاه إلى التتار، فسلم إليه عمه الملك المعظم، فخنقه.
واستقر الملك الصالح هذا في المملكة بحصن كيفا، خمس سنين. ثم نازعه عمه حسن،
وتوجه إلى التتار فملكوه الحصن. ولقب الملك الظاهر بدر الدين حسن، وأرسلوا معه
عسكرا، فهرب ابن أخيه أمامه. وأقام بالحصن سنة.
ولحق الملك الصالح بالشيخ الشرف، بن الشيخ عدي الهكاري، بجبل هكار، وأقام سنة.
ثم جمع جمعاً كثيراً من الأكراد، وعاد إلى الحصن، عند خلو البلاد من التتار، وحاصر عمه
الملك الظاهر حسن، مدة أربعة أشهر. فوافقه أهل القلعة وسلموه إليه، فقتله، وعاد إلى
مملكته. وأرسل إلى التتار وأرضاهم، فأقروه. فهو إلى وقتنا هذا.
أخبرني بذلك المولى الأمير علاء الدين علي، بن الملك الموحد - وهو على الأصغر، المقدم
الذكر - وهو يوم ذاك بالقاهرة المعزية.
وكان قد فارق الحصن، لما حصل من ابن أخيه هذا: من قتل إخوته أولاد الملك الموحد.
ووصل إلى الديار المصرية، في أوائل سنة ثلاث وسبعمائة، واستقر بها. وأقطعه السلطان
الملك الناصر إقطاعاً متميزاً، بحلقتها. وأخبرني أنه لم يبق من أولاد الملك الموحد - لصلبه
- سواه. وأن بقية من ذكرناهم أفناهم الموت والقتل.
وذلك في سنة أربع وعشرين وسبعمائة.
وأما الملك الكامل ناصر الدين محمد ابن الملك المظفر شهاب الدين غازي ابن الملك
العادل: سيف الدين أبي بكر بن أيوب صاحب ميافارقين
فإنه لم يزل بها، إلى أن ملك التتار البلاد. فندب هولاكو صرطق نوين، وقطغان نوين
لمحاصرته بميافارقين، بطائفة كثيرة من التتار. فحاصروه مدة سنتين، حتى قلت الأقوات
عندهم، وأكلوا الكلاب والسنانير والميتة. ففتحها التتار بعد أن فنى من عنده من الجند

ممن القتال - وذلك في سنة ثمان وخمسين وستمائة. وأسر الملك الكامل، وتسعة نفر من
مماليكه، وأحضروا بين يدي هولاكو، فقتلوا، إلا مملوكاً واحداً - كما تقدم في أخبار هولاكو
وكان الملك الكامل هذا - رحمه الله تعالى - ملكاً حازماً كريماً، كثير الزهد والورع. ولما
قتل - رحمه الله - حمل التتار رأسه على رمح، وطيف به البلاد. ومروا به على حلب
وحماه. وأتوا به إلى دمشق - في سابع عشر جمادي الأولى من السنة - وطافوا به
دمشق، وأمام الرأس المغاني والطبول ! وعلق رأسه بباب الفراديس، إلى أن دخل الملك
المظفر قطز إلى دمشق - بعد هزيمة التتار - فأنزل الرأس، ودفن بمشهد داخل باب
الفراديس.
فقال الشيخ شهاب الدين أبو شامه الحسين في ذلك، من أبيات:

ابن غازي غزا وجاهد قوماً أثخنوا في العراق والمشرقين
طاهراً عالياً، ومات شهيداً بعد صبر عليهم عامين
لم يشنه إذ طيف بالرأس منه وله أسوة برأس الحسين
ثم واروا بمشهد الرأس ذاك الرأ س، فاستعجبوا من الحالتين

وأما الملك المنصور ناصر الدين محمد ابن الملك المظفر تقي الدين محمود، بن الملك
المنصور أبي عبد اله محمد، بن الملك المظفر تقي الدين أبي سعيد عمر، بن شاهنشاه
بن أيوب صاحب حماه
فإنه كان قد ملك حماه بعد وفاة والده - في ثامن جمادي الأولى، سنة اثنتين وأربعين
وستمائة. فاستمر في ملك حماه، وطالت مدته. وكان يتردد إلى الديار المصرية في الأيام
الظاهرية والمنصورية، وهم يعظمونه. وهداياه وتقادمه تصل إلى الملوك. وهو يشهد معهم
الحروب والوقائع، بعسكر حماه.
وما زال كذلك، إلى أن توفي في شوال، سنة ثلاث وثمانين وستمائة. ومولده في الساعة
الخامسة من يوم الخميس، لليلتين بقيتا من شهر ربيع الأول، سنة اثنتين وثلاثين وستمائة.
ولما توفي، رتب السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون في ملك حماه ولده: الملك
المظفر تقي الدين محمود بن محمد. وكوتب من ديوان الإنشاء بما كان يكاتب به والده.

وحملت إليه وإلى أهله وإلى أهل بيته الخلع والتشاريف السلطانية واستقر في ملك حماه إلى
أن توفي في يوم الخلع والتشاريف السلطانية واستقر في ملك حماه إلى أن توفي في يوم الخميس،
الحادي والعشرين من ذي القعدة، سنة ثمان وتسعين وستمائة، ودفن ليلة الجمعة. وكان
مولده في الساعة العاشرة من ليلة الأحد، خامس عشر المحرم، سنة سبع وخمسين
وستمائة.
واستقرت المملكة الحموية بعد وفاته في يد نواب ملوك مصر. وكان أول من وليها من
النواب: الأمير شمس الدين قرا سنقر المنصوري، نقل من الصبيبة إليها. ثم نقل منها إلى
نيابة حلب، في سنة تسع وتسعين وستمائة، بعد وقعة قازان. وفوضت نيابة السلطنة بحماه
غل الملك العادل زين الدين كتبغا المنصوري - وكان قبل ذلك بصرخد - فلم يزل بها إلى
أن مات، في سنة اثنتين وسبعمائة. فوليها الأمير سيف الدين قبجاق المنصوري، فكان بها
إلى أول الدولة الناصرية الثانية. ونقل منها، في سنة تسع وسبعمائة، إلى نيابة المملكة
الحلبية. وفوضت نيابة السلطنة بحماه للأمير سيف الدين أسندمر كرجى
فكان بها، إلى أن فوض السلطان - الملك الناصر - نيابة المملكة الحموية إلى الأمير عماد
الدين إسماعيل، بن الملك الأفضل نور الدين علي، ابن الملك المظفر محمود، بن الملك
المنصور محمد، بن الملك المظفر تقي الدين عمر، بن شاهانشاه بن أيوب، في سنة عشر
وسبعمائة
فاستمر في نيابة السلطنة مدة ثم كوتب بعد ذلك من ديوان الإنشاء بالمقام العالي الملكي
العمادي ولم يزل كذلك، إلى أن فوض السلطان الملك الناصر إليه سلطنة حماه، ولقبه بالملك
المؤيد. وركب بالقاهرة المحروسة بشعار السلطنة، وذلك في يوم الخميس سابع عشر المحرم،
سنة عشرين وسبعمائة - على ما نذكره ذلك، إن شاء الله تعالى، في أخبار الدولة
الناصرية. وهو باق إلى وقتنا هذا. ويصل في كل سنة إلى الأبواب السلطانية الملكية
الناصرية بالتقادم والتحف، ويحصل له الإنعام السلطاني، والتشاريف، وغير ذلك.

وملوك حماه - وإن لقبوا بألقاب الملوك، وخوطبوا وكوتبوا بما يخاطب ويكاتب به الملوك -
فلا تعد أيامهم من جملة الدولة الأيوبية، لأنهم في الخدمة السلطانية على رسم النواب. وإنما
أوردنا ما ذكرناه من أخبارهم، لتعلم.
وأما الملك الأشرف مظفر الدين موسى ابن الملك المنصور إبراهيم، بن الملك المجاهد
أسد الدين شيركوه ابن الأمير ناصر الدين محمد، بن الملك المنصور أسد الدين شيركوه
ابن شادي.. صاحب تل باشر والرحبة
فقد ذكرنا أنه كان بيده حمص وتدمر والرحبة، إلى أن استولى الملك الناصر - صاحب
حلب - على حمص، في سنة ست وأربعين وستمائة، وعوضه عنها تل باشير. فلم يزل بها
إلى أن استولى هولاكو على حلب - كما ذكرنا في سنة ثمان وخمسين وستمائة - فحضر
إليه، فأكرمه هولاكو، وأعاد عليه حمص، وفوض إليه نيابة السلطنة بالشام والسواحل.
فلما هزم الملك المظفر سيف الدين قطز التتار على عين جالوت، ووصل إلى دمشق - أقره
على حمص والرحبة وتدمر. وأقر الملك الظاهر - بعده - ذلك بيده، إلى أن توفي في حادي
عشر صفر، سنة اثنتين وستين وستمائة.
ولم يكن له عقب، فاستقر ما كان بيده في يد نواب السلطنة، إلى وقتنا هذا. ولبعض من
ذكرنا أخبارهم في هذا الوضع، أخبار ووقائع مع الملوك، يأتي ذكرها في أخبار ملوك الديار
المصرية - على ما تقف على ذلك، إن شاء الله تعالى، في مواضعه. وإنما ذكرناهم في هذا
الموضع، لتكون أخبارهم مجتمعة، على سبيل الاختصار.
إنتهاء الدولة الأيوبية
وكانت هذه الدولة الأيوبية بالديار المصري - منذ ولي الملك المنصور أسد الدين شيركوه
وزارة العاضد لدين الله العبيدي، ولقبه بالملك المنصور أمير الجيوش، في سابع عشر شهر
ربيع الآخر، سنة أربع وستين وخمسمائة، إلى أن ملك السلطان الملك المعز عز الدين أيبك
التركماني الصالحي، في التاسع والعشرين من شهر ربيع الآخر، سنة ثمان وأربعين وستمائة -
أربعاً وثمانين سنة، وأربعة أشهر، واثني عشر يوماً - وإلى أن استولى هولاكو على الشام،

وهرب الملك الناصر، صاحب الشام وحلب، في النصف من صفر سنة ثمان وخمسين
وستمائة، ثلاثاً وتسعين سنة، وعشرة أشهر، تقريباً.
هذا ما أمكن إيراده من أخبار هذه الدولة الأيوبية، على سبل الاختصار. فلنذكر أخبار
دولة الترك، وهي فرع الدولة الأيوبية.
دولة الترك
وابتداء أمر ملوكها، وما ملكوه من الممالك والحصون والأقاليم والثغور والأعمال، وما
افتتحوه، وغير ذلك من أخبارهم
كان ابتداء هذه الدولة بالديار المصرية. ثم انتشر بالبلاد الشامية، ثم امتدت إلى الممالك
الحلبية والفراتية. ثم استولت على الثغور والقلاع والحصون الساحلية. واستنفذت
حصون الدعوة من أيدي الإسماعيلية. وبلغت المملكة الرومية. ودانت لها الأقطار اليمانية
والحجازية.
وانتمت إليها الطوائف القرمانية. ورغب في مسالمتها الملوك الجنكزخانية. ونفذت أوامرها
واتصلت أحكامها ببلاد إفريقية وما يليها، والتكرور وما يدانيها. ودخل في طاعتها وعقد
ذمتها من بإقليم النوبة، من بلاد الدو، المجاور لثغر أسوان، إلى بلاد الكرسي والعريان، وهو
آخر العمل بالقرب من مجرى نهر النيل. على ما نورد ذلك، إن شاء الله تعالى، ونوضحه
ونبينه ونشرحه.
ولنبدأ بذكر أخبارهم، وسبب الاستيلاء عليهم.
ذكر أخبار الأتراك وابتداء أمرهم وكيف كان سبب الاستيلاء عليهم، واتصالهم
بملوك الإسلام. ومن استكثر منهم، وتغالى في اتباعهم وقدمهم على العساكر
قد ذكرنا في أخبار الدولة العباسية من اتصل منهم بالخلفاء، وتقدم على العساكر، وعلا
قدره وطار اسمه. وذكرنا أيضاً في أخبار الدولة العبيدية - في أيام المستنصر بالله - ما
كان من أمرهم، وقيامهم، ومحاربتهم ناصر الدولة بن حمدان - تارة، ومعه أخرى.
ثم ذكرنا أن الملك الناصر - صلاح الدين يوسف بن أيوب - كان من اهتم بتحصيلهم،
وأخوه الملك العادل، ثم ابنه الملك الكامل. وكانوا إذ ذاك لا يجلبهم التجار إلا خفية، ولا

يقدرون على تحصيلهم إلا سرقة، لأن حماهم كان مصونا من التجاهر ببيعهم، أو التطرق
إليهم.
وأما السبب الموجب للاستيلاء عليهم، وبيعهم في الأمصار - فهو أنه لما ظهر جنكزخان
التمرجي، ملك التتار، واستولى على البلاد الشرقية والشمالية، وبث عساكره في البلاد،
فانتهوا إلى بلاد القفجاق واللان، وأوقعوا بهم - على ما قدمنا ذكره، في أخبار الدولة
الجنكزخانية - فبيعت ذرارى الترك والقفجاق، وجلبها التجار إلى الأمصار.
ثم رجعت عنهم هذه الطائفة الذين ندبهم جنكزخان إليهم، في سنة ست عشرة وستمائة
- وهم التتار المغربة - وعادوا إلى ملكهم جنكزخان.
واستقرت طوائف الأتراك بأماكنهم من البلاد الشمالية. وهو أصحاب عمود، لا يسكنون
دارا، ولا يستوطنون جدارا، بل يصيفون في أرض ويشتون بأخرى. وهم قبائل كثيرة فمن
قبائلهم ما أورده الأمير ركن الدين بيبرس، الدواداري المنصوري، نائب السلطنة الشريفة كان
- أحسن الله عقباه، وقد فعل، وعامله بألطافه فيما بقي من الأجل - في تاريخه: قبيلة
طقصبا. وتيبا. وبرج أغلى. والبرلي، وقنغر أغلى. وأنجغلي. ودروت. وقلابا أغلى.
وجرتان وقرا تركلي. وكتن.
قال: ولم يزالوا مستقرين في مواطنهم، قاطنين بأماكنهم، إلى سنة ست وعشرين وستمائة.
فاتفق أن شخصاً من قبيلة دروت يسمى منغوش بن كتن خرج متصيداً، فصادفه شخص
من قبيلة طقصبا اسمه آق كبك - وكان بينهما منافسة قديمة - فأخذه أسيراً، ثم قتله.
وأبطأ خبر منغوش عن أبيه وأهله، فأرسلوا شخصاً اسمه جلنغر لكشف خبره، فعاد
إليهم وأخبرهم بقتله. فجمع أبوه أهله وقبيلته وساق إلى آق كبك. فلما بلغه مسيرهم
نحوه، جمع أهل قبلته وتأهب لقتالهم. فالتقوا واقتتلوا، وكان الظفر لقبيلة دروت، وجرح آق
كبك وتفرق جمعه.
فعند ذلك أرسل أخاه أنص إلى دوشي خان بن جنكزخان - وكان أوكدى، وهو الملك
يومئذ بكرسي جنكزخان، قد ندبه إلى البلاد الشمالية - مستصرخاً به، وشكا إليه ما

حل بقومه من قبيلة دروت القبجاقية، وأعلمه أنه إن قصدهم لم يجد دونهم من يمانع.
فسار إليهم في عساكر، وأوقع بهم، وأتى على أكثرهم قتلاً وأسرا وسبيا. فاشتراهم عند
ذلك التجار، ونقلوهم إلى البلاد والأمصار.
وأما أول من استكثر منهم وتغالى فيهم، وقدمهم على العساكر، فهو الملك الصالح نجم
الدين أيوب بن الملك الكامل.
وقد ذكرنا في أخبار الدولة الكاملية - في سنة سبع وعشرين وستمائة - أن الملك الكامل
اتصل به أن ابنه الملك الصالح ابتاع ألف مملوك، وأنه توثب على الملك، فنقم عليه وأخرجه
من الديار المصرية.
فلما أفضت السلطنة إليه، استكثر منهم، وأمرهم وقدمهم على العساكر. فكانوا في
خدمته، إلى أن مات. وملك بعده ابنه الملك المعظم تورانشاه، فعاملهم بما يكرهونه. وبذل
لسانه فيهم، وتواعدهم، فحملهم ذلك على قتله، وطلب الملك لأنفسهم. وكان ما ذكرناه من
إقامة شجر الدر، وخلعها.
فنذكر ملوك دولة الترك:
أول من ملك من ملوك هذه الدولة:
الملك المعز عز الدين أيبك
التركماني الصالحي
وليس بتركماني، وإنما هي نسبة إلى أولاد التركماني، لأنه كان عند أحدهم، ثم ملكه
الملك الصالح نجم الدين أيوب. وهو تركي الجنس.
ملك الديار المصرية، في يوم السبت التاسع والعشرين من شهر ربيع الآخر، سنة ثمان
وأربعين وستمائة. وأقام معه في السلطنة الملك الأشرف مظفر الدين موسى، بن الملك ناصر
صلاح الدين يوسف، بن الملك المسعود صلاح الدين يوسف، بن الملك الكامل، وأجلسه
على كرسي السلطنة في يوم الأربعاء - ثالث جمادي الأولى، سنة ثمان وأربعين. وركب
وشق المدينة في يوم الخميس - وكان عمره نحو ست سنين.
وكانت المناشير والتواقيع والمراسيم تخرج عن الملكين، وليس للأشرف معه إلا مجرد
التسمية، والأمر للملك المعز. ولم يزل كذلك، إلى أن قتل الأمير فارس الدين أقطاي في سنة
اثنتين وخمسين - على ما نذكره. فاستقل حينئذ بالملك. وكان الملك الأشرف في هذه

المدة قد حجب عن الناس، واسمه قائم دون شخصه.
ذكر الحرب الكائنة بين الملك المعز والملك الناصر صاحب الشام، وانتصار المعز
وفي سنة ثمان وأربعين وستمائة، كانت الحرب بين السلطان الملك المعز وبين الملك الناصر - صاحب الشام.
وسبب ذلك أن الملك الناصر، لما استولى على دمشق في هذه السنة - كما قدمنا في أخباره - أشار عليه أتابكه - شمس الدين لؤلؤ - والأمراء القيمرية، بقصد الديار المصرية. فسار من دمشق. واتصل خبره بالملك المعز، فخرج إليه بعساكر الديار المصرية.
والتقيا على منزلة الكراع، بالقرب من الخشبي.
واقتتل العسكران، في يوم الخميس، العاشر من ذي القعدة من السنة.
فكانت الهزيمة على العسكر المصري. ووصلت طائفة من العسكر المصري إلى القاهرة.
ومنهم من فر إلى جهة الصعيد. وثبت الملك المعز، واختار من عسكره ثلاثمائة فارس، وحمل بهم على صناجق الملك الناصر، طمعاً أن يكون بجهتها فيظفر به. وكان الملك الناصر تحيز إلى فئة، واعتزل المعركة خوفاً على نفسه، واحتياطاً لها. فلما عاين الحملة الملك المعز، وشاهد إقدامه، انهزم، ورجع إلى الشام - كما تقدم.
وساقت الأمراء العزيزية - مماليك والده - بأطلابهم إلى خدمة الملك المعز، ودخلوا في طاعته، وهم: الأمير جمال الدين أيدغدي العزيزي، والأمير شمس الدين أقش البرلي، والأمير شمس الدين أقش الحسامي، وأمثالهم. وكان سبب انصرافهم عن سلطانهم الملك الناصر أنه أضافهم، يوم الحرب، إلى طلب الأمير شمس الدين لؤلؤ - أتابكه - فعز ذلك عليهم، وفارقوا خدمة الملك الناصر.
قال: واجتمع الأمراء القيمرية، وغيرهم، إلى شمس الدين لؤلؤ، وهنوه بالنصر على زعمهم - وتفرقت جماعتهم في طلب المكاسب. فلم يبق معهم من مماليكهم إلا نفر قليل.
فصادفهم الملك المعز بمن معه من عسكره، فقاتلهم. فقتل شمس الدين لؤلؤ، وجماعة من الأمراء القيمرية، وهم: حسام الدين، وصارم الدين، القيمريان، وسعد الدين الحميدي، ونور

الدين الزرزاري، وجماعة من أعيان مماليك الملك الناصر. وقتل أيضاً تاج الملوك، بن الملك
المعظم تورانشاه.
وأسر جماعة، وهم: الملك الصالح بن العادل سيف الدين أبي بكر ابن أيوب. ثم قتله
الملك المعز في سنة تسع وأربعين، ودفنه بالقرافة. وأسر أيضاً الملك المعظم تورانشاه، بن
الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، وأخوه نصرة الدين، والملك الأشرف صاحب
حمص، وشهاب الدين بن حسام الدين القيمري، وغيرهم.
وأما بقية الأمراء الناصرية، فإنهم ما علموا بشيء من ذلك. بل ساقوا خلف من انهزم من
العسكر، إلى أن وصلوا إلى العباسة وخيموا بها. ثم بلغهم الخبر فرحلوا بمكاسبهم
وأثقالهم. قال: ولما انتصر الملك المعز، وقتل من قتل، وأسر من أسر، ساق إلى العباسة
ليلتحق بعساكره. فرأى دهليز الملك الناصر وعساكره قد خيم على العباسة، فعرج عن
طريقها. وسار على طريق العلاقمة إلى بلبيس فلم يجد بها من العسكر أحداً. وبلغه أن
منهم من دخل إلى القاهرة، ومنهم من انهزم إلى الصعيد. فنزل على بلبيس بمن كان معه،
إلى أن تحقق عود من سلم من العسكر الشامي. وعاد الملك المعز إلى قلعة الجبل، مؤيداً
منصوراً.
قال: ولما طلع إلى القلعة، وجد جماعة من الأمراء المعتقلين بها، لما بلغهم وصول المنهزمين
من العسكر المصري، ظنوا أن الهزيمة تستمر، فخطبوا للملك الناصر على منبر الجامع
بالقلعة، في يوم الجمعة حادي عشر ذي القعدة من السنة. فعظم ذلك على الملك المعز،
وشنق الأمير ناصر الدين إسماعيل بن يغمور الصالحي، وأمين الدولة وزير الملك الصالح،
على شراريف قلعة الجبل - وكانا من جملة المعتقلين بها - ومن أشار بالخطبة للملك
الناصر. ثم أخرج جميع من دخل إلى القاهرة من العسكر الناصرية، وأعادهم إلى دمشق
على دواب - وكانوا ثلاثة آلاف نفس - ولم يركب أحداً منهم فرساً، إلا نور الدين بن
الشجاع الأكتع، وأربعة من مماليك الملك الناصر.
واستهلت سنة تسع وأربعين وستمائة:

في هذه السنة، خرج الملك المعز بعساكر الديار المصرية، لقصد الملك الناصر، فنزل على أم
البارد عند العباسة. واتصل ذلك بالملك الناصر، فجهز العسكر الشامي إلى غزة، ليكون
قبالة العسكر المصري. وأقام العسكران في منازلهما ستين يوماً. ونزل الملك الناصر على
غمتا من الغور، وخيم عليها. وأقام بعسكره ستة أشهر.
وفيها في شعبان، عزل قاضي القضاة: عماد الدين أبو القاسم إبراهيم ابن هبة الله بن
إسماعيل بن نبهان بن محمد، الحموي، المعروف بابن المقنشع - عن القضاء بمصر والوجه
القبلى. وأضيف ذلك إلى قاضي القضاة: بدر الدين السنجاري. فاجتمع له الآن قضاء
القضاة بالمدينتين، والوجهين القبلي والبحري، ولم يجتمعا له قبل ذلك.
وفيها، قصد الأمير جماز بن شيحة المدينة النبوية - على ساكنها أفضل الصلاة والسلام -
وقبض على أخيه عيسى، وأقام بالمدينة.
وفيها، كانت وفاة الشيخ الإمام العالم بهاء الدين علي بن سلامة بن المسلم بن أحمد، بن
علي اللخمي المصري، المعروف بابن الجميزي.
وكان إماماً فاضلاً، عالماً بمذهب الإمام الشافعي. وأخذ العلم عن الشيخ شهاب الدين
محمد الطوسي، وعن محمد بن يحيى، وشرف الدين بن أبي عصرون. وتفقه بالشام، وقرأ
القرآن على جماعة منهم الشاطبي والبطايحي. وسمع الحديث الكثير، ورواه سمع شهدة
ببغداد، والحافظ السلفي بمصر. وأجيز بالفتيا في سنة خمس وسبعين وخمسمائة وهو
سبط الفقيه أبي الفوارس الجميزي.
وكان دمث الأخلاق، كريم النفس، قل أن يدخل إليه أحد إلا وأطعمه وكان يخالط الملوك،
ويعظمونه. ولم يزل كذلك إلى أن حج في سنة خمس وأربعين وستمائة. فأهدى له صاحب
اليمن هدية بمكة، فقبلها. فأعرض عنه الملك الصالح نجم الدين أيوب.
وكانت وفاته بمصر في ليلة الخميس، رابع عشر ذي الحجة. ودفن يوم الخميس بالقرافة،
قريباً من روزبهان. ومولده يوم النحر سنة تسع وخمسين وخمسمائة - رحمه الله تعالى.
وفيها توفي الفقيه الشيخ، الرياضي، علم الدين قيصر: بن أبي القاسم بن عبد الغني بن

مسافر، الحنفي المصري، المعروف بتعاسيف. كان إماماً في علوم الرياضة، وفي فنون
كثيرة.
وكانت وفاته بدمشق، في يوم الأحد ثالث عشر شهر رجب، ودفن خارج باب شرقى، ثم
نقل إلى الباب الصغير. ومولده سنة أربع وسبعين وخمسمائة، بأصفون من أعمال مدينة
قوص، من الصعيد الأعلى بالديار المصرية. وأصفون بلدة مشهورة هناك.
وفيها، توفي الصاحب الوزير: جمال الدين أبو الحسين يحيى، بن عيسى بن إبراهيم بن
الحسين بن علي بن حمزة بن إبراهيم، بن الحسين - بن مطروح.
من أهل صعيد مصر، ونشأ هناك وأقام بمدينة قوص مدة وتنقلت به الأحوال في الخدم
والولايات. ثم اتصل بخدمة السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب، في نيابته عن أبيه
السلطان الملك الكامل بالديار المصرية. وانتقل في خدمته عند توجهه إلى بلاد الشرق، في
سنة تسع وعشرين وستمائة. ولم يزل هناك إلى أن ملك الملك الصالح الديار المصرية، فوصل
إلى خدمته، في أوائل سنة تسع وثلاثين وستمائة. فرتبه ناظر الخزانة.
ثم نقله إلى دمشق، لما ملكها ثانياً، من عمه الملك الصالح إسماعيل، وجعله وزيراً وأميراً.
واستمر إلى أن وصل السلطان الملك الصالح إلى دمشق في شعبان سنة ست وأربعين
وستمائة، فعزله عن الوزارة وسيره مع العسكر لحصار حمص. ثم عاد في خدمة السلطان
إلى الديار المصرية، وأقام معه بالمنصورة - وقد تغير عليه لأسباب اتصلت به عنه - ومع
ذلك فلم يزل يلازم الخدمة، إلى أن مات السلطان الملك الصالح بالمنصورة. فجاء إلى مصر،
وأقام بداره إلى أن مات.
وكان حسن الأخلاق. وله ديوان شعر. وكانت وفاته بمصر في ليلة الأربعاء، مستهل
شعبان، سنة تسع وأربعين وستمائة. ودفن بسفح المقطم. ومولده بمدينة سيوط من
صعيد مصر، في يوم الإثنين ثامن شهر رجب، سنة اثنتين وتسعون وخمسمائة - رحمه الله
تعالى.
واستهلت سنة خمسين وستمائة:

والاختلاف بين الملكين: الناصر - صاحب دمشق والشام - والمعز صاحب الديار
المصرية - على حاله، والعساكر من الطائفتين مجردة، كل طائفة معتدة للأخرى. ولم يكن
فيها من الأخبار ما نذكره.
واستهلت سنة إحدى وخمسين وستمائة:
ذكر الصلح بين الملكين: المعز والناصر
قال: ولم تزل الفتنة بين الملكين: المعز والناصر قائمة، إلى أن وصل الشيخ نجم الدين
البادرائي رسول الخليفة، فسعى في الصلح بينهما.
فوقع الاتفاق: على أن يأخذ الملك المعز من الملك الناصر القدس وغزة، وجميع البلاد
الساحلية - إلى حدود نابلس. واستحلف الشيخ نجم الدين الملكين على ذلك. فتم
الصلح بينهما وانتظم.
وأفرج الملك المعز عن الملك المعظم صلاح الدين يوسف بن أيوب، والملك الأشرف
صاحب حمص، وأولاد الملك الصالح عماد الدين إسماعيل، وغيرهم. من الأمراء الذين
كانوا قد أسروا في المصاف، الكائن في سنة ثمان وأربعين وستمائة، وذلك في المحرم من هذه
السنة.
وفي هذه السنة، لثلاث خلون من شعبان، قتل أبو سعد: الحسن بن علي بن قتادة -
صاحب مكة - شرفها الله تعالى.
واستهلت سنة اثنتين وخمسين وستمائة:
ذكر خبر عريان الصعيد، وتوجه الأمير فارس الدين أقطاي إليهم وإبادتهم
كان من خبر العربان بالصعيد، أنه لما اشتغل الملك الصالح نجم الدين أيوب وعساكره بقتال
الفرنج بالمنصورة، وحصل ما قدمنا ذكره: من وفاته، ومقتل ولده الملك المعظم، واشتغال
الملك المعز بحرب الملك الناصر، وتجريد الجيوش إلى جهتة، وعدم الالتفات إلى غير ذلك -
تمكن العربان بهذه الأسباب من البلاد، وكثر شرهم، وزاد طغيانهم وبغيهم. وحصل لأهل
البلاد منهم، من أنواع الأذى ونهب الأموال والتعرض إلى الحريم، وأمثال ذلك، ما لا حصل
من الفرنج أكثر منه.
واجتمعوا على الشريف حصن الدين بن ثعلب الجعفري وأطاعوه ظاهرا، وانقادوا له. إلا

أنه لا يستطيع دفعهم عن كل ما يقصدونه من أذى. وأخذ أموالهم، وكثرت جموعهم معه،
حتى زادوا على اثني عشر ألف فارس، وستين ألف راجل، بالسلاح والعدد.
فلما تم الصلح بين الملكين، وتفرغ وجه السلطان الملك المعز من جهة الشام، صرف فكرته
إلى جهتهم، وانتدب لحربهم الأمير فارس الدين أقطاي. واستشار الأمير عز الدين أيبك
الأفرم الصالحي في عدة العسكر الذي يقوم بحربهم، فأشار بانتخاب ألفي فارس من العسكر،
والتزم أنه يفرق بهذه العدة جموعهم، ويبيدهم بها.
فانتخب الأمير فارس الدين هذه العدة من العسكر، وتوجه بهم - وصحبته الأمير عز
الدين المذكور - وتوجه إلى جهة الصعيد، وقصد العربان. وكانوا قد اجتمعوا بمكان
يسمى الصلعا بمنشاة إخميم، في البر الغربي - وهي أرض وسيعة، تسع عدتهم. فساق
الأمير فارس الدين ومن معه من العسكر، من جهة الحاجز بالبر الغربي، سوقاً عظيماً، ما
سمع الناس بمثله، وانتهى إليهم في ثلاث علايق - وهذه المسافة لا يستطيع البريد أن يصل
إليها في مثال هذه المدة، إلا إن أجهد نفسه.
وطلع عليهم في صبح اليوم الرابع، ودهمهم بعتة بهذا المكان. فلما شاهد كثرتهم، كاد
يقف عن ملاقاتهم، وأنكر على الأمير عز الدين، وقال: لقد غششتنا، فإن هذه العدة التي
معنا لا تقوم بهذه الجموع الكثيرة. فقوى نفسه، وقال: أنا أعرف هؤلاء، وهذه بلاد ولايتي.
وحمل عليهم، ورمتهم العسكر بالنشاب، فما كان السهم يقع إلا في أحدهم. فما كان
بأسرع من أن انهزموا أقبح هزيمة، وأخذهم السيف. وتفرقت تلك الجموع، واختفوا،
وغيروا لباسهم. وقتل منهم في المعركة والطلب خلق كثير.
ولما عاين الشريف حصن الدين انهزام أصحابه، بادر بالهزيمة. وحمل معه ألف دينار،
واستصحب حظية له، وتوجه إلى الوجه القبلى. ثم قبض عليه بعد ذلك - على ما
نذكره، إن شاء الله تعالى. وعاد الأمير فارس الدين إلى القاهرة بعسكره، ومعه جماعة من
العربان، من جملتهم: ابن عم الشريف حصن الدين بن ثعلب، فشنق تحت قلعة الجبل. ثم
قتل الأمير فارس الدين أقطاي، في هذه السنة.

فارس الدين أقطاي
وما كان من أمره إلى أن قتل
كان الأمير فارس الدين أقطاي، الجمدار الصالحي، قد استفحل أمره في الدولة المعزية
بالديار المصرية، وقويت شوكته في سنة إحدى وخمسين وستمائة.
وانضم إليه الأمراء البحرية واعتضد بهم. وتطاول، إلى أن خطب ابنه الملك المظفر
صاحب حماه. وكان الرسول في ذلك الصاحب فخر الدين محمد، بن الصاحب بهاء الدين
على - قبل وزارة والده - فأجيب إلى ذلك. وعقد النكاح، وحملت إليه، فوصلت إلى
دمشق. وقتل، قبل وصولها إليه. ولما تزوج بها زادت نفسه قوة، وعظمه الأمراء، وخفضوا
من جانب الملك المعز، وألان الملك المعز جانبه له، ولهم.
واستمر الأمر على ذلك إلى سنة اثنتين وخمسين وستمائة.
فامتدت أطماعه إلى صلب
ثغر الإسكندرية، إقطاعاً، فلم يمكن الملك المعز مخالفته، لقوة شوكته. وتطاول البحرية،
واشتطوا في طلب الإقطاعات والزيادات. واتصل بالملك المعز أنهم يدبرون عليه، وأنهم
عزموا على الوثوب، فبادر عند ذلك بالتدبير والاحتياط.
ولما كان في يوم الاثنين - حادي عشر شعبان، من هذه السنة، استدعاه السلطان على
العادة، وكمن له عدة من مماليكه، بقاعة الأعمدة. وقرر معهم أنه إذا عبر إليه يغتالوه.
فحضر في نفر يسير، ثقة منه واسترسالا، واطراحاً لجانب السلطان، وأنه لا يجسر أن يقدم
عليه، ولم يشعر به خوشد اشيته. فلما قرب، منع مماليكه من الدخول معه، ووثب عليه
المماليك المعزية فقتلوه
وحكي عن عز الدين أيبك الفارسي - أحد مماليكه - في خبر مقتله، قال: كان قد ركب
إلى قلعة الجبل في يوم مقتله، واجتمع بالسلطان، وطلب منه أن ينعم على بعض البحرية
بمال. فاعتذر الملك المعز أن الخزائن قد خلت من الأموال، وقال له: توجه بنا إلى الخزانة
لنشاهدها، ونتحقق حالتها. فتوجها جميعاً إلى الخزانة من جهة الدور. وإنما فعل المعز
ذلك، لأن الوصول إلى الخزانة من جهة الدورحرج المسلك، ويمر المار على بعض قاعات

الحريم، فلا يمكن استصحاب الكثير من المماليك. وكان الملك المعز قد كمن في عطفة من
عطفات الدهاليز مملوكه الأمير سيف الدين قطز - ومعه عشرة من المماليك المعزية، من
ذوي القوة والإقدام. فلما وصلوا إلى ذلك المكان، تأخر السلطان: واسترسل الأمير فارس
الدين على ما هو عليه، وتقدم إلى المكان. فوثبوا عليه، وقتلوه. قال: وأمر الملك المعز
بغلق قلعة الجبل، فغلقت.
وركب مماليكه وحاشيته - وكانوا نحو سبعمائة فارس - وجماعة من البحرية، وقصدوا
قلعة الجبل، وظنوا أنه قد قبض عليه، ليطلقوه. فلما صاروا تحت القلعة، أمر السلطان
بإلقاء رأسه إليهم، من أعلى السور فعلموا فوات الأمر فيه، فتفرقوا. وكانت هذه الواقعة
شبيهة بواقعة عمرو بن سعيد الأشدق مع عبد الملك بن مروان. وتفرق شمل البحرية
لمقتله، وانتشر نظامهم. وكان من خبره ما نذكره.
ولما قتل الأمير فارس الدين أقطاي، وهرب البحرية ومماليكه، ركب السلطان الملك المعز
بشعار السلطنة بالقاهرة. وذلك في يوم الأحد، سابع عشرين شعبان المذكور. وجهز الملك
الأشرف، الذي كان قد شركه معه في الملك إلى دمشق - في هذا الشهر. واستقل
بالسلطنة. وانفرد بالأمر، بعد مقتل الأمير فارس الدين أقطاي.
ومن المؤرخين من جعل هذا التاريخ ابتداء سلطنة الملك المعز، وجعله فيما مضى أتابكاً
للملك الأشرف مظفر الدين موسى. إلا أن الأمر منذ خلعت شجر الدر نفسها، كان للملك
المعز، مع تمكن الأمير فارس الدين أقطاي من الدولة وتحكمه.
وفي هذه السنة، أقطع الأمير جمال الدين أيد غدى العزيزي دمياط - زيادة على إقطاعه -
وكان متحصلها يومئذ ثلاثين ألف دينار.
وفيها، عزل قاضي القضاة: بدر الدين السنجاري، عن تدريس المدرسة الصالحية، بالقاهرة
المعزية. وفوض ذلك لشيخ الاسلام عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام. وتوجه قاضي
القضاة بدر الدين السنجاري إلى الحجاز الشريف، من جهة البحر، وعاد في البر.
وفي هذه السنة، وصلت الأخبار من مكة - شرفها الله تعالى - أن النار ظهرت من بعض

جبال عدن، وأن شررها يطير في الليل ويقع في البحر، ويصعد منها دخان عظيم في النهار.
فظن الناس أنها النار التي أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنها تظهر في آخر الزمان،
وهي من أشراط الساعة. فتاب الناس، وأقلعوا عما كانوا عليه من الظلم والفساد،
وشرعوا في أفعال الخير والصدقات.
الأمراء البحرية
وما اتفق لهم بعد مقتل الأمير فارس الدين أقطاي
قد رأينا أن نذكر أخبار الأمراء البحرية في هذا الموضع - متتابعة - من حين هربهم، ولا
نقطعها بالسنين، لتكون أخبارهم سياقة يتلو بعضها بعضاً.
كان من خبرهم، أنه لما شاع الخبر بمقتل الأمير فارس الدين أقطاي، واتصل ذلك بالأمراء
خوشداشيته - وفيهم الأمير ركن الدين البندقداري، والأمير سيف الدين قلاوون الألفي،
والأمير شمس الدين سنقر الأشقر، والأمير سيف الدين بلبان الرشيدي، والأمير بدر الدين
بيسري الشمسي، والأمير سيف الدين سكز، والأمير عز الدين أزدمر السيفي، والأمير
سيف الدين سنقر الرومي، والأمير سيف الدين بلبان المستعربي، والأمير سيف الدين
برامق، وغيرهم من الأمراء، ومن انضم إليهم من خوشداشيهم - خرجوا من القاهرة ليلا،
وأحرقوا باب القراطين، وتوجهوا إلى الشام. واعتقل السلطان - الملك المعز - من بقي
منهم بالقاهرة.
وتوجه الذين خرجوا من القاهرة حتى نزلوا غزة، وكاتبوا السلطان الملك الناصر صاحب
الشام، وسألوه أن يأذن لهم في الوصول إليه، فأجابهم إلى ذلك. ووصلوا إليه، فأنعم عليهم
بالأموال والخلع، وأقطعهم الإقطاعات. وأقاموا عنده يحرضونه على قصد الديار المصرية،
فما وثق بهم. وكان الملك المعز قد كتب إليه وخيله منهم، وأوهمه. فطلب الملك الناصر
من الملك المعز القدس وجميع البلاد الساحلية - التي كان قد أخذها منه عند وقوع الصلح
- بحكم أنها كانت جارية في إقطاع البحرية، وأنهم انتقلوا إلى مملكته، واستقروا في خدمته،
فأعادها الملك المعز إليه. فأمر الملك الناصر كل من له إقطاع في هذه البلاد على إقطاعه،

وكتب مناشير بذلك. وأقاموا في خدمته إلى سنة خمس وخمسين وستمائة.
ثم فارقوه، لما رأوه من ضعف رأيه، وتوجهوا إلى نابلس. وقصدوا الملك المغيث صاحب
الكرك، فوصلوا إلى خدمته - في عاشر شوال - فقبلهم وأكرمهم فالتمسوا منه المساعدة
على قصد الديار المصرية، وأوهموه أن الأمراء بالديار المصرية كاتبوهم، وراسلوهم في
ذلك. فجمع الملك المغيث من قدر عليه، وسار بهم وبسائر البحرية - وذلك في سلطنة
الملك المنصور نور الدين، بن الملك المعز. فخرج إليهم الأمير سيف الدين قطز المعزى
بالعساكر المصرية، والتقوا واقتتلوا - في يوم السبت الخامس والعشرين، من ذي القعدة، سنة
خمس وخمسين وستمائة. فانكسر الملك المغيث، ومن معه من البحرية. واستولى العسكر
المصري على أثقالهم، وقتل: الأمير عز الدين الرومي الصالحي، وسيف الدين الكافوري،
وبدر الدين إيغان الأشرفي. وأسر الأمير سيف الدين قلاوون الألفي، والأمير سيف الدين
بلبان الرشيدي.
ولما أسر الأمير سيف الدين قلاوون، ضمنه الأمير سيف الدين قيزان المعزى أستاذ الدار
السلطانية، فما تعرض إليه أحد. وأقام بالقاهرة برهة يسيرة. ثم تسحب واختفى
بالحسينية، عند الأمير سيف الدين قطليجا الرومي. وقصد اللحاق بخوشداشيته، فزوده
وجهزه، فتوجه إلى الكرك.
ثم فارق البحرية الملك المغيث، وتوجهوا نحو الغور. فصادفهم الأمراء الشهرزورية، عندما
جفلوا من بلاد الشرق. فاجتمع البحرية بهم، وتزوج الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري -
وهو الملك الظاهر - منهم. فبلغ الملك الناصر ذلك، فجهز جيشاً لقتالهم، فالتقوا بالغور،
واقتتلوا. فانهزم العسكر الناصري. فغضب الملك الناصر لذلك، وخرج بنفسه إليهم.
فعلموا عجزهم عن مقابلته، فتوجهوا إلى الملك المغيث بالكرك، وتوجه الشهرزورية إلى
الديار المصرية.
واتفق للأمير ركن الدين البندقداري مع الملك المغيث حكاية عجيبة. وهو أنه كان في يده

نتوء في اللحم شبه خرزة، فجلس في بعض الأيام بين يدي الملك المغيث - وقد أتى بلوز
أخضر وعسل، فجعل يفرك اللوز على العسل - فنظر الملك المغيث إلى النتوء الذي في يده،
فقال: ما هذا يا ركن ؟ قال: هذه خرزة الملك فتغير وجه الملك المغيث وعلم جرأته
وقصد قتله ثم تركه. أخبرني بذلك المولى شرف الدين أبو الروح، عيسى بن الملك المغيث،
عمن حضر هذه الواقعة وسمع ذلك من لفظهما.
قال المؤرخ: ولما بلغ الملك الناصر عود البحرية إلى خدمة الملك المغيث، كتب إليه يطب
منه تسليمهم، ويهدده إن لم يفعل. فدافع عنهم. فسار الملك الناصر بنفسه، ونزل ببركة
زيزا، وعزم منازلة الكرك - إن أصر الملك المغيث على الامتناع من تسليمهم إليه.
وكان الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري قد تخيل من الملك المغيث، للحكاية التي
قدمناها. فأرسل إلى السلطان الملك الناصر الأمير بهاء الدين أمير أخور ليلا، يطلب منه
الإذن في حضوره إلى خدمته، ومفارقة الملك المغيث، وأن يستحلفه له ولجماعة معه أن لا
يغدر بهم، وأن يكون السفير في ذلك الأمير عماد الدين بن المجير. فأجاب الملك الناصر إلى
ذلك. فبعث إليه الأمير ركن الدين الشيخ يحيى، برسالة، مضمونها: أن يحلف له ولعشرين
من أصحابه، وأن يقطعه خبز مائة فارس، وشرط أن تكون قصبة نابلس وجينين وزرعين
مما يقطعه له. فأجاب إلى نابلس لا غير، وحلف له.
فقدم الأمير ركن الدين إلى الملك الناصر، في العشر الأول من شهر رجب - وصحبته
الجماعة الذين حلف لهم، وهم: الأمير بدر الدين بيسري الشمسي، والأمير سيف الدين
أتامش المسعودي، والأمير علاء الدين طيبرس الوزيري، وجمال الدين أقش الرومي، وسيف
الدين بلبان الداودار، وعلاء الدين كشتغدى الشمسي، وحسام الدين لاجين الدوادار،
المعروف بالدرفيل، وعلاء الدين أيدغمش الحكيمي، وعلاء الدين كستغدي المشرفي، وعن
الدين أيبك الشيخوركن الدين بيبرس خاص ترك الصغير وعز وشيف الدين بلبان المهراني،
وعلم الدين سنجر الأسعدي، وعلم الدين سنجر الهمامي، وشمس الدين أباز الناصري،

وشمس الدين طمان، وعز الدين أيبك العلائي، وحسام الدين لاجين الشقيري، وسيف الدين
بلبان الأقسيسي، وعلم الدين سلطان الألدكزي - فأكرمهم الملك الناصر، ووفى لهم، وخلع
عليهم وأحسن إليهم، وأقطعهم.
ثم أمسك الملك المغيث من بقي عنده من البحرية، وسيرهم إلى الملك الناصر، وهم:
الأمير سيف الدين سنقر الأشقر، والأمير سيف الدين سكز، والأمير سيف الدين برامق -
فأرسلهم الملك الناصر إلى قلعة حلب، واعتقلهم بها. حتى استولى هولاكو على حلب،
فأفرح عنهم وأضافهم إلى عسكره.
وبقي الأمير ركن الدين البندقداري، والأمير سيف الدين قلاوون، وغيرهما، ممن لم يمسك
من خوشداشيتهما، في خدمة الملك الناصر، إلى أثناء سنة ثمان وخمسين وستمائة.
ففارقوه، لما ملك التتار حلب، وعلموا عجزه عن ملاقاتهم، ففارقوه وتوجهوا إلى غزة.
وكان للبحرية في بعض هذه المدة أحوال يطول شرحها، حتى أعوزهم القوت في بعض
الأوقات. ثم اجتمعوا بعد مفارقة الملك الناصر، وتوجهوا إلى خدمة الملك المظفر سيف
الدين قطز، وشهدوا معه حرب التتار - على ما نذكره، إن شاء الله تعالى، في موضعه.
فلنرجع إلى سياقة أخبار الملك المعز.
واستهلت سنة ثلاث وخمسين وستمائة:
ذكر مخالفة الأمير عز الدين أيبك الأفرم وخروجه عن الطاعة، وتجريد العسكر إليه
وإلى من وافقه، وانتقاض أمره
كان الأمير عز الدين أيبك الأفرم الصالحي أقام في البلاد، بعد أن هزم الأمير فارس الدين
أقطاي الصالحي العرب - كما تقدم - وتأخر هو لتمهيد البلاد.
فلما قتل الأمير فارس الدين أقطاي، تظاهر بالعصيان، واستولى على الأعمال القوصية -
بموافقة متوليها الأمير ركن الدين الصيرمي. واستولى أيضاً على الأعمال الإخميمية
والأسيوطية، وقطع الحمول عن بيت المال بقلعة الجبل من هذه الأعمال، واقتطع الأموال
لنفسه. ووافقه الشريف حصن الدين بن ثعلب.
فندب السلطان العساكر لذلك، وقدم عليها الصاحب شرف الدين هبة الله بن صاعد

الفائزي. فتوجه إلى جهة الصعيد، وظفر بالشريف حصن الدين بن ثعلب. فأحضره إلى
السلطان، فاعتقله بقلعة الجبل، ثم نقله إلى ثغر الإسكندرية، واعتقله هناك. فلم يزل في
الاعتقال، إلى أن شنقه السلطان الملك الظاهر ركن الدين - على ما نذكره.
وأما الأمير عز الدين الأفرم، فإنه
وأما الأمير ركن الدين الصيرمي - متولي الأعمال القوصية - فإنه كان قد ظن أنه يستبد
بالأمر، ويستولي على البلاد ويستمر له ذلك، وتخيل ذلك بذهنه. فلما انتقض عيه هذا
الأمر، تحيل في الهرب، وتوجه إلى دمشق. والتحق بخدمة السلطان الملك الناصر.
وكان وصوله إلى دمشق في جمادي الآخرة، سنة أربع وخمسين وستمائة - بعد أن نهبت
أمواله، وقتلت رجاله. ولما وصل، أنزل بالمدرسة العزيزية على الشرف الأعلى، فقال
للفقهاء: اعذروني، فأنتم اخلوا لي الجوسق الذي على الميدان، وما انتقل إليه إلا بطالع.
وأحضر المنجم، وأخذ له الطالع، وانتقل إلى الجوسق. فاستقل الناس عقله. ! فإنه وصل
من النهب والهرب، والشتات وقتل الرجال، وهو يتمسك بالطوالع وأقوال المنجمين.
واستهلت سنة أربع وخمسين وستمائة:
ذكر تفويض قضاء القضاة بالديار المصرية للقاضي: تاج الدين عبد الوهاب بن القاضي
الأعز خلف
في هذه السنة، فوض السلطان - الملك المعز - قضاء القضاة بمصر والوجه القبلي،
لقاضي القضاة: تاج الدين عبد الوهاب، بن القاضي الأعز خلف، بن محمود بن بدر
العلامي - وهو المعروف بابن بنت الأعز. وكتب له تقليد شريف معزى، تاريخه تاسع
شهر رمضان. وكان ذلك جارياً في ولاية قاضي القضاة: بدر الدين يوسف السنجاري.
فاستقر القاضي بدر الدين - قاضي القضاة - بالقاهرة والوجه البحري. ثم فوض ذلك،
في بقية هذا الشهر، لقاضي القضاة تاج الدين، المشار إليه - بتقليد تاريخه لثمان بقين من
شهر رمضان من السنة. فكمل له بهذه الولاية قضاء القضاة بالمدينتين، والعملين القبلي

والبحري، وسائر أعمال الديار المصرية. وعزل قاضي القضاة: بدر الدين السنجاري عن
القضاء.
وقد شاهدت تقليدي قاضي القضاة تاج الدين. ونسخة التقليد الأول - بعد البسملة،
ومثال العلامة المعزية: -
حسبني الله. الحمد لله مقيم منار الشريعة الهادية، وناشر أعلامها. ورافع محلها على
الشرائع ومعلى مقامها. وهادي الخليقة إلى اتباع أقضيتها وأحكامها. وناصر دينه باتساقها
وانتظامها. ومشيد أركانها بصالحي أئمتها وحكامها، وجاعلهم أئمة يهدون بأمره في نقض
الأمور وإبرامها. وصلى الله على سيدنا محمد، خاتم الرسل وإمامها. ومنير الملة بعد
إظلامها. وعلى آله وأصحابه، نجوم سماء المعارف وبدور تمامها - صلاة لا تنقطع مادة
دوامها، ولا يأتي النفاد على لياليها وأيامها.
أما بعد. فإنا لما فوض الله إلينا من أمور بريته، واستحفظنا إياه من تدبير خليقته، وآتانا
بقدرته من اليد الباسطة، وجعلنا بينه وبين عقد خلقه الواسطة، ومنحناه من السلطان
والتمكين، وخصنا به من الفضل المبين - لا نزال من حسن التدبير في تصعيد وتصويب،
ومن مصالح الإسلام في تمهيد وترتيب، ومن الرأي الأصيل في خبب وتقريب، عالمين بأن الله
تعالى يسأل كل راع عما استرعاه، وكل ساع عما سعاه، ويحاسبه عليه يوم رجعاه، ويجد
عمله مكتوباً مسطراً، وتجد كل نفس ما عملت من خير محضرا - وكان أولى الأمور
بالنظر، وأحقها أن يصان صفوها عن الكدر، منصب الشريعة، الذي هو ملاك الدين
وقوامه، وانتظام الإسلام والتئامه، والطريق التي فرض الله اتباعها على خلقه، والسبيل التي
من فارقها فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه -.
ارتدنا لهذا المنصب الشريف من يرعاه ويصونه، وتجري على يده حياطته وتحصينه.
ونظرنا فيمن يقع عليه سهم الاختيار، ويظهر جوهره الابتلاء والاختبار. فكان المجلس
السامي القاضي الأجل، الإمام الصدر، الفقيه الكبير العالم العامل الفاضل، الأعز المرتضى،
الورع الكامل المجتبي، الأشرف السعيد، تاج الدين جلال الإسلام، مفتي الأنام، شمس

الشريعة، صدر العلماء، قاضي القضاة، سيد الحكام، خالصة أمير المؤمنين: عبد الوهاب
بن القاضي الأجل، الفقيه العالم الأعز، أبي القاسم خلف - أدام الله تأييده وتمكينه،
ورفعته وتمهيده، وقرن بالنجح قصوده - طلبتنا المنشودة، وإرادتنا المقصودة. لما جمع الله
فيه من الخلال الفاخرة، والديانة الجامعة لخير الدنيا والآخرة، والعلم الذي أمسى به للهداة
علما، وعلى أئمة وقته مقدما. وأصبح كل مانع إليه مسلماً. وراح بقداح الفضائل فائزاً،
ولكنوز العلوم الشريفة حائزا. فهو فقيه مصره، لا، بل فقيه عصره. وبكار زمانه علما
وورعا، وسوار وقته تقمصاً بالتقوى وتدرعا.
قدمنا خيرة الله تعالى، وولياه قضاء القضاة وحكم الحكام، بمصر المحروسة، وجميع
الوجه القبلي: من البرين الشرقي والغربي، إلى منتهى ثغر عيذاب، وما يجاوره - من حدود
مملكتنا، وبلاد دعوتنا، وجميع ما في هذه الولاية من المدارس وأوقافها، وكل ما كان في نظر
القاضي الفقيه شرف الدين بن عين الدولة - رحمه الله - من ذلك، وما استجد بعده،
واستقر في نظر الحكام. وفوضنا إليه ذلك التفويض التام. وبسطنا يده في الولاية والعزل.
وحكمناه في العقد والحل. فليستخر الله في تقلد ما قلدناه، وقبول ما فوضناه إليه ورددناه.
وليحكم بين الناس بما أراد الله. فإن قبول ذلك يجب عليه وجوبا، لما يتحقق أن الله يجريه
في أحكامه، ويقدره في أيامه، من حياطة الدين ومصالح المسلمين.
وإذا احتاج الحكام وولاة الأمور إلى وصايا يطال فيها ويطنب، ويبالغ في توكيدها ويسهب
- وجدناه غنياً عن ذلك، بما سناه الله له ويسره، وخلقه من كماله وقدره. ومثله لا
يوصى، ولا يستوعب له القول ولا يستقصى. والله تعالى يرقيه إلى درجات الكرامة، ويجعل
فيما فوض صلاح الخاصة والعامة
والاعتماد فيه على العلامة الشريفة، السلطانية الملكية المعزية - زاد الله علاها وشرفها،
إن شاء الله عز وجل. كتب في التاسع من شهر رمضان، سنة أربع وخمسين وستمائة.
الحمد لله رب العالمين. وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين، وسلم تسليماً

كثيراً. وحسبنا الله ونعم الوكيل.
ونسخة التقليد الثاني:
الحمد لله، كافل المزيد لمن شكره، ورافع الدرجات لمن أطاعه فيما نهاه وأمره، وهادى أمة
الحق إلى السبيل الذي يسره، وشرعه الذي ارتضاه لدينه وتخيره. وجاعل العلماء ورثة
أنبيائه، فيما أباحه من الأحكام وحظره.
أحمده حمداً لا يحصى عدده. وأشكره شكراً يتجدد كلما طال أمده. وأشهد أن لا إله
إلا الله وحده، لا شريك له، شهادة تستنفد الإمكان. ويشهد بالإخلاص فيها الملكان -.
وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، الذي اصطفاه وانتخبه. وفرض اتباعه على خلقه
وأوجبه. وبعثه رسولاً في الأميين. وأرسله رحمة للعالمين.
ونصب شريعته سبيلاً منجيا. وطريقاً إلى الرسل مؤديا. وشرف رتبتها وعظمها. وأعلى
قدر من رقي ذروتها وتسنمها - صلى الله عليه - ما تعاقب شمس وقمر. وذكر مبتدأ
وخبر وجرى بالكائنات مشيئة وقدر.
وعلى الأنبياء، الذي أخلصهم بخالصة ذكرى الدار، وجعلهم من المصطفين الأخيار.
وعلى آله أولى الأيدي والأبصار. وأصحابه المهاجرين والأنصار.
صلاة دائمة الاستمرار.
باقية على تعاقب الليل والنهار.
أما بعد، فإن الله. تعالى - جعل شريعة نبيه صراطاً متبعا وطريقاً مهيعا ومحلاً مرتفعاً.
وأنزل بتعظيمها قرآنا، وجعلها بين الحق والباطل فرقانا. فقال مخاطباً لنبيه - تنبيهاً
وتعليماً، وتبجيلاً لقدرته وتعظيماً: إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق، لتحكم بين الناس بما أراك
اله ولا تكن للخائنين خصيما. وعظم قدر العلماء في آياته المحكمات، وكلماته البينات،
فقال عز وجل: يرفع الله الذين آمنوا منكم، والذين أوتوا العلم درجات.
فتعين بذلك على ولاة الأمور، من الاجتهاد المأثور، أن يتخيروا لهذا المنصب الشريف، من
الولاة: من هو أجلهم علما. وأعدلهم حكما، وأنفذهم في الحق سهما. وأضواهم حسا،
وأشرفهم نفسا، وأصلحهم يوماً وأمسا. وأطهرهم وأورعهم. وأجداهم للإسلام وأنفعهم.
وكنا قد مثلنا كنانة العلماء بمصرنا، فعجمنا عيدانها. واختبرنا أعيانها. فوجدنا المجلس

العالي: القاضي الأجل، الصدر الكبير، الإمام العالم العامل
الزاهد العابد، الكامل الأوحد،
المجتبي المؤيد الأعز الأسعد، تاج الدين جلال الإسلام، ضياء
الأنام، بهاء الملة، شمس
الشريعة سيد الحكام، قدوة العلماء: يمين الملوك والسلاطين،
قاضي قضاة المسلمين، خالصة
أمير المؤمنين: عبد الوهاب، بن القاضي الفقيه، الأجل الأعز،
أبي القاسم خلف - أدام الله
تأييده وبسطته، وتمكينه ورفعته - قد زادت صفاته على هذه
الصفات، وأوفت عليها أتم
الموافاة. واختبرنا منه رجلاً، لو عرضت عليه الدنيا لم يردها. ولو
صور نفسه لم يزدها.
ووقع على سيادته إجماع الحاضرين والبادين، والمسودين
والسائدين. وشهدوا بها، ونحن
على ذلك من الشاهدين.
ففوضنا إليه ما فوضناه: من قضاء القضاة بمصر المحروسة،
والأقاليم القبلية، وما معها.
والأوقاف والمدارس وما جمعها - الجارية في نظر الحكم
العزيز. ثم تجدد لنا نظر يعم
المسلمين شانه، ومنظر يرمقهم بالمصالح إنسانه. وعلمنا أن
هذه الولاية بعض استحقاقه،
وأنها قليلة في جنب نصحه للمسلمين وإشفاقه. وأن صدره
الرحيب لا يضيق بأمثالها
ذرعا، ولا يعجز - بحمد الله - أن يرعيها بصراً من إيالته وسمعا.
إذ كان قد أحيي بها
السنة السلفية، وأظهر أسرار العدل الخفية. وزاد الحق بنظره
وضوحا، والمعروف دنوا
والمنكر نزوحا - رأينا أن نجمع إليه قضاء القضاة بالقاهرة
المعزية والوجه البحري، وما كان
يتولاه من قبله، من أوقاف البلاد ومدارسها، وربطها
ومحارسها، ومنابت العلوم ومغارسها.
وقد أكملنا له بذلك قضاء القضاة بجميع الديار المصرية: أرجاء
وأكنافا، ومداين وأريافا،
وأوساطاً وأطرافاً. وجعلناه الحاكم في أقضيتها، والمتصرف
في أعمالها ومدانيها. وأقاصي
بلادها وأدانيها. وأطلقنا يده في أحكامها، وما يراه من تولية
وعزل لحكامها. والنظر فيما
كان الحكام قبله يتولونه من الوقوف. وهو غنى أن يوصى بنهى
عن منكر أو أمر بمعروف.
لما فيه من صفات الكمال، وشريف الخلال. ولم نستوف وصية
في عهدنا إليه ولم نستقصها،

واستغنينا عن مبسوط الأقوال بملخصها - تحققاً أنه صاحب قياس الشريعة ونصها.
فليحكم بما فوضناه إليه، وبسطنا فيه يديه: من الجرح والتعديل، والإقرار والتبديل. والله
يوفقه فيما تولاه قائلا وفاعلا، ويرشده لمراضيه مسئولا وسائلا، ويجعل الصلاح للكافة به
شاملاً. ويقرن التقوى بلسانه وقلبه، ويلبسه من السعادة ملبساً لا تتخطى الخطوب إلى
سلبه. ويجعله داعياً إلى الله على بصيرة من ربه. إن شاء الله عز وجل.
كتب لثمان بقين من شهر رمضان المعظم، من سنة أربع وخمسين وستمائة. بالإشارة
العالية الصاحبية، الوزيرية المولوية الشرفية، ضاعف الله علاها.
الحمد لله رب العالمين.
وصلى الله علي سيدنا محمد نبيه وآله، وسلم. حسبنا الله ونعم الوكيل.
وكتب الوزير الصاحب شرف الدين الفائزي - على كل من هذين التقليدين، تحت خط
السلطان في بيت العلامة، ما مثاله: تمثيل الأمر العالي - أعلاه الله وشرفه.
وقد نقلت ذلك من التقليدين، كما شاهدته. ولم يتعرض الموقع فيهما إلى ذكر جامكية ولا
جراية. والله أعلم.
ولم تطل مدة هذه الولاية. فإنه صرف في السنة التي تليها، سنة خمس وخمسين - في ثالث
شهر ربيع الأول، وقيل بعد ذلك بقليل، والله أعلم.
زلزال المدينة النبوية
على صاحبها أفضل الصلاة والسلام - من الزلازل، والنار التي ظهرت بظاهرها
وفي سنة أربع وخمسين وستمائة، وردت كتب من المدينة النبوية - على ساكنها أفضل
الصلاة والسلام - بخبر هذه الحادثة. من جملتها، كتاب القاضي شمس الدين سنان، بن
عبد الوهاب بن نميلة الحسيني - قاضي المدينة - وإلى بعض أصحابه بدمشق، مضمونه:
لما كانت ليلة الأربعاء. ثالث جمادى الآخرة - حدث بالمدينة في الثلث الأخير من الليل،
زلزلة عظيمة، أشفقنا منها، ودامت بقية تلك الليلة. تزلزل كل يوم وليلة قدر عشر نوبات.
والله، لقد زلزلت مرة، ونحن حول حجرة النبي - صلى الله عليه وسلم - حتى اضطرب

لها المنبر، وسمعنا منه صوت الحديد الذي فيه ! واضطربت قناديل الحرم الشريف !
ودامت الزلزلة إلى يوم الجمعة ضحى، ولها دوى مثل دوى الرعد القاصف ! ثم طلع، يوم
الجمعة، في طريق الحرة في رأس قريظة، على طريق السوارقية بالمقاعد، مسيرة من الصبح
إلى الظهر - نار عظيمة مثل المدينة العظيمة ! وما ظهرت لنا إلا ليلة السبت. وأشفقنا
منها وخفنا خوفاً عظيماً.
وطلعت إلى الأمير وكلمته، فقلت له: قد أحاط بنا العذاب، ارجع إلى الله تعالى. فأعتق
ممالكه، ورد جماعة أموالهم. فلما فعل هذا، قلت له: اهبط الساعة معنا إلى النبي صلى
الله عليه وسلم. فهبط، وبنا ليلة السبت، والناس جميعاً والنسوان وأولادهم، وما بقي
أحد، لا في النخيل ولا في المدينة - إلا عند النبي صلى الله عليه وسلم.
وأشفقنا منها، وظهر لها لسان - حتى رؤيت من مكة، ومن الفلاة جميعها. ثم سال منها
نهر من نار، وأخذ في وادي أحيلين، وسد الطريف. ثم طلع إلى بحرة الحاج، وهو نهر نار
يجري - وفوقه جمر تسير إلى أن قطعت الوادي - وادى الشظاة. وما عاد يجيء في
الوادي سيل قط، لأنها حرة، تجى قامتين وثلاثا علوها. وتمت تسير، إلى أن سدت بعض
طرق الحاج، وبعض البحرة، بحرة الحاج. وجاء في الوادي إلينا منها قتير وخفنا أنه يجيئنا.
واجتمع الناس، ودخلوا على النبي صلى الله عليه وسلم، وباتوا عنده جميعهم ليلة
الجمعة. فطفىء قتيرها الذي يلينا، بقدرة الله سبحانه.
وهي إلى الآن وما نقصت، إلا ترى مثل الجمال حجارة من نار. لها دوي، ما يدعنا نرقد
ولا نأكل ولا نشرب. وما أقدر أصف لك عظمها، وما فيها من الأهوال. وأبصرها أهل
التنعيم، وندبوا قاضيهم ابن أسعد. وجاء وعدى إليها، وما قدر يصفها من عظمها. قال:
وكتبت الكتاب، يوم خامس رجب، وهي على حالها، والناس منها خائفون. والشمس
والقمر، من يوم طلعت، ما يطلعان إلا كاسفين. نسأل الله العافية.
قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة: بان عندنا بدمشق أثر الكسوف من ضعف نورها

على الحيطان. وكنا حيارى من ذلك، لا ندري ما هو ؟ إلى أن اتضح، وجاء هذا الخبر
عن هذه النار.
وجاء كتاب آخر من بعض بنى القاشاني بالمدينة، يذكر فيه خبر هذه الحادثة، نحو ما
تقدم، ويقول:
ومن قبل ذلك بيومين، سمع الناس صوتاً مثل صوت الرعد - ساعة بعد ساعة - وما في
السماء غيم، حتى يظن أنه منه. ثم زلزلت الأرض في يوم الأربعاء المذكور آنفا، فرجفت بنا
رجفة لها صوت كدوي الرعد. ففزع الناس إلى المسجد، وضجوا بالاستغفار والصلاة.
ودامت ترجف بالناس، ساعة بعد ساعة، من ليلة الأربعاء إلى صبح يوم الجمعة. فارتجت
الأرض رجة قوية، إلى أن اضطرب بنا المسجد، وسمع لسقف المسجد صرير عظيم !
وسكتت الزلزلة بعد صبح يوم الجمعة، إلى قبل الظهر.
ثم ظهرت نار من الحرة تتفجر من الأرض، فارتاع الناس لها روعة عظيمة. ثم ظهر لها
دخان عظيم في السماء، ينعقد، حتى بقي كالسحاب الأبيض، يتصل إلى قبيل مغيب
الشمس من يوم الجمعة. ثم ظهر للنار ألسن تصعد إلى السماء حمر، وعظمت حتى غطت
حمرة النار السماء كلها. وبقي الناس في مثل ضوء القمر.
وأيقن الناس بالهلاك والعذاب.
وذكر من توبة الناس، وفعل الأمير بالمدينة وعتقه مماليكه، ووضعه المكوس، نحو ما تقدم.
قال: وبقيت النار تلتهب التهاباً، وهي كالجبل العظيم، ولها حس كالرعد. فدامت كذلك.
فدامت كذلك أياماً. ثم سالت في وادي أحيلين، فتحدرت في الوادي إلى الشظاة، حتى
لحق سيلانها بالبحرة بحرة الحاج، بحرة الحاج، والحجارة معها تتحدر وتسير، حتى كادت
تقارب حرة العريض. ثم سكنت ووقفت أياماً. ثم عاد يخرج من النار حجارة أمامها
وخلفها، حتى بنت جبلين أمامها وخلفها، وما بقي يخرج منها من بين الجبلين لسان لها
أياماً. ثم انها عظمت الآن، وسناها إلى الآن، وهي تتقد كأعظم ما يكون. ولها صوت
عظيم من آخر الليل إلى صحوة في كل يوم. ولها عجائب ما أقدر أصفها، ولا أشرحها لك

على الكمال. وإنما هذا منها طرف. قال: وكتبت هذا الكتاب، ولها شهر وهي في
مكانها، ما تتقدم ولا تتأخر.
وقال بعض أهل المدينة في ذلك شعراً، وهو:
يا كاشف الضر: صفحاً عن جرائمنا لقد أحاطت بنا يا رب بأساء
نشكو إليك خطوباً لا نطيق لها حملاً، ونحن بها، حقاً أحقاء
زلازلاً تخشع الصم الصلاب لها وكيف يقوى على الزلزال شماء
أقام سبعاً يرج الأرض، فانصدعت عن منظر، منه عين الشمس عشواء
بحر من النار، تجري فوقه سفن من الهضاب، لها في الأرض إرساء
كأنما فوقه الأجبال، طافية موج علاه لفرط الهيج غثاء
يرى لها شرر كالقصر طائشة كأنها ديمة تنصب هطلاء
تنشق منها قلوب الصخر، إن زفرت رعباً، ويرعد مثل السعف رضواء
منها تكاثف في الجو الدخان إلى أن عادت الشمس منه وهي دهماء
قد أثرت سفعة في البدر لفحتها قليلة التم بعد النور ليلاء
تحدث النيرات السبع ألسنها بما يلاقي بها تحت الثرى الماء
وقد أحاط لظاها بالبروج، إلى أن كاد يلحقها بالأرض إهواء
فيالها آية من معجزات رسول الله يعقلها القوم الألباء
فباسمك الأعظم المكنون إن عظمت منا الذنوب، وساء القلب أسواء
فاسمح وهب وتفضل وامح واعف وجد واصفح، فكل لفرط الجهل خطاء
فقوم يونس لما آمنوا أمنوا كشف العذاب، وعم القوم نعماء
ونحن أمة هذا المصطفى، ولنا منه إلى عفوك المرجو دعاء
هذا الرسول الذي لولاه ما سلكت محجة في سبيل الله بيضاء
فارحم وصل على المختار، ما خطبت على علا منبر الأوراق ورقاء
احتراق مسجد المدينة
النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام
وفي هذه السنة - في ليلة الجمعة أول شهر رمضان - احترق مسجد المدينة النبوية -
على ساكنها أفضل الصلاة والسلام.
ابتدأ حريقه من زاويته الغربية، من الشمال. وكان سبب ذلك أن أحد القومة دخل إلى
الخزانة، ومعه نار، فعلقت في آلات ثم، واتصلت بالسقف بسرعة، ثم دبت في السقوف،

فأعجلت الناس عن قطعها. فما كان إلا ساعة، حتى احترقت سقوف المسجد أجمع،
ووقعت بعض أساطينه وذاب رصاصها - وذلك قبل أن نام الناس. واحترق سقف
الحجرة الشريفة.
قلت: وفي وقوع هذه النار معجزة لنبينا - صلى الله عليه وسلم، فإن الخلفاء والملوك
بعده - صلى الله عليه وسلم - زادوا في عمارة المسجد بأنواع من العمارة، وتفننوا في
النقوش والإتقان، وهو - صلى الله عليه وسلم - كره ذلك، وقال - في مرضه الذي انتقل
فيه إلى جوار ربه: لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد. وقالت
عائشة - رضي الله عنها - ولولا ذلك لأبرز قبره - صلى الله عليه وسلم. فجاءت هذه
النار، فأكلت ما كرهه صلى الله عليه وسلم.
واستهلت سنة خمس وخمسين وستمائة:
مقتل السلطان الملك المعز
وشيء من أخباره، ومقتل شجر الدر الصالحية
كان مقتله - رحمه الله تعالى - في يوم الثلاثاء الرابع والعشرين من شهر ربيع الأول، سنة
خمس وخمسين وستمائة.
وسبب ذلك أن شجر الدر - سرية الملك الصالح زوجته - اتصل بها أنه سير يخطب ابنة
صاحب الموصل. فتنكرت لذلك. وكان هو أيضاً قد تغير عليها، بسبب امتنانها عليه،
وأنها هي التي ملكته الديار المصرية، وسلمت إليه الخزائن. وعزم المعز على قتلها، فلم
يخفها ذلك. فبادرت بالتدبير عليه، واتفقت هي ومحسن الجوجري الخادم، ونصر العزيزي،
على قتله.
فلما كان في هذا التاريخ، طلع الملك المعز من الميدان إلى قلعة الجبل عقيب اللعب بالكرة
- فأمر بإصلاح الحمام، وعبر إليها. فدخل عليه محسن الجوجري، وغلام له شديد القوة،
فقتلوه في الحمام !
وشاع الخبر بقتله، في بكرة نهار الأربعاء، فسمر محسن الجوجري الخادم وغلامه على باب
قلعة الجبل. وأما نصر العزيزي فإنه هرب إلى الشام. وأحضرت شجر الدر إلى أم نور الدين
بن الملك المعز، فمازالت تضربها - وهي وجواريها وخدمها - إلى أن ماتت. وألقيت من

أعلى السور إلى الخندق. وبقيت أياماً عريانة ملقاة في الخندق. ثم حملت ودفنت في تربتها
المجاورة لمشهد السيدة نفيسة.
وكانت شجر الدر هذه سرية الملك الصالح نجم الدين أيوب، وهي والدة خليل ابنه.
وكانت قد ملكت الديار المصرية، وخطب لها وخرجت تواقيعها ومناشيرها، بالأرزاق
والمباشرات والإقطاعات - وقد تقدم ذكر شيء منها. ولما ملك السلطان الملك المعز
وتزوجها، ما زالت تخاطب بالسلطنة، وتخرج تواقيعها بالإطلاقات وإبطال الحوادث وكف
المظالم، فتنفذ كنفوذ التواقيع السلطانية.
وقد شاهدت منها توقيعاً على ظهر قصة، مترجمها على بن هاشم، مضمونها: يقبل
الأرض بالمقام العالي السلطاني الخاتوني، عصمة الدين، بسط الله ظلها في مشارق الأرض
ومغاربها - وينهى أن له خدمة على مولانا الشهيد - قدس الله روحه - وله مليك اقتناه
في أيامه، ولم يسقع عليه قط. وفي هذه الأيام التمسوه، وسأل إجراءه على عادته، من غير
حادث.
وخرج التوقيع في ظهرها، ومثال العلامة عليه: والدة خليل الصالحية: المرسوم، بالأوامر
العالية المولوية السلطانية - زادها الله شرفاً وعلواً - أن يجرى الأمير الأجل الأخص الأمجد
الأعز: نور الدين مترجمها - أدام الله توفيقه - على عادته. ولا يطلب بسبب تصقيع ولا
غيره، وليعف من ذلك - رعاية لحق خدمته على الدولة الشريفة، ولقدم هجرته وانقطاعه
إلى الله تعالى. فليعتمد ذلك بعد الخط الشريف أعلاه وثبوته - إن شاء الله تعالى. كتب
في ثاني عشرين جمادي الآخرة، سنة ثلاث وخمسين وستمائة - برسالة الطواشي شرف
الدين مختص الجمدار - أيده الله تعالى.
وكتب عليه بالامتثال. ونفذ حكمه وعمل بمقتضاه. وإنما شرحنا هذا التوقيع، ليعلم أن
تواقيعها كانت جارية بلفظ السلطنة، في الدولة المعزية.
وكانت مدة سلطنة الملك المعز ست سنين وأحد عشر شهراً، إلا أربعة أيام. وكان ملكا
حازماً شجاعاً، سئوساً حسن التدبير - إلا أنه كان سفاكا للدماء. قتل جماعة من
خوشداشيته بغير ذنب، ليقيم ناموس ملكه.

ووزر له الصاحب الأسعد: شرف الدين هبة الله بن صاعد الفائزي. وتمكن منه تمكناً
عظيماً. وقدمه على العساكر وصرفه في الأموال.
وكان الوزير المذكور من قبط مصر. خدم الملك الفائز أخا الملك الكامل كاتباً، ثم تقدم
وترقى وتنقل في المراتب، إلى أن وزر. وتحول في الدولة وابتاع المماليك لنفسه. وتعالى في
أثمانهم، فكان يبتاع المملوك بألف دينار عيناً. واجتمع له نحو من سبعين مملوكاً، يركبون في
خدمته وينزلون. وكان يقول في وزارته: كنت كاتب المصايد بقنطرة سيوط، بدرهم وثلث
في كل يوم، ثم ترقيت إلى هذه الغاية.
وكان ظالم النفس، أحدث في وزارته حوادث كثيرة ومكوسا. واستناب القاضي زين
الدين بن الزبير، لفضيلته وكفايته ومعرفته باللغة التركية. وكان يحفظ له نظام المجلس.
ولما قتل الملك المعز ملك بعده ولده الملك المنصور.
الملك المنصور نور الدين
على بن السلطان الملك المعز وهو الثاني من ملوك دولة الترك بالديار المصرية
ملك الديار المصرية بعد مقتل أبيه - رحمه الله تعالى - في يوم الخميس السادس والعشرين
من شهر ربيع الأول، سنة خمس وخمسين وستمائة. وذلك باتفاق من الأمراء المعزية -
مماليك والده - فحلفوا له، واستحلفوا جميع العساكر. وجعلوا الأمير فارس الدين أقطاي،
المستعرب الصالحي - خوشداش والده - أتابكه، بحكم صغر سن الملك المنصور. ثم
استقرت الأتابكية - بعد ذلك - للأمير سيف الدين قطز، المعزى - مملوك والده.
ووزر له الصاحب شرف الدين الفائزي، أياماً قلائل، ثم قتل.
وذلك أن الأمير سيف الدين
قطز عزله عن الوزارة، وأمر بالحوطة على أمواله وأسبابه وذخائره. وكان مثرياً، وله ودائع
كثيرة، فتتبعت واستخرجت ممن كانت تحت يده. واعتقل، فسأل أن يعطى مالاً، فداء عن
نفسه.
حكى عن الصاحب بهاء الدين السنجاري أنه قال: دخلت عليه في محبسه، فسألني أن
أتحدث في إطلاقه - على أن يحمل في كل يوم ألف دينار. قال: فقلت له: كيف تقدر على

هذا ؟ فقال: أقدر عليه إلى تمام سنة. وإلى انقضاء سنة يفرج الله ! ولما بذل هذا المال،
امتنعت والدة الملك المنصور من ذلك، ولم ترض إلا بقتله. لأنها كانت مجفوة من السلطان
الملك المعز، وكان قد اتخذ سرارى وجعلهن عند الوزير شرف الدين، فنقمت ذلك عليه،
وأمرت بقتله. فقتل صبراً.
ذكر أخبار الوزراء، ومن ولي وزارة الملك المنصور إلى أن استقر في الوزارة قاضي
القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز
لما صرف الصاحب شرف الدين الفائزي، فوضت الوزارة بعده للفقيه: نور الدين علي بن
رضوان القرافي مؤدب الملك المنصور هذا، وخلع عليه خلع الوزراء. فامتنع أن يخط بقلمه،
أو يكتب على توقيع أو منشور، واستمر كذلك عشرين يوماً، واستعفى. فأرسل إليه
قاضي القضاة بدر الدين السنجاري، يلتمس منه أن يتحدث له في الوزارة، ويعده عنه، فيما
قيل - للأتابك: أنا لا أصلح لهذا المنصب، ولا أنفع ولا أنتفع به: وأشار بالقاضي بدر
الدين.
فعند ذلك فوض للفقيه نور الدين هذا نظر الأحباس والأوقاف، والشافعي والخانقاه
والترب، وغير ذلك من الأوقاف وفوضت الوزارة لقاضي القضاة: بدر الدين السنجاري،
فوليها ثلاثة أشهر وأياماً، ثم عزل.
وفوضت الوزارة بعده لقاضي القضاة: تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعز - وكان قد
صرف عن القضاء قبل ذلك، وأعيد قاضي القضاء بدر الدين.
وكانت وزارته في العاشر
من شهر رمضان، سنة خمس وخمسين وستمائة.
ونسخة التقليد - على ما نقلته عنه - ومثال العلامة السلطانية بعد البسملة:
الحمد لله وبه توفيقي. الحمد لله الذي أوضع بعد الغى سبيل الرشد. وتدارك من المجد
ما أخلق من أبراده الجدد. وثقف قناة الملك حتى لا يرى فيها عوج ولا أود. واستغنى في
تدبير سلطانه العظيم عن وزير به يعتضد.
أحمده على نعم سهلت صعبا. وسقت على ظمأ بارداً عذبا.
ورجع بها ما ضاق من
الأمور واسعاً رحبا. والصلاة والسلام على سيدنا محمد، الذي أضحى به معهد الإيمان

معهودا. ونظام المكرمات منضودا. وعلى آله وأصحابه، الذين كان سعيهم في الإسلام
محمودا، وأنوار مناقبهم متوقدة لا تعرف خمودا.
وبعد، فلما كان المجلس السامي، الصاحب الأجل، الصدر الكبير، الإمام العالم، الوزير
الكامل، المجتبى المختار، تاج الدين، بهاء الإسلام، مجد الأنام، شرف الوزراء زين الفضلاء،
رئيس الأصحاب، صفوة الملوك والسلاطين، مفتى الفرق، خالصة أمير المؤمنين: عبد
الوهاب ابن القاضي الأعز خلف - أدام الله سعادته، وقرن بالتأييد بدأه وإعادته - ممن
سلكت به التجربة حزناً وسهلا، وراض جامح الأمور ناشئاً وكهلا، وتمت كلمات تفضيله
بفضائله صدقاً وعدلا، وجددت له مساعيه الحميدة ملابس ثناء لا تبلى. وأجلى من
أبكار معانيه بدوراً لا تعرف أفولاً ولا كسوفاً، واستل من آرائه شعلاً، فلو طبعت لكانت
سيوفاً. واتسق نظام بلاغته، فكأنه نظام فريد. واستعيدت ألفاظه فما أخلقها العود على
المستعيد. وحلى بدرر مساعيه جيداً من الملك عاطلا، وعاد ربع المكارم بمناقبه عامراً
آهلا.
رسم بالأمر العالي المولوي السلطاني، الملكي المنصوري النوري - شرفه الله وأعلاه،
وأنفذه وأمضاه - أن يفوض إليه أمر الوزارة، لما علم فيه من السودد الذي اقتاد به صعب
المكارم والمفاخر، التي حاز منها ما لم يحزه الأوائل، وإن جاء في الزمن الآخر. والفضائل التي
فاز منها بقصب السبق، والأحكام التي تحلى فيها بدر الأناة والرفق. والسياسة التي سلك
بها نهج السبيل إلى الحق. والمعالي التي أبدى في كسبها ما أبداه، من ثغره الضاحك
ووجهه الطلق. والنزاهة التي أهلته لأشرف المناصب، وقضت له بسلامة العواقب،
والصنايع التي غذت معارفه عند مناكرة النوائب، والمكارم التي لحت في العلو، فكأنها تحاول
أخذ ثأر من الكواكب.
ولقد أمعنا النظر في إرتياده. وانتقدناه من بين الناس، فلم نأل جهداً في انتقاده. وخطب
لهذه الرتبة الرفيعة لما أوراه في المكرمات من زناده. وأهل لهذا المنصب الشريف الذي يدع
الآباء والأبناء من حساده.

فليتول ما وليناه من أمر الوزارة، فهو لها من الأكفاء. وما اصطفيناه إلا هو جديرٌ بهذا
الاصطفاء. ولمثل هذه الرتبة يتخير الأكارم من الرجال. وإذا تناسبت الأشياء، ظهر عليها
نضرةٌ وجمال. فليرهف لتدبيره عزمه الماضي الضرائب.
وليستر بمحاسن سعيه ما يبدو له
من المعايب. وليهتم بأمر الأموال، فإن الأغراض منها مستفادة.
وليول من الأمناء من
يستحق منا الحسنى وزيادة.
ولينعم النظر في عمارة البلاد. واستعمال العدل الذي به تدر أرزاق العباد. وبنوره يهدي
إلى سبيل المراشد كل هاد. وعنده يوجد تصديق ظنون الرواد والوراد. وليكن لأحوال
ولاة الأمور متفقدا، وللنظر في أحوالهم مجددا. وليضرب عليهم بالأرصاد مغيباً ومشهدا.
وليصفح عن من لم يكن منهم للزلة متعمدا. فما نؤثر إلا أن يكون الإحسان للناس شاملا،
والبر إليهم متواصلاً. وما تحسن السير إلا إذا تحلت بالمناقب والمفاخر. وتضمنت
محاسنها بطون الأوراق وصدور الدفاتر.
وليتناول من الجامكية والجراية، لاستقبال المباشرة في الشهر، من العين مائة دينار من
الجوالي بالصرف الحاضر. ومن الغلات، من الأهراء المباركة بمصر المحروسة، خمسين إردبا
قمحا وشعيرا - ثلثين وثلث. ومن الراتب - الشاهد به الديوان المعمور لمن تقدمه -
النصف.
وعين جهات الراتب، فقال: الخبز من المخابز، واللحم مع التوابل والخضر المثمنة، وما هو
مقررٌ على دار الوكالة مشاهرةً، من عرصتي الفاكهة بالقاهرة ومصر والرباع، وغير ذلك.
والعليق المقرر على الاسطبلات من الأهراء أيضاً. وإن تعذر حصول الغلة المقدم ذكرها،
والعليق المذكور، يثمن بالسعر الحاضر، وتكون جهته من جهة الجامكية. فليستعن بهذا
المقرر على كلف أوقاته. وليصرفه في وجوه نفقاته، بعد العلامة الشريفة أعلاه، وثبوته
بحيث يثبت مثله، إن شاء الله تعالى.
وكتب في العاشر من شهر رمضان المبارك، سنة خمس وخمسين وستمائة، بالإشارة العالية
المولوية الأتابكية الفارسية - أدام الله علوها. الحمد لله وحده. وصلواته على سيدنا

محمد نبيه، وآله، وسلامه.
وكتب هذا التقليد في ورق بغدادي في قطع الربع. وعادة تقاليد الوزراء - في وقتنا هذا -
تعظم أربابها في النعوت والكتابة، أكثر من هذا.
وفي هذه السنة - وقيل في السنة الآتية - كانت الوقعة بين العساكر المصرية والملك المغيث
والبحرية، وانتصر العسكر المصري، وانهزم الملك المغيث والبحرية. وقد تقدم ذكر ذلك في
أخبار البحرية، فلا فائدة في إعادته.
واستهلت سنة ست وخمسين وستمائة:
في هذه السنة، كانت وفاة بهاء الدين أبو الفضل زهير، بن محمد بن علي بن يحيى بن
الحسن، بن جعفر بن منصور بن عاصم المهلبي الكاتب.
كان من فضلاء عصره. وكان قد خدم الملك الصالح نجم الدين أيوب، لما كان ينوب عن
والده الملك الكامل. وتوجه في خدمته إلى الشرق، ولازمه إلى أن قبض على الملك الصالح
واعتقل بالكرك. فأقام بنابلس محافظةً لمخدومه، إلى أن خلص، فعاد إلى خدمته. وحضر
في صحبته إلى الديار المصرية، وتمكن منه واطلع على سره.
وكانت وفاته قبيل المغرب من يوم الأحد، رابع عشر ذي القعدة. ودفن من الغد، بعد
صلاة الظهر، بتربته بالقرافة الصغرى، بالقرب من تربة الإمام الشافعي. ومولده بمكة -
شرفها الله تعالى - في يوم الأربعاء، خامس ذي الحجة، سنة إحدى وثمانين وخمسمائة.
وفيها، توفي الإمام الحافظ زكي الدين أبو محمد عبد العظيم، بن عبد القوي بن عبد الله بن
سلام، بن سعد بن سعيد المنذري.
وكانت وفاته بالقاهرة، في يوم السبت، أول الساعة العاشرة، ثالث أو رابع ذي القعدة، سنة
وخمسين وستمائة. وصلى عليه في يوم الأحد - بعد الظهر - بالمدرسة الكاملية بالقاهرة
المعزية. ثم صلى عليه تحت القلعة. وصلى عليه عند قبره قبل العصر. ودفن بسفح
المقطم. وكان مولده بفسطاط مصر، في غرة شعبان، سنة إحدى وثمانين وخمسمائة.
وانتهت إليه رياسة الحديث في زمانه - رحمه الله تعالى.
وفيها، توفي الشيخ الفقيه الإمام: أبو إسحاق إبراهيم، بن يحيى بن أبي المجد، الأسيوطي
الشافعي.

وكانت وفاته بالقاهرة المعزية، في عشية اليوم السابع من ذي القعدة، من هذه السنة، ودفن
بسفح المقطم. ومولده في سنة سبعين وخمسمائة - تقريباً. وكان أحد المشايخ المشهورين
بمعرفة مذهب الشافعي. وكان كثير الإيثار مع الإقتار، والإفضال مع الإقلال، كريم
الأخلاق. رحمه الله تعالى.
واستهلت سنة سبع وخمسين وستمائة:
في هذه السنة - ثاني عشر جمادى الآخرة - جبى التسقيع بالقاهرة.
وفيها، في شعبان - أمسك شخص يعرف بالكوراني، فضرب ضربا شديداً، وحبس على
بدع رؤيت منه وسمعت عنه. ثم جدد إسلامه وتاب، على يد شيخ الإسلام: عز الدين
عبد العزيز بن عبد السلام، وأطلق من الحبس. وكان مقامه بالجبل الأحمر.
ذكر القبض على الملك المنصور، وعلى أخيه قاآن، واعتقالهما
كان القبض على السلطان الملك المنصور، بن السلطان الملك المعز، في يوم الجمعة - السابع
والعشرين من ذي القعدة - سنة سبع وخمسين وستمائة.
وسبب ذلك أنه تشاغل باللهو واللعب، والمسابقة بالحمير الفره، بين يديه، وأمثال ذلك.
وكانت أمه تدبر المملكة تدبير النساء. فأطمعت الأمير سيف الدين قطز المعزى نفسه
بالملك. واتفق خروج خوشداشيته إلى الصيد، فانتهز الفرصة، وقبض على الملك المنصور،
وعلى أخيه قاآن، وعلى والدته. واعتقلهما في برج السلسلة بثغر دمياط، ثم سفر إلى
القسطنطينية في الأيام الظاهرية الركنية. فكانت مدة سلطنته سنتين، وثمانية أشهر،
ويومين.
الملك المظفر سيف الدين قطز المعزى
وهو الثالث من ملوك دولة الترك بالديار المصرية
ملك الديار المصرية في يوم السبت، لليلتين بقيتا من ذي القعدة، سنة سبع وخمسين
وستمائة - بعد أن قبض على الملك المنصور، بن مولاه الملك المعز.
قال: ولما ملك، حضر خوشداشيته من الصيد، وتنكروا له، وامتعضوا من ملكه. فقبض
عليهم واعتقلهم، وأعجلهم عن التدبير. وهم: الأمير علم الدين سنجر الغتمي، والأمير

شرف الدين قيزان المعزى، وعز الدين أيبك النجيبي الصغير، وشمس الدين قرا سنقر
المعزى. واعتقل أيضاً شمس الدين الدود: خال الملك المنصور بن المعز، والطواشي حسام
الدين بلال المغيثي اللالا.
واستحلف الأمراء والعساكر، وأظهر الحزم. واستوزر الصاحب زين الدين بن الزبير.
وعزل الأمير حسام الدين بن باذ عن وظيفة شاد الدواوين. وولي الأمير نور الدين بن
السديد. واستمر بالأمير فارس الدين أقطاي المستعرب على الأتابكة، وفوض إليه أمر
العساكر.
واحتفل بأمر الجند، واستعد للجهاد. وأرسل إلى الملك الناصر صاحب الشام، وطلب
منه الاتفاق واجتماع الكلمة. والمظافرة على العدو، وأن يكونا يدا واحدة على حرب
التتار. فحلف له على ذلك. ثم كان من أمر الملك الناصر، واضطراب أمره، وزوال ملكه،
واستيلاء التتار على حلب ودمشق وغيرها - ما قدمناه.
وملك التتار الشام بأسره. وجرد هولاكو كتبغا نوين في جيش كثيف، اختاره من المغل،
وبعثه إلى الشام. وكان من أمره، وأمر جيوش الشام، وتحللهم بلاد الشام، ووصولهم إلى
نابلس، وقتل من قدمنا ذكره بها - ما شرحنا ذلك في أخبار الملك الناصر. فلا فائدة في
إعادته.
وفي سنة سبع وخمسين وستمائة.
توفي الأمير منيف بن شيحة، صاحب المدينة النبوية. وقام بعده بالمدينة أخوه: جماز بن
شيحه.
وفيها، توفي الشيخ الفاضل الصدر الكبير فتح الدين أبو العباس: أحمد بن الشيخ جمال
الدين أبي عمرو عثمان، بن أبي الحوافر - رئيس الأطباء بالديار المصرية.
وكانت وفاته في ليلة الخميس، رابع عشر رمضان، ودفن بالقرافة. وولي رياسة الأطباء
بعده ابن أخيه: الصدر شهاب الدين أحمد، بن محيي الدين رشيد بن جمال الدين عثمان،
بن أبي الحوافر.
واستهلت سنة ثمان وخمسين وستمائة:
ذكر وصول البحرية والشهرزورية إلى خدمة السلطان الملك المظفر

في هذه السنة، فارق الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري - ومن معه من الأمراء البحرية
- السلطان الملك الناصر صاحب الشام، لما رأوه من ضعف رأيه، وتخاذله عن ملاقاة
عدوه. وتوجهوا إلى غزة. واجتمعوا هم والأمراء الشهرزورية.
وأرسل الأمير ركن الدين بيبرس - المذكور - الأمير علاء الدين طيبرس الوزيري إلى
السلطان الملك المظفر، يستأذنه في الحضور إلى خدمته - هو ومن معه - ويلتمس إيمانه
لهم. فأجاب الملك المظفر إلى ما طلب. فتوجه من غزة بمن معه. وكان وصولهم إلى
القاهرة في يوم السبت، الثاني والشعرين من شهر ربيع الأول.
فركب الملك المظفر للقائهم، وأنزل الأمير ركن الدين بدار الوزارة. وأقطعة قصبة قليوب،
لخاصه. فأشار الأمير ركن الدين عليه بحرب التتار. وقوي عزائمه على ذلك.
ذكر خبر المصاف الكائن بين السلطان الملك المظفر ومن معه من الجيوش الإسلامية،
وبين جيش التتار على عين جالوت. وانهزام التتار وقتل مقدمهم كتبغا نوين، وما يتصل
بذلك من الأخبار
لما ملك التتار الممالك الشامية، وزالت دولة الملك الناصر صلاح الدين يوسف من الشام -
كما قدمنا ذكر ذلك - راسل كتبغا نوين، مقدم جيش التتار، السلطان الملك المظفر، وأرسل
إليه، يطالبه ببذل الطاعة، وتعبئة الضيافة. فقتل الملك المظفر رسله، إلا صبياً واحداً، فإنه
استبقاه، وضمه إلى جملة مماليكه.
واستعد للجهاد، وخرج بعساكر الديار المصرية، ومن انضم إليه من جيوش الشام - الذين
فارقوا الملك الناصر - ومن حضر إليه من الأمراء البحرية، والأمراء الشهرزورية،
وغيرهم.
وراسل الملك الأشرف مظفر الدين موسى، صاحب حمص - وكان قد عاد من جهة
هولاكو من حلب - وفوض إليه نيابة السلطنة بالشام أجمع، وحلب، وغير ذلك، والملك
السعيد بن الملك العزيز عثمان بن الملك العادل - وكان قد أخذ من هولاكو فرماناً
بالصبيبة وبانياس. وسألهما المظافرة والمعاونة على حرب العدو، وأن تكون الكلمة
واحدة.

فتوجه رسوله، واجتمع بالملك السعيد. فسبه وسب من أرسله، وقال: من هو الذي
يوافق هذا الصبي، أو يدخل في طاعته أو ينضم إليه ؟! ونحو هذا من الكلام. ففارقه
وتوجه إلى الملك الأشرف. فخلا الملك الأشرف بالرسول، وقبل الأرض بين يديه تعظيما
لمرسله. وأجلسه مكانه على مرتبته وجلس بين يديه، وسمع رسالته. وقال له: قبل الأرض
بين يدي مولانا السلطان الملك المظفر، وأبلغه عني أنني في طاعته وموافقته، وامتثال أمره.
والحمد لله الذي أقامه لنصرة هذا الدين. ووعد أنه، إن حضر المصاف مع التتار، انهزم
بهم، إلى غير ذلك. وأعطى الرسول ذهبا جيداً، واعتذر إليه.
فعاد الرسول، وأبلغ الملك المظفر عن كل من الملكين ما قال له. فعامل كلا منهما، عند
ظفره، بما نذكره.
قال: وجمع السلطان الملك المظفر الأمراء بالصالحية، واستشارهم: أين يكون لقاء العدو ؟
فأشاروا أن يكون بالصالحية. وصمموا على ذلك. فوافقهم على رأيهم ظاهراً. وركب في
صبيحة ليلة المشورة من منزلة الصالحية. وحرك الكوسات ودخل الرمل. فانجرت
العساكر خلفه، ولم يتخلف منهم أحدٌ عنه. وسار بعساكره وجموعه، حتى انتهى إلى عين
جالوت - من أرض كنعان، بالقرب من بيسان، مدينة غور الشام.
وأقبل كتبغا نوين بجيوش التتار، ومن انضم إليه. والتقوا واقتتلوا - وذلك في يوم الجمعة،
الخامس والعشرين من شهر رمضان، سنة ثمانٍ وخمسين وستمائة. وثبت الملك المظفر
أحسن ثبات. حكى بعض من حضر هذه الواقعة قال: كنت خلف السلطان الملك
المظفر، لما التحم القتال ووقعت الصدمة الأولى، فاضطر جناح عسكر السلطان، وتتعتع
طرفٌ منه. فلما رأى الملك المظفر ذلك، رمى خوذته عن رأسه، وصاح: وا إسلاماه !
وحمل، فأعطاه الله تعالى النصر. وكانت الدائرة على التتار، وأخذهم السيف والإسار.
وقتل كتبغا نوين، فيمن قتل. وانهزم من سلم من التتار، لا يلوون على شيء. وكان الأمير
ركن الدين بيبرس البندقداري ممن شهد هذه الوقعة، وأبلى يومئذ بلاءً حسناً.

وكان ممن أسر من التتار، في هذه الوقعة: كتبغا المنصوري - وهو يومئذ شاب - وهو
الذي ملك الديار المصرية - بعد ذلك - في سنة أربع وتسعين وستمائة، ولقب بالعادل.
ووقع في ذلك حكايةٌ غريبة، نذكرها - ان شاء الله تعالى - عند ذكرنا لسلطنة الملك
العادل كتبغا.
قال: ولما تمت الهزيمة على التتار، جاء الملك السعيد - بن الملك العزيز - إلى السلطان
الملك المظفر، مستأمناً. وكان شهد الوقعة مع التتار. فترجل عن فرسه، وتقدم إلى
السلطان ليقبل يده. فضربه برجله على فمه، فأدماه. وجاء أحد سلاح دارية السلطان،
فضرب عنقه ! وفعل ذلك به، مؤاخذةً له على جوابه، الذي ذكره لرسول السلطان.
ذكر مسير السلطان الملك المظفر إلى دمشق ووصوله إليها، وملكه الممالك الشامية، وما قرره من ترتيب الملوك والنواب، وغير ذلك مما اتفق بدمشق
قال المؤرخ: ولما تم النصر، تقدم السلطان الملك المظفر، طالباً جهة دمشق. واتصل الخبر
بالزين الحافظي ونواب التتار بدمشق، ومن كان قد وصل - صحبة الملك العزيز فخر الدين
عثمان بن الملك المغيث، صاحب الكرك - من جهة هولاكو من توريز، ليكون شحنةً
بالكرك، وكانوا بدمشق. فخرجوا هاربين إلى هولاكو.
وكان النصارى بدمشق، في أيام التتار، قد استطالوا على المسلمين، ومدوا أيديهم، وبسطوا
ألسنتهم فيهم. فلما اتصل خبر النصر بالمسلمين، ثار جماعةٌ من العوام، وحرقوا كنيسة
مريم، وخربوا بعضها. فأقاموا كذلك من يوم الجمعة إلى يوم الثلاثاء. إلى أن وصل الأمير
جمال الدين أقش المحمدي، بكتاب السلطان الملك المظفر، ودخل دمشق. ونزل دار
السعادة، وسكن الناس وطمنهم.
ثم وصل السلطان في يوم الأربعاء، سلخ شهر رمضان. ونزل على الجسورة، وخيم بها.
وعيد عيد الفطر، ثم دخل إلى دمشق، في ثاني شوال، وملك البلاد.
ورتب النواب في المماليك الشامية: ففوض نيابة دمشق إلى الأمير - علم الدين سنجر
الحلبي - الصالحي. وجعل معه الأمير فخر الدين: أبا الهيجا بن خشترين. وأقر الملك

الأشرف مظفر الدين موسى على مملكته، بحمص والرحبة وتدمر. وبعث الملك المظفر بن
الملك الرحيم - بدر الدين لؤلؤ - إلى حلب نائباً بها، ونعته بالملك السعيد - لمشاركة
النعت. وأقر الملك المنصور بن الملك المظفر على مملكته بحماه. وأقطع البلاد الشامية
والحلبية. وأصلح ما اضطرب من الأمور. وعاد لقصد الديار المصرية، فقتل - قبل وصوله
إليها.
ذكر مقتل السلطان الملك المظفر سيف الدين قطز، ونبذة من أخباره
كان مقتله - رحمه الله تعالى - في يوم السبت، الخامس عشر من ذي القعدة، سنة ثمان
وخمسين وستمائة - وقيل في سابع عشر الشهر.
وذلك أنه لما قرر أمور الشام، ورتب الملوك والنواب والممالك، عاد من دمشق لقصد الديار
المصرية، في سادس عشر شوال. فلما وصل إلى منزلة القصير من منازل الرمل، ركب إلى
الصيد. وكان الأمير بدر الدين أنص الأصفهاني، وجماعة معه، تظافروا هم والأمير ركن
الدين بيبرس البندقداري، على اغتياله. فقصدوه - وهو في الصيد - وقتلوه غيلةً !
وحكى في كيفية قتله: أنه كان قد تغير خاطره على الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري.
فلما تقدم الأمراء إليه، سأله الأمير بدر الدين أنص الرضا عن الأمير ركن الدين. فقال: قد
رضيت عنه. فترجل الأمير ركن الدين ليقبل يده. فلما تناولها قبض عليها، وجذبه عن
سرجه، وبدره أولئك الأمراء بالضرب، فقتلوه - رحمه الله تعالى.
ويقال: إن الأمراء الذين اتفقوا على قتله هم: الأمير سيف الدين بلبان الرشيدي، والأمير
سيف الدين بهادر المعزى - خوشداشه - والأمير بدر الدين بكتوت الجوكان دار المعزى،
والأمير سيف الدين بيغان الركني، والأمير سيف الدين بلبان الهاروني، ومن ذكرنا.
وكان الملك الظاهر يدعى أنه هو الذي قتله بيده. وقال جماعة: إنه لم يباشر قتله، وإنما
كان يدعى ذلك، افتخاراً. وقد نقل أن الملك الظاهر لما قبض على يده، ضربه الأمير بدر
الدين بكتوت الجوكان دار على عاتقه بالسيف، فأبانه. وألقاه الأمير بدر الدين أنص عن

فرسه. ثم رماه الأمير سيف الدين بهادر المعزى بسهم، أتى على روحه - رحمه الله
تعالى. فكأنه المعني بقول الشاعر:
وما كان إلا السيف، لاقى ضريبة فقطّعه، ثم انثنى فتقطّعا
وكانت مدة ملكه أحد عشر شهرا، وسبعة عشر يوماً.
وأما غير ذلك من أحواله - رحمه الله تعالى -: فقد حكى أنه كان من أولاد الملوك
الخوارزمية. وأنه محمود بن ممدود، ابن أخت السلطان خوارزم شاه. وإنما أبيع، لما استولى
التتار على البلاد، وملكوا ملك الخوارزمية. وقتلوا الرجال وأسروا النساء والصبيان،
وكان هو ممن أسر وأبيع. وقد كان هو يصرح بذلك - فيما حكى عنه - ويستكتم من
يحكيه له.
وقد نقل الشيخ شمس الدين: محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن إبراهيم ابن عبد العزيز، بن
أبي الفوارس الجزري، ثم الدمشقي - في تاريخه: حوادث الزمان وأنبائه أن والده أخبره أن
الحاج على الفراش أخبره، قال:
لما كان قطز في رق ابن الزعيم بدمشق - وكان سكنه بالقصاعين - غضب عليه في بعض
الأيام فلطم وجهه، ولعنه ولعن والديه وجده. قال: فبكى قطز بكاءً شديدا، وجعل ينتحب
طول نهاره، وامتنع من الأكل. وركب أستاذه بعد صلاة الظهر إلى الخدمة، فقال لي:
استرضه وأطعمه، واعتبه على بكائه.
قال الفراش: فجئت إليه وجعلت ألومه على بكائه من لطمة واحدة، فكيف لو ضربت
ألف عصاة أو دبوس، أو جرحت بسيف ؟! فقال: والله ما بكائي وغيظي من أجل
لطمة، وإنما كونه لعن أبي وأمي وجدي. فقلت له: ومن أبوك وجدك وأمك ؟ فقال: والله
أبي خير من أبيه، وأمي خير من أمه، وجدي خير من جده. فقلت له: أنت مملوك تركي،
كافر بن كافرين.
فقال: والله، ما أنا إلا مسلمٌ، ابن مسلمين: أنا محمود بن ممدود، ابن أخت خوارزم شاه،
من أولاد الملوك. قال: فسكت عنه وطايبته. وتقلبت به الأحوال، إلى أن ملك الديار
المصرية والشام. ولما ملك دمشق أحسن إلى الحاج على الفراش المذكور، وأعطاه خمسمائة
دينار، ورتب له راتباً جيداً.

قال الشيخ شمس الدين: وقد حكى لي ولوالدي، هذه الحكاية عنه. هذا معنى كلامه
ولفظه.
ومما يؤيد هذه الحكاية أيضاً - ويشهد لها - ما حكاه الشيخ شمس الدين - المذكور -
عن والده، قال: حكى لي الحاج أبو بكر بن الدريهم الإسعردي، والحاج زكي الدين إبراهيم
الجزري - المعروف بالجبيلي، أستاذ الفارس أقطاي - قالا:
كنا عند الأمير سيف الدين قطز في أول دولة أستاذه: الملك المعز، وقد حضر عنده منجمٌ
ورد من بلاد المغرب - وهو موصوف بالحذق في علم الرمل والفلك. فأمر قطز أكثر من
عنده من حاشيته بالانصراف، فانصرفوا. وهممنا بالقيام، فأمرنا بالجلوس، فجلسنا. وما
ترك عنده إلا من يثق به من خواصه. وقال للمنجم: اضرب الرمل. ففعل. وحدثه بأشياء
كثيرة، مما كان في نفسه.
وكان آخر ما قال له: اضرب وانظر من يملك بعد أستاذي، ومن يكسر التتار ؟ فضرب،
وحسب حساباً طويلاً، وبقي يفكر ويعد أصابعه. وقال: قد طلع معي خمس حروف بغير
نقط، وأبوه أيضاً خمس حروف بغير نقط. وأنت اسمك ثلاث حروف، وابن السلطان
كذلك. فقال له: لم لا تقول: محمود بن ممدود ؟ فقال المنجم: لا يقع غير هذا الاسم. فقال
قطز: أنا محمود بن ممدود. وأنا أكسر التتار، وآخذ بثأر خالي خوارزم شاه. ثم استكتمنا
هذا الأمر. وأنعم على المنجم بثلاثمائة درهم، وصرفه.
وحكى عن المولى المرحوم تاج الدين أحمد بن الأثير - رحمه الله تعالى - ما معناه:
أن الملك صلاح الدين يوسف صاحب الشام - رحمه الله تعالى - لما كان على برزة، في
أواخر سنة سبع وخمسين وستمائة - وصل إليه قصادٌ من الديار المصرية، بكتب، تتضمن
أن قطز قد تسلطن وملك الديار المصرية، وقبض على الملك المنصور بن أستاذه الملك
المعز. قال القاضي تاج الدين: فطلبني السلطان - رحمه الله - فقرأت عليه الكتب.
فقال لي: خذ هذه الكتب، وتوجه إلى الأمير ناصر الدين القيمري، والأمير جمال الدين بن
يغمور، وأوقف كلاً منهما عليها. قال: فأخذتها وخرجت من عنده. فلما بعدت عن

الدهليز، لقيني حسام الدين البركة خاني، فسلم علي، وقال، جاءكم بريدٌ أو قصادٌ من
الديار المصرية فوريت، وقلت: ما عندي علمٌ بشيء من هذا.
قال: قطز يتسلطن، ويملك
الديار المصرية، ويكسر التتار. قال القاضي تاج الدين: فعجبت من كلامه، وقلت له: ايش
هذا القول ؟ من أين لك هذا ؟
قال: والله هذا قطز هو خوشداشي. كنت أنا واياه عند الهيجاوي من أمراء مصر،
ونحن صبيان. وكان عليه قملٌ كثير، فكنت أسرح رأسه - على أنني كلما أخذت عنه
قملة، آخذ منه فلساً أو صفعة. فلما كان بعض الأيام أخذت عنه قملاً كثيراً، وشرعت
أصفعه، ثم قلت في غضون ذلك: والله ما أشتهي إلا أن الله يرزقني إمرة خمسين فارسا،
فقال لي: طيب قلبك، أنا أعطيك إمرة خمسين فارسا.
فصفعته، وقلت: والك، أنت
تعطيني إمرة ؟! قال نعم ! فصفعته ! فقال لي: والك، ايش يلزم لك إلا إمرة بخمسين
فارس، أنا والله، أعطيك. قلت: والك، كيف تعطيني ؟.
قال: أملك الديار المصرية: قلت: تملك الديار المصرية ؟! قال: نعم، رأيت النبي - صلى
الله عليه وسلم - في المنام، وقال لي: أنت تملك الديار المصرية، وتكسر التتار. وقول النبي
صلى الله عليه وسلم لا شك فيه. فسكت. وكنت أعرف منه الصدق في حديثه وعدم
الكذب.
وتنقلت به الأحوال، وارتفع شأنه. إلى أن صار هو المحتكم في الدولة. وما أشك أنه يملك
الديار المصرية - مستقبلاً - ويكسر التتار - كما أخبره النبي صلى الله عليه وسلم - في
المنام.
قال القاضي تاج الدين: فلما قال لي هذا القول، قلت له: والله قد وردت الأخبار أنه
تسلطن في الديار المصرية. قال لي: والله، وهو يكسر التتار. فما مضى إلا مدةٌ يسيرة،
حتى خرج وكسر التتار.
قال المولى تاج الدين - رحمه الله - فرأيت الأمير حسام الدين البركة خاني، الحاكي لي -
بعد ذلك - بالديار المصرية، بعد كسرة التتار. فسلم علي وقال لي: تذكر ما قلت في الوقت

الفلاني ؟ قلت: نعم. قال: والله، حالما عاد الملك الناصر من قطيا، ودخلت أنا إلى الديار
المصرية، أعطاني إمرة خمسين فارساً، كما قال - رحمه الله - لا زايد على ذلك.
وقد ذكر هذه الحكاية الشيخ قطب الدين اليونيني في تاريخه، وقال أيضاً:
وحكى لي الأمير عز الدين بن أبي الهيجا ما معناه: أن الأمير سيف الدين بلقاق حدثه،
أن الأمير بدر الدين بكتون الأتابكي حكى له، قال:
كنت أنا والملك المظفر قطز، والملك الظاهر ركن الدين بيبرس - رحمهم الله تعالى - في
حال الصبا، كثيراً ما نكون مجتمعين في ركوبنا وغير ذلك.
فاتفق أن رأينا منجماً في بعض
الطرق بالديار المصرية. فقال له الملك المظفر: أبصر نجمي. فضرب بالرمل وحسب، وقال
له: أنت تملك هذه البلاد، وتكسر التتار ! فشرعنا نهزأ به. ثم قال له الملك الظاهر:
فأبصر نجمي. فضرب بالرمل وحسب، وقال: وأنت تملك الديار المصرية وغيرها. فتزايد
استهزاؤنا به! ثم قالا لي: لا بد أن يبصر نجمك. فقلت له أبصر لي. فضرب وحسب،
وقال لي: وأنت تحصل لك إمرة بمائة فارس، يعطيك هذا - وأشار إلى الملك الظاهر. فاتفق
أن الأمر وقع كما قال. وهذا من عجيب الاتفاق.
قال الشيخ قطب الدين اليونيني - نفع الله به -:
وكان السلطان الملك المظفر بطلاً شجاعاً، ولم يكن يوصف بشح ولا كرم، بل كان
متوسطاً. وهو أول من أجترأ على التتار، وكسرهم، بعد خوارزم شاه، كسرةً عظيمة،
جبر بها الإسلام.
قال: ومما حكى لي عنه: أنه قتل في يوم المصاف جواده بعين جالوت، ولم يصادف في تلك
الساعة أحدٌ من أوشاقيته، الذين معهم جنائبه، فبقي راجلا. ورآه بعض الأمراء
الشجعان، فترجل عن حصانه وقدمه له ليركبه. فامتنع، وقال له ما معناه: ما كنت لآخذ
حصانك في هذا الوقت، وأمنع المسلمين الانتفاع بك، وأعرضك للقتل. وحلف عليه أن
يركب فرسه. فامتثل أمره، وركب. ووافاه الأوشاقية بالجنائب، فركب جنيباً.
فلامه بعض خواصه على ذلك، وقال: لو صادفك - والعياذ بالله - بعض المغل، وأنت

على الأرض راجلا، كنت رحت، وراح الإسلام ! فقال: - أما أنا فكنت أروح إلى الجنة
- إن شاء الله تعالى. وأما الإسلام، فما كان الله عز وجل ليضيعه. فقد مات الملك
الصالح، وقتل ولده الملك المعظم، والأمير فخر الدين بن الشيخ - مقدم العساكر - ونصر
الله الإسلام، بعد اليأس من نصره - يشير إلى نوبة المنصورة.
قال: ولما قدم إلى دمشق بعد الكسرة، أجرى الناس كافة، على ما كانوا عليه إلى آخر
الأيام الناصرية، في رواتبهم ومقرراتهم وإطلاقاتهم. ولم يتعرض إلى مال أحد، ولا إلى
ملكه.
ثم توجه، بعد تقرير قواعد الشام. فرزقه الله الشهادة، فقتل مظلوماً. رحمه الله تعالى.
"سنة ثمان وخمسين وستمائة"
الملك الظاهر ركن الدين بيبرس
وهو الرابع من ملوك دولة الترك بالديار المصرية المحروسة، وهو تركي الجنس من قبيلة
البرلي، ملك الديار المصرية والبلاد الشامية في يوم السبت المبارك الخامس عشرمن ذي
القعدة سنة ثمان وخمسين وستمائة، وكان ذلك بمنزلة القصير من منازل الرمل، في اليوم الذي
قتل فيه السلطان الملك المظفر سيف الدين قطز المعزى.
وذلك أنه لما قتل الملك المظفر ساق الأمراء إلى الدهليز ونزلوا به، وجلسوا كلهم دون
طراحة السلطنة،وتشاوروا فيمن يملكونه عليهم، فوقع اختيارهم عليه. ويقال إن الأمير
فارس الدين أقطاى المستعرب الصالحي الأتابك قال في ذلك المجلس:"ينبغي ألا يلي السلطنة
إلا من خاطر بنفسه في قتل السلطان وأقدم على هذا الأمر العظيم" فقال الملك الظاهر:"أنا
قتلته" ووثب وجلس على طراحة السلطنة، فبايعه الأمير فارس الدين المذكور، وحلف له،
ثم الأمير
سيف الدين بلبان الرشدي، ثم الأمراء على طبقاتهم. ثم قال له الأمير فارس الدين
الأتابك:" إن السلطنة لاتتم لك إلا بدخولك إلى قلعة الجبل"، فركب لوقته، وركب معه
الأمير فارس الدين الأتابك، و الأميرسيف الدين قلاون الألفي، والأمير بدر الدين بيسرى
الشمسي، ومماليكه وخواصه.

وتوجه" بيبرس" إلى قلعة الجبل، ورتب في مسيره إليها أرباب الوظائف: فرتب الأمير جمال
الدين أفش النجين الصالحي استاد دارا، والأمير عز الدين أيبك الأقرم الصالحي أمير
جاندار،
والأمير حسام الدين لاجين الدرفيل، والأمير سيف الدين بلبان الرومي في الدوادارية،
والأمير بهاء الدين أمير آخور على عادته. ولقيه في طريقه الأمير عز الدين إيدمر الحلى،
وكان ينوب عن الملك المظفر بقلعة الجبل، وقد خرج لتلقيه، فأعلمه الملك الظاهر بما اتفق،
وعرض عليه أن يحلف، ثم تقدم"إيدمر" إلى القلعة واجتمع بمن بها،ووعدهم عن السلطان
المواعيد الجميله فأجابوه، ولم يزل على باب القلعة إلى أن وصل السلطان إليها، فدخلها ليلا
وتسلمها.
ويقال إنه لما ملك"بيبرس" تلقب بالملك القاهر ووصل إلى قلعة الجبل ولقبه ذلك، فأشار
الصاحب زين الدين بن الزبير بتغيير هذا اللقب، وقال إنه ما لقب به أحد فأفلح لقب به
القاهر بن المعتضد فلم تطل وخلع وسمل.
ولقب به صاحب الموصل فسم.فنقل السلطان لقبه إلى الملك الظاهر والله أعلم.
قال المؤرخ وكانت القاهرة ومصر قد زينتا لقدوم الملك المظفر، والناس في سرور لمقدمه إثر
هذا النصر العظيم، فلم يرعهم إلا ومناد ينادي:"معشر الناس، رحمكم الله، ترحموا على
الملك المظفر، وادعوا لسلطانكم الملك الظاهر ركن الدين" فوجم الناس لذلك، وتألموا خوفا
من شدة البحريه وما كانوا يعتمدونه من الظلم والسلطنة في غيرهم، فكيف وقد صارت
فيهم. فعاملهم السلطان بما سرهم به، وهو أن الملك المظفر كان قد جدد على الناس
حوادث في سنة ثمان وخمسين وستمائة: منها تصقيع الأملاك وتقويمها وأخذ زكاتها، وأخذ
ثلث الترك الأهلية،
ومضاعفة الزكاة، وجباية الدينار من كل إنسان، ومبلغ ذلك ستمائة ألف دينار. فأبطل
السلطان"بيبرس" ذلك، وكتب به توقيعا قرىء على المنابر، فطابت قلوب الناس.
قال: ولما أصبح السلطان "بيبرسط في يوم الأحد جلس بالإيوان بقلعة الجبل وحلف

العساكر لنفسه، واستناب مملوكه الأمير بدر الدين بيليك الخزنداروأقر الأمير فارس الدين
أقطاى المستعرب في الأتابكية.
وكاتب الملوك والنواب والأمراء بالممالك الشامية يخبرهم بما جدده الله تعالى له من أمر
السلطنة، ويطلب منهم بذل الطاعة والموافقة
واستهلت سنة تسع وخمسين وستمائة
في هذه"السنة" كان للسلطان في ابتداء سلطنته أخبار متشعبة متباينة:منها ما هو في
حضرته بمقر ملكه بالديار المصرية؛ ومنها ما هو بدمشق، ومنها ما هو بحلب، وكل ذلك في
هذه السنة،وبعضه في أواخر سنة ثمان وخمسين.
وقد رأينا أن نبدأ من ذلك بما كان في مقر مملكته في بعض هذه السنة خاصة، ثم نذكر ما
كان بدمشق وحلب من الحوادث والوقائع إلى أن استقرت قواعد سلطنته وتأكدت أسباب
دولته، ثم نذكر ما يشمل المملكة عموما، ثم نذكر بعد ذلك ما اتفق"له" من الأحوال، وما
رتبه من الأمور، وما أمر به من العمائر والأوقاف وغير ذلك بمصر والشام، ونذكر الأخبار
والوقائع على حكم السنين نقدم ما قدمه التاريخ ونؤخر ما أخره.
لا نستثني مما نورده من أخبار دولته إلا الغزوات والفتوحات: فإنا نذكرها مفردة، ونختم بها
أخبار دولته، فإنها من الفتوحات الجليلة والغزوات المشهورة فأحببنا إيرادها في موضع
واحد، لئلا تنقطع بغيرها من أخباره، على ما تقف على ذلك إن شاء الله تعالى.
فأما ما كان من الأخبار والحوادث
في مقر ملكه بالديار المصرية
فمن ذلك ركوب السلطان من قلعة الجبل في يوم الإ ثنين سابع صفر من السنة بشعار
السلطنة، وساق خارج المدينة إلى باب النصر ودخل منه، وشق القاهرة وخرج من باب
زويلة إلى قلعة الجبل، والأمراء وأعيان الدولة مشاة في خدمته.
ومنه تفويض وزارة الدولة إلى الصاحب بهاء الدين.
تفويض الوزارة إلى الصاحب الوزير بهاء الدين
علي بن القاضي سديد الدين أبي عبد الله
محمد بن سليم المعروف بابن حنا
في هذه السنة، فوض السلطان إليه وزارة دولته وخلع عليه، وركب في خدمته الأعيان

والأكابر، والأمير سيف الدين بلبان الرومي الداودار، وجماعة من الأمراء، وذلك في يوم
الإثنين ثامن شهر ربيع الأول وقبيل ثانية، وتمكن" الصاحب بهاء الدين" من السلطان ودولته
تمكنا عظيما. وحكى لي بعض الأكابر الثقات"أن"الصاحب بهاء الدين رأى في منامه قبل
وزارته أنه ذبح السلطان الملك الظاهر، فقص ذلك على من يثق به ممن له معرفة بالتعبير،
فقال له:"تتمكن منه تمكن الدابح من المدبوح ". وكان منه في أقرب منزلة وأعز مكانة.

القبض على جماعة من الأمراء المعزية

وفي شهر ربيع الأول أيضا، قبض السلطان على جماعة من الأمراء المعزية وسبب ذلك أنه
حضر إلى السلطان أحد أجناد الأمير عز الدين الصيقلي وأنهى أن مخدومه فرق جملة من
الذهب على جماعة، وقرر معهم الوثوب على السلطان وقتله، وكذلك الأمير علم الدين
الغتمي، والأمير سيف الدين بهادر المعزى،والأمير شجاع الدين بكتوت وغيرهم. فقبض
عليهم، ثم قبض على الأمير بهاء الدين بغدى الأشرفي، في شهرربيع الآخر، واعتقله فلم يزل
في اعتقاله حتى مات.

تفويض قضاء القضاء بالديار المصرية لقاضي القضاة تاج الدين بن بنت الأعز

وفي هذه السنة فوض السلطان الملك الظاهر قضاء القضاة بالديار المصرية لقاضي القضاة
تاج الدين عبد الوهاب بن القاضي الأعز خلف بن بنت الأعز،وعزل قاضي القضاة بدر
الدين السنجاري، وعوق عشرة أيام، ثم أفرج عنه وعطل عن الحكم.

ونسخة التقليد السلطاني:" لقاضي القضاة تاج الدين" ومثال العلامة الظاهرية عليه بعد
البسملة:" المستعلي بالله".

" الحمد لله الذي أنار مطالع الهدى، وصان ما ابتذل من الأمور التي ما أهملت سدى،
وألبس الشريعة المطهرة ثوبا من الشرف مجددا، وأعلى منارها بمن أضاءت مساعيه، فلو
سرى بها الركب لا هتدى".

" أحمده على نعم توالي هطل غمامها،ومنن أضحت متناسقة عقود نظامها".

"والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي عزت به أمور الإسلام بعد اهضامها،وعلى آله

وأصحابه الذين أضحت بهم عرى الذين الحنيف وثيقة بعد انفصامها.
وبعد، فلما كان المجلس السامي،القاضي الأجل، الصدر الكبير، الإمام العالم، الفقيه
الفاضل،المختار المرتضي، الصاحب تاج الدين، عز الإسلام،مجد الأنام،شمس الشريعة، مفتى
الفرق،رئيس الأصحاب،ذخر الملوك والسلاطين، قاضي القضاة عبد الوهاب بن خلف، أدام
الله سعادته ونعمته، ممن أحرز في الفضائل قصب سبقه، ووصل سح غمامه في العلوم
الشرعية ببرقه واجتنى ثمارها الدانية القطوف، واجتلى أقمار معانيها التي لا تتوارى عنه
بالسجوف وسلك سبيلا من العفاف أضحى به وحيدا منفردا، ومارس أمور الشريعة
فثقف منها أودا، وأعمل فكرته الصافية فحلل منها عقدا، وأنعم نظره فيها فأوضح له من
الضلال رشدا.
رسم بالأمر العالي المولوي السلطاني الملكي الظاهري الركني،زاد الله في علائه،وضاعف
مواد نفاذه ومضائه أن يفوض إليه الحكم العزيز بجميع الديار المصرية المحروسة، لما علم فيه
من فضل مازالت ثماره تجتني، ومساع حميدة ما برح بها إلى الخلائق محسنا،ودين متين يشيد
من أمور الآخرة ما بنا،وسؤدد مازال فيه وفي بيته مستوطنا، وأوصاني جميلة خصته
بنباهة أضحى بها متقدما وآراء مسددة أضاءت من سبل الرشاد ما كان مظلما، ونزاهة
ما زالت له خلقا لا تخلقا، وعفاف ما برح منه مثريا لا معلقا.
فليباشر هذا المنصب الذي أضحى ظل شرفه وارفا، وكعبة حرمه التي يتوجه إليها من
كان باديا أو عاكفا، عاملا فيه بالتقوى التي يحافظ عليها مسرا ومعلنا، ويتمسك بأسبابها
إذا صد عنها غيره وانثنى، فهي المعقل الذي لا يستباح له حمى، والمقام الذي يجد الخائف
أمنه فيه محققا لا غيبا مرجماً، والعصمة التي تنجي من العطب، والموكب الذي تجد به
الأنفس راحتها الكبرى بعد التعب. وليول من القضاة من يحيي من الحق سننا، ويميت من
الباطل بدعا، ويكون رجاؤه بالآخرة متصلا، ومن الدنيا منقطعا، ليرجع به سبيل الحق بعد
ضيقه متسعا، وشمل الباطل بعزيمته مفترقا لا مجتمعا.

وليتفقد أمر العدول الذين أضحوا على الحقيقة عدولا عن المنهج القويم، راغبين عن
المحامد بما يأتونه من وصف ذميم. ولا يترك منهم إلا شاهدا كان عن المعايب غائبا أو
متورعا، لا يعتمد منم الأمور إلا ما كان واجبا، لتسلم عدالته من وصمه التجريح،
وتظهرمساعيه التي تذلل له من العلا كل جموع.
وأموال الأيتام والأوقاف فلا يباشرها إلا من كان لمباشرتها أهلا، ومن تتحقق أنه يكون
عليها قفلا. فطالما ابتذلت أيدي الخونة منها مصونا، وجعلت العين منها أثرا حين مدت
إليها عيونا. ولا تخلها من نظر يحفظ منها مضاعا ويحسم عنها أطماعا، ويخصها بمزية
الزيادة بعد النقصان، ويكتب لها من مخاوف الخونة كتاب أمان.
فقد قلدناك هذه الأحكام التي ترجو بك الخلاص من تبعاتها، ورعينا بك حق الرعية، فلا
تخل أمورهم من مراعاتها، وامضي عزيمتك في إقامة منار الشريعة بعد القمود، واعل همتك
في نظم ما يتبدد له من العقود. واجتهد في أمره الاجتهاد الذي يرفل منه في ضافي البرود،
ومتع الخلائق بأيام بيض من أحكامك غير سود، ففيك من السؤدد ما ينقاد به المفاخر،
ومن الأوصاف الجميلة ما تتميز به على الأوائل وأن جئت في الزمن الآخر.
وقد قررنا لك من الجامكية والجراية نظير ما كان مقررا لمن تقدمك، وهو في كل شهر
أربعون دينارا صرف أربعين وستمائة وستة وستون درهما ناصرية وثلثان وخمسة وعشرون
أردبا غلة نصفين.
فليوصل ذلك إليه على تمامه وكماله عند وجوبه واستحقاقه، بعد العلامة الشريفة أعلاه
إن شاء الله تعالى.
وكتب في السابع عشر من جمادى الأولى سنة تسعة وخمسين وستمائة. الحمد لله وحده
وصلواته على سيدنا محمد نبيه، وآله وصحبه الظاهرين وسلامه.
وعين جهة الجامكية على الجوالي بالديار المصرية، والغلة على الأهراء المباركة بمصر
المحروسة.
واستمر "الصاحب تاج الدين" في قضاء بجميع الديار المصرية، إلى شوال من السنة، فاقتطع
منه قضاء مصر والوجه القبلي، وفوض ذلك إلى القاضي برهان الدين الخضر بن الحسن بن

علي الخضر السنجاري في ثالث شوال، ثم عزل "برهان الدين الخضر" وأعيد قاضي القضاة
تاج الدين بتقليد سلطاني تاريخه الثامن من صفر سنة ستين وستمائة. وقد شاهدت هذا
التقليد ووقفت عليه.
ما اعتمده السلطان في ابتداء سلطنته ورتبه
من المصالح وقرره من القربات والأوقاف والعمايرِ
كان ما ابتدأ به، رحمه الله تعالى وعفا عنه وأنابه، عمارة الحرم الشريف النبوي وسنذكره.
ثم وصلت الكتب في سنة تسع وخمسين أن القبة التي بالصخرة الشريفة ببيت المقدس قد
تداعت، فكتب إلى دمشق بتجهيز الصناع إليها وما يحتاج إليه من الآلات، ونجزت العمارة
بها في سنة ستين.
وكانت عدة ضياع من أوقاف الخليل قد دخلت في الإقطاعات، فأمر "السلطان"
بارتجاعها، وعوض الأمراء عنها، وأعادها إلى الأوقاف، وأوقف قرية أذنا على الخليل عليه
السلام.
بناء قلعة الجزيرة
كان السلطان الملك المعز قد أمر بهدمها، وأباح ما بها من الرخام والأصناف التي غرم
عليها السلطان الملك الصالح الأموال العظيمة، فرسم السلطان "بيبرس" بعمارتها، وندب
لذلك الأمير جمال الدين بن يغمور، فشرع في إصلاح ما استهدم من قاعاتها، ورتب فيها
الجاندارية، وأعادهاإلى ما كانت عليه من الحرمة. وفرق السلطان الأبراج: فرسم أن يكون
برج الزاوية للأمير سيف الدين قلاون الألفي، وثانيه للأمير عز الدين الحلى، والبرج الثالث
للأمير عز الدين إيغان، وبرج الزاوية الغربي للأمير بدر الدين بيسرى الشمسي. وفرق بقية
الأبراج على الأمراء، ورسم أن تكون بيوتاتهم واسطبلاتهم بها، وسلم إليه المفاتيح.
ووسم بعمارة القناطر بجسر شبرمنت بالجيزية وأكثر ما كانت الجيزية تشرق عنه. فبنيت
القناطر في هذا الجسر تلتقي صدمه الماء الأولى وتفتحت لتصريف المياه أولا فأولا "كذا".
ورسم بعمارة مشهد النصر بعين جالوت، وكتب بذلك إلى نواب الشام.
وحث على عمارة الأسوار بثغر الإسكندرية وحفر خنادقها، ورتب جملة من الأموال في

كل شهر تصرف في نفقة العماير وبنى مرقبا لثغر رشيد لكشف مراكب الفرنج.
ورسم بردم فم بحر دمياط، وتوغيره بالقراتيص، وتضييقه ليمنع السفن الكبيرة من الدخول
فيه.
ورسم بحفر بحر أشموم طناح، وندب لذلك الأمير سيف الدين بلبان الرشيدي فتوجه لذلك
وحفر ما يجب حفره، وغرق المراكب قبلي فم البحر من الجانب الغربي حتى ترد الماء
إليه.
واهتم بعمارة الشواني وأعادها إلى ما كانت عليه من الأيام الكاملية والصالحية.
وأمر بعمارة شواني الثغرين وأحضرها إلى ساحل مصر، وكانت تزيد على أربعين قطعة،
وعدة كثيرة من الحراريق والطرائد والسلالير.
وركب الخليفة والسلطان في يوم الأحد تاسع عشر شهر رجب سنة تسعة وخمسين
وستمائة من القلعة إلى ساحل مصر، وركبا في الحراريق، وتفرجا، وطلعا إلى قلعة الجزيرة
وجلسا بمقعد البانياسي، ولعبت الشواني، ثم عادا إلى القلعة.
ورسم بعمارة القلاع المنصورة بالبلاد الشامية وهي: قلعة دمشق، والصلت وعجلون،
وصرخد، وبصرى، وبعلبك، والصبية، وشيزر، وشميس، وكان التتار قد خربوا أسوارها
فرسم بإعادة ما استهدم و إصلاح ما تشعث.
ورسم بعمارة مدرسته التي بالقاهرة، وسيأتي ذكرها إن شاء الله تعالى.
هذا ما قرره من المصالح العامة ورتبه من المهمات في ابتداء سلطنته، فلنذكر خلاف ذلك
من متجددات.
وصول من يذكر من الملوك إلى خدمة السلطان
وما قرره لكل منهم وما عاملهم به من الإحسان
وفي سنة تسع وخمسين وستمائة، وردت كتب النواب بدمشق يذكرون وصول الملك الصالح
صاحب الموصل بأهله وغلمانه وأولاده، فكتب السلطان إلى النواب بدمشق بالمبالغة في
خدمته وترتيب الإقامات له ولمن معه في الطرقات من دمشق إلى القاهرة، فوصل في شعبان
من السنة، فتلقاه السلطان وأنزله في أدر أخليت له.
ثم ورد بعده بأيام الخبر بوصول أخيه الملك المجاهد صاحب الجزيرة فاعتمد السلطان معه

نظير ما اعتمده في حق أخيه. وكان الملك المظفر أخوهما قد اعتقله الأمراء بحلب على ما
نذكره، فأفرج السلطان عنه وأحضره إلى الديار المصرية، وذلك قبل وصولهما إليه، فلما
وصل أخواه استأذن في تلقيهما، فأذن له السلطان في ذلك.
وأنعم السلطان عليهم بالأموال والخيول والخلع والحوائص لهم ولأصحابهم وعين جماعة من
البحرية برسم خدمتهم والتصرف في مهاماتهم، ثم رسم السلطان بكتابة تقاليدهم ببلادهم،
وكان الخليفة قد فوض ذلك إلى السلطان بتقليد على ما نذكره إن شاء الله تعالى.
فكتب تقليد الملك الصالح ركن الدين إسماعيل بالموصل وولاياتها:
بالوصا، والجزيرة "و" مدينة البوازيج، والزيادة: عقر "و" شوش، ودارا وأعمالها، والقلاع
العمادية، "و" كنكور وبلدها.
وكتب تقليد الملك المجاهد سيف الدين إسحاق ببلاد الجزيرة وأعمالها وزيادة حمرين.
وكتب تقليد الملك المظفر: سنجار وأعمالها.
وكتب لعلاء الملك ولد الملك الصالح تقليد بقلعة الهيثم.
ولما توجه السلطان إلى الشام وخيم بظاهر القاهرة سيرت هذه التقاليد إليهم ومعها أحمال
الكوسات والصناجق والأموال. وأعفوا من الحضور والخدمة عليها، وساروا في خدمة
السلطان إلى الشام فسلطنهم.
وذلك أنه أحضرهم مجلسه وجهز لهم خيل النوبة والعصائب والجمدارية، ولبسوا الخلع
وقبلوا الأرض وخرجوا بشعار السلطنة، والأتابك في خدمتهم، وتوجهوا صحبة الخليفة
على ما نذكره.
فاتفق انفصالهم منه في أثناء الطريق لأسباب جرت، وتوجه كل منهم إلى مملكته: فأما
الملك الصالح فتوجه إلى الموصل وأقام بها، فاتفق اجتماع التتار عليها وحصارها. وأما
أخواه فإنهما خافا مهاجمة العدو فعادا إلى الشام، واستأذنا في الحضور، فأذن لهما السلطان
فحضرا، وسألا السلطان إنجاد أخيهما فجرد الأمير شمس الدين سنقر الرومي وجماعة من
البحرية والحلقة. فتوجهوا في رابع جمادى الأولى سنة ستين وستمائة، وكتب "السلطان" إلى
دمشق بخروج عسكرها صحبة الأمير علاء الدين طيبرس ورحل العسكر المصري

والشامي من دمشق في عاشر جمادى الآخرة.
وصول المستعصم إلى مصر
ومبايعته وتجهيزه بالعساكر إلى بلاد الشرق
وما كان من أمره إلى أن قتل
قال المؤرخ: و في العشر الأخر من جمادى الآخر سنة تسع وخمسين وستمائة ورد كتاب
علاء الدين طيبرس، والأمير علاء الدين البندقدار مضمونه أنه وصل إلى جهة دمشق في
أول الغوطة رجل ادعى أنه أحمد بن الإمام الظاهر بن الإمام الناصر ومعه جماعة من عرب
خفاجة في قريب من خمسين فارسا، وأن الأمير سيف الدين قليج البغدادي عرف أمراء
العرب المذكورين وقال: "بهؤلاء يحصل القصد من العراق" فكتب السلطان بخدمته وتعظيم
حرمته وأن يسير صحبته حجاب. فكان وصوله إلى القاهرة في يوم الخميس تاسع من شهر
رجب من السنة؛ فخرج السلطان للقائه وساير أهل المدينتين، وكان يوما مشهودا، وشق
القاهرة وهو لابس شعار بني العباس، وطلع إلى القلعة راكبا، ونزل في المكان الذي أخلي
له.
وفي يوم الاثنين ثالث عشر أحضر السلطان الفقهاء والأئمة والعلماء والأمراء والصوفية
والتجار وغيرهم بقاعة العمد، وحضر الخليفة وأثبت نسبه على ما قدمنا ذكره في أخبار
الدولة العباسية. ولما ثبت النسب بايعه السلطان على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله
عليه وسلم، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله، وأخذ الأموال
بحقها وصرفها في مستحقها، ثم قلد الخليفة السلطان الملك الظاهر البلاد الإسلامية وما
سيفتحه الله من أيدي الكفار. وكتب بذلك تقليد شريف عن الخليفة للسلطان، وبايع
الناس الخليفة على اختلاف طبقاتهم. وكتب السلطان إلى سائر الأعمال بأخذ البيعة له
وأن يخطب باسمه على المنابر وتنقش السكة باسمه.
ولما كان في يوم الجمعة سابع عشر شهر رجب خطب الخليفة بالناس في جامع القلعة،
واهتم السلطان بذلك ونثرت جمل من الذهب والفضة. وحصل للخليفة توقف في الخطبة.
وفي يوم الاثنين رابع شعبان ركب السلطان إلى خيمة ضربت في البستان الكبير والناس في

خدمته، وحملت الخلع صحبة الأمير مظفر الدين وشاج الخافجي وخادم الخليفة. ودخل
السلطان إلى خيمة أخرى ولبس الخلعة الخليفية، وهي عمامة سوداء مزركشة، ودراعة
بنفسجي، وطوق، وعدة سيوف تقلد منها وحملت خلفه، ولواءان، وسهمان كبيران،
وترس، وغير ذلك مما جرت العادة به. وقدم له فرس أشهب في رقبته مشدة سوداء، وعليه
كنبوش أسود. وطلب الأمراء وخلع عليهم، وعلى الصاحب بهاء الدين، وقاضي القضاة،
وصاحب ديوان الإنشاء الشريف: وهو القاضي فخر الدين بن لقمان، وطلع ابن لقمان على
منبر قد جلل بالأطلس الأصفر، وقرئ التقليد على كافة الناس وهو:
بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي أضفى على الإسلام ملابس الشرف وأظهر بهجة دُرره وكانت خافية بما
استحكم عليها من الصدف. وشيد ما وهى من علاثه حتى أنسى ذكر ما سلف.
وقيض لنصره ملوكا اتفق عليهم من اختلف. أحمده على نعمه التي تسرح الأعين منها في
الروض الأنف،
وألطافه التي وقف الشكر عليها فليس عليها منصرف.
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة توجب من المخاوف أمنه وتسهل من
الأمور ما كان حزنا، واشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي جبر من الدين وهنا، وأظهر من
المكارم فنونا لافتا، صلى الله عليه وعلى آله الذين أضحت مناقبهم باقية لا تفنى،
وأصحابه الذين صحبوه في الدنيا فاستحقوا الزيادة من الحسنى، وسلم تسليما".
"وبعد: فإن أولى الأولياء بتقديم ذكره،وأحقهم أن يصبح القلم راكعا وساجدا في تسطير
مناقبه وبره، من سعى فأضحى سعيه الحميد متقدما، ودعا إلى طاعته فأجابه من كان
منجدا ومتهما، وما بدت يد من المكرمات إلا كان لها زندا ومعصما، ولا استباح بسيفه
حمى وغى إلى أضرمه نارا وأجراه دما.
ولما كانت هذه المناقب الشريفة مختصة بالمقام العالي المولوي السلطاني الملكي الظاهري
الركني- شرفه الله وأعلاه- ذكرها الديوان العزيز النبوي تنويها الشريف قدره، واعترافا

بصنعه الذي تنفد العباره ولا تقوم بشكره، وكيف لا وقد أقام الدولة العباسية بعد أن
أفعدتها زماتة الزمان، وأذهبت ما كان لها من محاسن وإحسان، وعتب دهرها المسئ
فأعتب، وأرضى عنها زمنها وقد كان صال عليها صولة مغضب، وأعاده لها سلما بعد أن
كان عليه حربا، وصرف لها اهتمامه فرجع كل مضيق من أمرها واسعا رحبا. ومنح أمير
المؤمنين عند القدوم عليه حنوا وعطفا، وأظهر من الولاء رغبة في ثواب الله مالا يخفى،
وأبدى من الاحتفال بأمر الشريعة والبيعة أمرا لورامه غيره لا متنع عليه، ولا تمسك بحبله
متمسك لانقطع به قبل الوصول إليه، لكن الله أدخر هذه الحسنة ليثقل بها ميزان ثوابه،
ويخفف بها يوم القيامة حسابه. والسعيد من خفف حسابه، فهذه منقبة أبى الله إلا أن
يخلدها في صحف صنعه، ومكرمة "قضت" لهذا البيت الشريف النبوي بجمع شمله بعد
أن حصل الإياس من جمعه".
"وأمير المؤمنين يشكر الآن "لك" هذه الصنائع. ويعترف أنه لولا اهتمامك بأمره لاتسع
الخرق على الراقع. وقد قلدك الديار المصرية والبلاد الشامية والديار الجزرية، والبكرية،
والحجازية، واليمنية وما يتجدد من الفتوحات غورا ونجدا، وفض أمر جندها ورعاياها
إليك حتى أصبحت بالمكارم فردا: وكل جعل منها بلدا من البلاد ولا حصنا مستثنى ولا
جهة من الجهات تعد في الأعلى ولا في الأدنى".
فلاحظ أمور الأمة فقد أصبحت لثقلها حاملة، وخلص نفسك اليوم لك التبعات، ففي غد
تكون مسئولا عنها لا سائلا. ودع الاغترار بأمر الدنيا، فما نال أحد منها طائلا، وما لحظها
أحد بعين الحق إلا رآها خيالا زائلا، فالسعيد من قطع منها آماله الموصولة، وقدم لنفسه
زاد التقوى فتقدمته غير التقوى مردودة لا مقبولة. وأبسط يدك بالإحسان والعدل، فقد أمر
الله بالعدل والإحسان وكرر ذكره في مواضع من القرآن، وكفر به عن المرء ذنوبا كتبت عليه
آثاما، وجعل يوما واحدا منه كعبادة ستين عاما ما سلمك "أحد" سبيل العدل واجتنبت
ثماره من أفنان، ورجع الأمن بعد تداعى أركانه مشيد الأركان، وتحصن به من حوادث

الزمان فكانت أيامه في الأيام أبهى من الأعياد، وأحسن من الغرر في أوجه الجياد، وأحلى
من العقود إذا حلى بها عاطل الأجياد".
"وهذه الأقاليم المنوطة بنظرك تحتاج إلى حكام وأصحاب رأى من أرباب السيوف
والأقلام،
فإذا استعنت بأحد منهم في أمرك فنقب عليه تنقيبا، واجعل عليه في تصرفاته رقيبا،
وسل عن أحواله، ففي يوم القيامة تكون عنه مسئولا وبما اجترم مطلوبا، ولا تول منهم إلا
من تكون مساعيه حسنات لك لا ذنوبا. وأمرهم بالأناة في الأمور والرفق، ومخالفة الهوى
إذا ظهرت أدلة الحق، وأن يقابلوا الضعفاء في حوائجهم بالثغور الباسم والوجه الطلق. وألا
يعاملوا أحدا على الإحسان والإساءة إلا بما يستحق، وأن يكونوا لمن تحت أيديهم من
الرعية إخوانا، وأن يوسعهم برا وإحسانا، وألا يستحلوا حرماتهم إذا استحل لهم الزمان
حرمانا، والمسلم أخو المسلم، وإن كان أميرا عليه أو سلطانا. فالسعيد من نسج ولاته في
الخير على منواله، واستنوا بسنته في تصرفاته وأحواله، وتحملوا عنه ما تعجز قدرته عن
حمل أثقاله".
"ومما يؤمرون به أن يمحي ما أحدث من سيئ السنن، وجدد من المظالم التي هي على
الخلائق من أعظم المحن، وأن يشتري بإبطالها المحامد، فإن المحامد وخيصة بأغلى الثمن.
ومهما جنى منها من الأموال فإنها فانية وإن كانت حاصله، وأجياد الخزائن وإن أصبحت
بها خالية فإنما هي الحقيقة عاطلة وهل أشقى ممن احتقب إثما، واكتسب بالمساعي
الذميمة ذما، وجعل السواد الأعظم يوم القيامة له خصما، وتحمل ظلم الناس مما صدر عنه
من أعماله، وقد خاب من حمل ظلما. وحقيق بالمقام الشريف السلطاني الملكي الظاهري
الركني أن تكون ظلامات الأيام مردودة بعدله، وغزائمه نخفف عن الخلائق ثقلا لا طاقة لهم
بحمله، فقد أضحى على الإحسان قادرا، وصنعت له الأيام ما لم تصنعه لمن تقدم من
الملوك وإن جاء أخرا، فأحمد الله على ما آن وصل إلى جنابك إمام هدى واجب لك مزية

التعظيم وتنبيه الخلائق على ما خصك الله به من هذا الفضل العظيم. وهذه أمور ينبغي
أن تلاحظ وترعى، وأن توالي عليها حمد الله، فإن الحمد يجب عليها عقلا وشرعا. وقد
تبين أنك صرت في الأمور أصلا، وصار غيرك فرعا".
ومما يجب ذكره: الجهاد الذي أضحى على الأمة فرضا، هو والعمل الذي يرجع به مسود
الصحائف مبيضا. وقد وعد الله المجاهدين بالأجر العظيم، وأعد لهم عنده المقام الكريم،
وخصهم بالجنة لا لغو فيها ولا تأثيم".
"وقد تقدمت لك في الجهاد يد بيضاء أسرعت في سواد في سواد الحساد، وعرف منك
عزمة هي أمضي مما تحت ضمائر الأغماد.واشتهرت لك مواقف في القتال هن أبهى وأشهى
إلى القلوب من الأعياد. وبك صان الله حمى الإسلام من أن يبتذل، ويعزمك حفظ على
المسلمين نظام هذه الدول، وبسيفك الذي أثر في الكافرين قروحا لا تندمل، وبك يرجى أن
يرجع مقر الخلافة المعظمة إلى ما كان عليه من الأيام الأول. فأيقظ لنصره الإسلام جفنا ما
كان هاجعا، وكن في مجاهدة أعداء الله إماما متبوعا لا تابعا. وأيد كلمة التوحيد فما تجد
في تأييدها إلا مطيعا سامعا".
"ولا تخل الثغور من اهتمام بأمرها تتسيم له الثغور، واحتفال يبدل ما دجى من ظلماتها
بالنور، واجعل أمرها على الأمور مقدما، وسد منها ما عادروه العدو متداعيا متهدما،
فهذه حصون يحصل منها "الانتفاع" وبها تحسم الأطماع، وهي على العدو داعية افتراق لا
اجتماع".
"وأولادها بالاهتمام ما كان البحر له مجاورا، والعدو إليه ملتفتا ناظرا، ولا سيما ثغور
الديار المصرية، فإن العدو وصل إليها رابحا، ورجع خاسرا، واستأصلهم الله فيما مضى
حتى ما أقال منهم عاثرا".
وكذلك الأصطول الذي ترى خيلة كالأهلة وركائبه بغير سائق مستقلة، وهو أخو الجيش
السليماني، فإن ذلك غدت له الرياح حاملة وهذا تكفلت يحمله المياه السائلة. وإذا لحظها
الظرف سائرة في البحر كانت كالأعلام، وإذا شبهها قال هذه ليال تقلع في أيام".

"وقد سنى الله لك من السعادة كل مطلب، وأتاك من أصالة الرأي الذي يريك المغيب،
وبسط بعد القبض منك الأمل، ونشط من السعاده ما كان قد كسل، وهداك إلى مناهج
الحق وما زلت مهتدياً إليها، وألهمك المراشد فلا تحتاج تنبيه عليها، والله تعالى يؤيدك
بأسباب نصره، ويوزعك شكر نعمه، فإن النعم تستتم بشكره، بمنه وكرمه"
ثم ركب السلطان وشق المدينة بعد أن زينت، وحمل التقليد الأمير جمال الدين النجيب
استاد الدار العالية، والصاحب الوزير بهاء الدين في بعض الطريق وبسط أكثر الطريق
للسلطان بالثياب الفاخرة "و" مشى عليها بفرسه، ووصل إلى القلعة.
وشرع السلطان في الأستخدام للخليفة: فكتب للأمير سابق الدين بوزبا أتابك العسكر
بألف فارس، وللأمير ناصر الدين محمد بن صيرم الخازندار بمائتي فارس، وللأمير الشريف
نجم الدين استاد الدار بخمسمائة فارس، وأمر جماعة من العربان، وحملت إليهم الطلبخاناة
والصناجق، وأنفق فيهم الأموال لعدة شهور. واشترى السلطان مائة مملوك جمدارية وسلاح
دارية للخليفة، وأعطى لكل واحد منهم ثلاثة أرؤس خيلا وجملا لعدته، ولم يبق أحد ممن
تدعو الحاجة إليه من صاحب ديوان وكاتب إنشاء وديوان وأئمة ومؤذنين وغلمان وحكماء
وجرائحية إلا استخدموا. ولما تكامل ذلك كله تقدم السلطان بتجهيز العساكر.
وفي يوم الأربعاء تاسع عشر شهر رمضان من السنة ركب السلطان هو والخليفة في
السادسة من النهار، ونزل كل منهما في دهليزه، واستمرت النفقة في أجناد الخليفة.
وفي يوم العيد ركب الخليفة والسلطان تحت الجتر، وصليا العيد، وفي هذه الليلة حضر
الخليفة إلى خيمة السلطان وألبسه الفتوة بحضور من يعتبر حضوره في ذلك.
وفي يوم السبت سادس شوال رحلا متوجهين إلى الشام، فلما وصلا إلى الكسوة خرج
عسكر
الشام للقائمها، ودخلا دمشق في يوم الاثنين سابع ذي القعدة. ونزل السلطان بالقلعة، ونزل

الخليفة في تربة الملك الناصر بجبل الصالحية. وجرد الأمير سيف الدين بلبان الرشيدي،
والأمير شمس الدين سنقر الرومي إلى جهة حلب، وأمرهم السلطان بالمسير إلى الفرات،
وأنه متى ورد عليهم كتاب الخليفة يطلب أحداً منهم إلى العراق يتوجه إلى خدمته لوقته.
وركب السلطان وودع الخليفة، وسير إليه الملوك الذين ذكرناهم.
ثم ورد كتاب الخليفة يذكر أنه وصل إلى حديثه وعانا، وولى فيها ثم كان ما ذكرنا من
خروج طائفة من التتار وقتال الخليفة لهم واستشهاده، رحمه الله تعالى، على ما قدمناه في
أخباره، في أخبار خلفاء الدولة العباسية.
وحسب ما أنفق في مهم الخليفة والملوك فكان ألف ألف دينار عينا.
وفي هذه السنة قبل مسير السلطان إلى الشام، كتب منشور الأمير شرف الدين عبسي بن
مهنا بالإمرة على جميع العربان، وأطلق السلطان العريان الغلال من بلد حلب، وذلك قبل
خروج السلطان إلى الشام.
هذا ما كان من الأخبار بالديار المصرية، فلنذكر ما اتفق بالشام من حين ابتداء سلطنة
السلطان الملك الظاهر إلى أن استقرت قواعد ملكه.
استيلاء الأمير علم الدين سنجر الحلبي على دمشق وسلطنته بها،
وأخذها منه، وتقرير نواب السلطان بها.
قد ذكرنا أن السلطان الملك المظفر سيف الدين قطز كان قد فوض نيابة السلطنة بدمشق
للأمير علم الدين سنجر الحلبي، فلما اتصل به خبر قتل الملك المظفر وثب على السلطنة
بدمشق وحلف العساكر الشامية لنفسه، ولقب نفسه بالملك المجاهد، وركب بشعار
السلطنة، فلما اتصل ذلك بالسلطان الملك الظاهر كتب إليه يقبح فعله ويسترجعه عنه،
فعادت أجوبته بالمغالطة. فأرسل إليه السلطان الأمير جمال الدين أقن المحمدي يستميله
ويرده عن تعاطي ما لا يتم له، وسير إليه صحبته مائة ألف وعشرين ألف درهم وحوائص
ووخلعا وملابس بألفي دينار عينا. فلما وصل ذلك إليه جلس الأمير علم الدين الحلبي
مجلسا عاما للناس وأشهدهم على نفسه أنه قد نزل عن الأمر الذي كان قد استحلف

الناس عليه، وأنه من جملة النواب الظاهرية.
ثم رجع عن ذلك وركب بشعار السلطنة على ما كان عليه أولا، فركب الأمير علاء الدين
ايدكين البندقدار وخرج إلى ظاهر دمشق، ونادى باسم السلطان الملك الظاهر ومعه
جماعة فساق بهم إلى جهة السواد، فندب الحلبي جماعة لقتالهم، فانهزم أصحاب الحلبي، ثم
رأى انحراف الناس عنه واتفاقهم عليه، ففارق دمشق وتوجه إلى قلعة بعلبك. ودخل
الأمير علاء البندقدار ودمشق، وحلف الناس للسلطان الملك الظاهر وجهز إلى بعلبك من
أحضر الحلبي تحت الاحتياط. وكتب بذلك إلى السلطان، فجدد السلطان المناشير للأمراء
والجند، وقرر الحديث في الأموال ونيابة القلعة للأمير علاء الدين طيبرس الوزيري،ورسم
بإحضار الحلبي، فلما وصل إليه اعتقله بقلعة الجبل، ثم أطلقه بعد ذلك وخلع عليه،
واستمر في الخدمة إلى أن جهزه إلى نيابة حلب. هذا ما اتفق بدمشق.
ما اتفق بحلب في أمر النيابة
كان السلطان الملك المظفر قد استناب بالمملكة الحلبية الملك المظفر علاء الدين ابن
صاحب الموصل، ولقبه بالملك السعيد على ما ذكرناه، فتوجه إلى حلب، وحصلت منه
أمور أنكرها عليه الأمراء، وكان الملك المظفر قطز قد أقطع جماعة من الأمراء العزيزية
والناصرية بالبلاد الجبلية، فلما اتصل بهم قتل الملك المظفر اجتمعوا وقبضوا على الملك
السعيد ونهبوا وطاقة،وكان قد برز إلى الباب المعروف بباب الله للقاء التتار، واستولوا على
خزائنه فلم يجدوا فيها مالا طائلا، فتهددوه بالعذاب إن لم يقر لهم بالمال، فأخرج لهم من
تحت الأشجار مالا كان قد دفنه، تقدير خمسين ألف دينار مصرية، ففرقت في الأمراء
واعتقلوا الملك السعيد بالشغر، ثم أفرجوا عنه بعد ذلك، وقدموا عليهم الأمير حسام
الدين الجوكندار العزيزي، فكتب السلطان إليه تقليد بنيابة المملكة الحلبية.
وصول طائفة من التتار
إلى البلاد الإسلامية
وما فعلوه بحلب وتقدمهم إلى حمص وقتالهم وانهزامهم
وما كان من خبر عودهم

وفي سنة تسع وخمسين وستمائة بلغ التتار أن الأمراء العزيزية والناصرية قد وقع بينهم
اختلاف، فتجمعوا من كل جهة وعبروا الفرات، ولما بلغ الملك السعيد خبرهم وأنهم
وصلوا إلى جهة البيرة جرد إليهم جماعة قليلة من العسكر الحلبي، وقدم عليهم سابق الدين
أمير مجلس الناصري، فنهاه الأمراء العزيزية والناصرية عن ذلك، واستقلوا العسكر المجرد،
فلم يرجع إلى قولهم، وصمم على إرساله، فسار سابق الدين ومن معه حتى قاربوا البيرة،
فصدمهم التتار، فهرب سابق الدين منهم ودخل البيرة، بعد أن قتل أكثر من معه. فكان
ذلك من أكبر الأسباب التي أوجبت القبض على الملك السعيد ثم توجه التتار إلى جهة
حلب، فاندفع الأمير حسام الدين الجوكندار والعسكر الحلبي بين أيديهم إلى جهة حماه،
ووصل التتار إلى حلب في أواخر سنة ثمان وخمسين وستمائة وملكوها، وأخرجوا أهلها
إلى قرنبيا، واسمها قديما مقر الأنبياء، فسماها العامة قرنبيا، فلما اجتمعوا بها بذل التتار
فيهم السيف فقتلوا أكثرهم
وتقدم التتار إلى جهة حماة، ففارقها العسكر الحلبي وصاحبها الملك المنصور إلى حمص،
واجتمعوا هم والملك الأشرف مظفر الدين موسى صاحب حمص، واتفقوا على قتال التتار،
وانضم إليهم الأمير زامل بن أمير العربان، ووصل التتار إلى حمص، والتقوا واقتتلوا في يوم
الجمعة خامس المحرم من السنة فانهزم التتار أقبح هزيمة، وقتل أبطالهم وشجعانهم،
فاستشهدوا فيهم بقول الشاعر:

فإن كان أعجبكم عامكم فعودوا إلى حمص في قابل
فإن الحسام الصقيل الذي قتلتم به يد القاتل

وقد شاهد جماعة كثيرة في هذه الواقعة طيورا كثيرة بيضاء تحوم حال القتال.
حكي عن الأمير بدر الدين محمد القيمري قال: "والله، لقد رأيت بعيني طيورا بيضا وهي
تضرب بأجنحتها في وجوه التتار". وقد ذكر ذلك جماعة كثيرة حتى بلغ حد التواتر، فما
كان بأسرع من انهزام التتار.
قال المؤرخ:
ثم اجتمع من سلم من التتار ونزلوا بسليمة، وعادوا إلى حماة، ورحلوا عنها إلى أفامية،

وكان قد وصل إلى أفامية الأمير سيف الدين الدبيلي الأشرفي ومعه جماعة فأقام بقلعتها
وبقى بغير على التتار، فرحلوا عن أفامية وعادوا إلى حلب، فأخرجوا من بها من الرجال
والنساء ولم يبق إلا من ضعف عن الحركة واختفى خوفا على نفسه، ثم نادوا فيهم: من
كان من أهل حلب فليعتزل. فلم يعلم الناس ما يراد بهم، فظن الغرباء النجاة لأهل حلب،
وظن أهل حلب النجاة للغرباء فاعتزل بعض كل من الطائفتين مع الأخرى بحسب ما أدى
كل منهم اجتهاده، فلما تميز الفريقان أخذ التتار الغرباء وتوجهوا بهم إلى بابلي فضربوا
أعناقهم، وفيهم جماعة من أهل حلب وأقارب الملك الناصر، ثم أعادوا من بقي من أهل
حلب إليها، وسلموا كل طائفة إلى رجل من الأكابر، ثم أحاطوا بالبلد ولم يمكنوا أحدا
يدخل إليه ولا يخرج منه.
ثم فارق التتار حلب في أوائل جمادى الأول سنة تسع وخمسين وستمائة وكان سبب
رحيلهم عنها أن السلطان الملك الظاهر جرد في العشر الأول من شهر ربيع الأول الأمير
فخر الدين الطنبا الحمصي والأمير حسام الدين لاجين الجو كان دار والأمير حسام الدين
العين تابى في عسكر لدفع التتار عن حلب. فلما وصلوا إلى غزة أرسل فرنج عكا إلى
التتار يخبرهم فرجعوا وفارقوا حلب.
ولما رحل التتار عن حلب تغلب عليها جماعة من أحداثها لخلوها من العسكر، منهم نجم
الدين أبو عبد الله بن المنذر، وعلي بن الأنصاري، وأبو الفتح، ويوسف بن معالي، فقتلوا
ونهبوا، وبلغوا أغراضهم ممن كان في قلوبهم منهم ضغائن" فلما قاربوا الأمير فخر الدين
الحمصي والأمير حسام الدين العين تابى، ومن معهما هرب هؤلاء عن حلب. ولما دخلها
الأمير فخر الدين الحمصي صادر أهلها وعذبهم واستخرج منهم ألف ألف درهم وستمائة
ألف درهم بيروتية، وأقام بها إلى أن وصل الأمير شمس الدين أقش البرلي، ففارقها.
الغلاء الكائن بحلب
قال الشيخ شمس الدين بن الجزري في تاريخه: وفي سنة تسع وخمسين وستمائة بعد أن

توجه التتار من البلاد الإسلامية غلت الأسعار بحلب، وقلت الأقوات فبلغ رطل اللحم
سبعة عشر درهما، ورطل السمك ثلاثين، ورطل اللبن خمسة عشر، ورطل الشيرج سبعين،
ورطل الخل ثلاثين، ورطل الأرز عشرين، ورطل الحب رمان ثلاثين، ورطل السكر خمسين،
والحلوى كذلك، ورطل العسل ثلاثين، ورطل الشراب ستين، وجدي الرضيع بأربعين درهما،
والدجاجة بخمسة دراهم، والبيضة بدرهم ونصف، والبصلة بنصف درهم، وباقة البقل
بدرهم، والبطيخة بأربعين درهما، والتفاحة بخمسة دراهم، ولم يذكر سعر الخبز والقمح،
ولعل ذلك لعدمه.
قال: وكانت المكاسب كثيرة والدرهم متيسر الحصول.
اختلاف العزيزية والناصرية
ومفارقة الأمير شمس الدين
أقش البرلي البلاد، وتولية الحلبي نيابة حلب وعزله، وعود البرلي
إليها وخروجه منها، ونيابة البندقدار وعود
البرلي ثانية وخروجه
وفي سنة تسع وخمسين وستمائة، بعد وقعة التتار، اختلف الأمراء العزيزية الناصرية،
وحضروا إلى الساحل، فأعطى السلطان بعضهم الإقطاعات، وحضر الباقون إلى الديار
المصرية، وكان الأمير شمس الدين أقش البرلي مقطعا مدينة نابلس من الأيام المظفرية، فزاده
السلطان بيسان وجعل بمملوكه قجقار عدة نواحي وتوجه إلى دمشق. ثم أمر السلطان
بإمساك الأمير بهاء الدين بغدى الأشرفي فغضب البرلي لذلك، واجتمع معه العزيزية
والناصرية، ونزلوا بالمرج وتوجهوا إلى حلب. وكان السلطان قد استناب الأمير علم الدين
الحلبي بحلب قبل حدوث هذه الواقعة، وأمر جماعة وقرر لهم وظائف وهم: الأمير شرف
الدين قيران الفخري وجعله أستاذ الدار، والأمير بدر الدين جماق وجعله أمير جاندار،
والأمير علاء الدين إيدكين الشهابي وجعله شاد الدواوين.
فتوجه الأمير علم الدين ووصل
إلى حلب في يوم السبت ثالث شعبان من السنة ووصلت مطالعته إلى السلطان يذكر عبوره
إلى حلب، وأن جماعة من العزيزية والناصرية حضروا إليه يطلبون الأمانات. ولما وصل

الحلبي إلى حلب جرد جماعة من العسكر خلف البرلي ومن معه من العزيزية والناصرية،
فعطف عليهم العزيزية والناصرية فهزموهم، فعزل السلطان الحلبي لذلك. وقيل إنه إنما عزله
لأسباب آخر اتفقت أوجبت عزله. ولما عزل الحلبي فارق حلب وعاد إلى دمشق، فحلت
مدينة حلب، فحضر الأمير شمس الدين البرلي إليها وأقام بها، وسير الأمير بدر الدين أيدمر
الحلي رسولا منه إلى السلطان يبذل له الطاعة، فأبى السلطان إلا حضوره إلى الخدمة.
وأقام البرلي بحلب إلى أن وصل السلطان إلى دمشق في سنة تسع وخمسين، فجرد العساكر
إليها ففارقها البرلي وتوجه إلى الفرات، وعاد العسكر وأغار على بلاد أنطاكية، وكان في
العسكر صاحب حمص وصاحب حماة، فأخذت المينا وأحرقت المراكب، وأخذت
الحواصل، وعادت العساكر إلى القاهرة في يوم الخميس تاسع وعشرين شهر رمضان سنة
ستين وستمائة وصحبتهم ما يزيد على مائتين وخمسين أسيرا.
ثم استناب السلطان بحلب الأمير علاء الدين ايدكين البندقدار، فتوجه إليها وأقام بها. ثم
خشي عاقبة عود الأمير شمس الدين اقش البرلي، ففارق حلب وعاد وأقام بحماة واعتذر
أنه إنما فارق حلب لشدة الغلاء وعدم الأقوات.
وكان الأمير شمس الدين البرلي قد أرسل إلى السلطان الأمير علم الدين جكم بكتبه يسأله
للصفح، فلما فارق البندقدار حلب عاد البرلي إليها وكتب إلى السلطان يعتذر من رجوعه
إلى حلب، وأنه ما رجع إلا طائعا، وأن الأمير علاء الدين انفضل عن حلب اختيارا منه،
ولو أقام لما قصده أحد، وتوالت كتبه بالاعتذار واستأذن في توجهه إلى الموصل، والسلطان
يغلظ له تارة ويلين أخرى.
ثم جرد السلطان عسكرا صحبه الأمير شمس الدين سنقر الأشقر نجده لصاحب
الموصل، وانفق فيهم الأموال. فلما اتصل الخبر بالأمير شمس الدين البرلي توجه إلى سنجار
والتقى التتار وقاتلهم قتالاً شديدا. وكان معه نحو ألف فارس وهم في جموع كثيرة فلم
تساعده المقادير، وذلك إنه سقط عن فرسه فانكسرت رجله فركبه أحد مماليكه وساق

يوما كاملا ولم يعلم من معه أن رجله كسرت، ثم كان من أمره ما نذكره، إن شاء الله تعالى
هذا ما اتفق بالشام وحلب.
ما اتفق للسلطان بالشام في مدة مقامة بدمشق
وما وقع في سفرته هذه خلاف ما قدمنا ذكره من أمر الخليفة
من ذلك أنه لما وصل إلى دمشق وصل إلى خدمته الملك المنصور صاحب حماة، والملك
الأشرف صاحب حمص والرحبة، فتلقاهما وأكرمهما وأنعم عليهما بخيل النوبة والعصائب
وشعائر السلطنة، وركب كل منهما بمفرده والأمراء مترجلون في خدمته، وكتب لهما
التقاليد، وزاد الملك الأشرف تل باشر والملك المنصور بلاد الإسماعيلية، وتوجه إلى
بلادهما.
ومن ذلك أن أمراء العريان حضروا إلى خدمة السلطان فأنعم عليهم ووصل أرزاقهم،
وسلم إليه خفر البلاد، وألزمهم حفظها إلى حدود العراق.
ومن ذلك أنه فوض نيابة السلطنة بالشام إلى الأمير الحاج علاء الدين طيبرس الوزيري،
وكان قبل ذلك بنيابة قلعة دمشق، والأموال.
ركوب السلطان إلى الميدان بدمشق.
ولعب بالكرة ومن كان في خدمته من الملوك.
وقال المولوي محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر في السيرة الظاهرية ولعب السلطان في
ميدان دمشق، فرأيت في خدمته جماعة من الملوك وهم: الملك الصالح صاحب الموصل
والملك السعيد والملك المسعود وأولاد الملك الصالح عماد الدين إسماعيل الملك المجاهد
صاحب الجزيرة، "و" الملك المظفر صاحب سنجار، "و" الملك علاء الملك. "و" الملك
الأشرف صاحب حمص ، "و" الملك الزاهر أسد الدين، "و"الملك المنصور صاحب حماة،
"و" الملك الأمجد تقي الدين بن الملك العادل سيف أبي بكر بن أيوب، "و" الملك المنصور،
"و" الملك الأمجد وأخوته أولاد الملك الناصر داود، "و" الملك الأشرف بن ولد أقسيس
"و"الملك القاهر بن الملك المعظم، جماعة كثيرة منهم.
قال: وهذا ما لا رآه ملك آخر.
الصلح مع ملوك الفرنج
لما توجه السلطان إلى الشام سير سيرجوان ديكين، كند يافا، يبدل الطاعة، ولما وصل

السلطان إلى العوجا سأل الأمان للحضور إلى الدهليز، فتوجه الأتابك إليه وأحضره إلى
السلطان. فأكرمه وكتب له منشورا ببلاده ورده إلى بلده.
قال: ثم وردت رسل ملوك الفرنج يهنون السلطان بالسلامة ومعهم الإقامات الكثيرة.
فلما وصل السلطان إلى دمشق حضر رسول من عكا يسأل أمانا للرسل المتوجهون من
ساير البيوت. فكتب إلى متولي بانياس بتمكينهم؛ فحضر أكابر الفرنج والتسموا الصلح،
فتوقف السلطان واشترط شروطا كثيرة فتوقفوا فأهانهم وزجرهم. وكان العسكر قد
توجه للإغارة على بلاد الفرنج من جهة بعلبك، فسألوا في رجوعه وتقرير الصلح على ما
كان الأمر إلى آخر الأيام الناصرية وإطلاق الأسرة، من حين إنفصال الأيام المذكورة إلى وقت
هذه الهدنة. وتوجهت الرسل معهم لأخذ العهود عليهم.
وكذلك تقررت الهدنة لصاحب يافا ومتملك بيروت على حكم الأيام الناصرية، وآمنت
السبل وكثرت الأجلاب.
وشرع السلطان في جمع الأسارى وسيرهم إلى مدينة نابلس حفظاً للعهود، والفرنج
يكاسرون في أمر الأسارى. فلما طال ذك رسم السلطان بنقل الأسارى إلى دمشق
واستعمالهم في العمائر بقي الحال موقوفا.
الغارة على العرب والفرنج
قال: ولما وصل السلطان إلى الشام جرد الأمير جمال الدين المحمدي، وجرد معه جماعة من
العسكر المنصور، ورسم لهم بالإغارة على بلدة الفرنج فتوجهوا ونهبوا وكسبوا، وعادوا
ساطين.
وجرد جماعة من البحرية وكتم خبرهم. وكان السلطان بلغه أن جماعة من عرب زبيد قد
كثر فسادهم وأنهم مخالطون الفرنج وموافقوهم في الباطن ويدلونهم على عورات المسلمين؛
فساق البحرية إليهم وانتهبوا أموالهم وقتلوا منهم وذبحوا جماعة كثيرة، وكفا الله الإسلام
شرهم.
وفي هذه السنة والسفرة، عزل السلطان القاضي نجم الدين بن قاضي القضاة صدر الدين
بن سنى الدولة عن القضاء بدمشق، وفوضه للقضاة شمس الدين أحمد بن بهاء الدين محمد

بن إبراهيم بن خلكان البرمكي من العريش إلى سليمة، وفوض إليه النظر في جميع الأوقاف
بالشام، منها الجامع والبيمارستان والمدارس وغير ذلك؛ وفوض إليه تدريس سبع مدارس
وهي: العادلية، والعذراوية، والناصرية، والفلكية، والركنية، والإقبالية، والبهنسية، وكان
تدريس هذه المدارس بيد القاضي نجم الدين المعزول؛ ووكل بالقاضي نجم الدين وأمره أن
يتوجه إلى الديار المصرية. وكان مذموم السيرة في ولايته. ذكر الشيخ شهاب الدين أبو شامة
جملة من معانيه.

عود السلطان إلى الديار المصرية

قال: ولما استقرت هذه الأمور عاد السلطان إلى الديار المصرية، وكان وصوله في يوم
السبت سابع عشر ذي الحجة سنة تسع وخمسين وستمائة.

أخذ الشويك

كان السلطان قد جهز الأمير بدر الدين الأيدمري وصحبته جماعة من العسكر وما أعلم
أحدا ممن جرد بالجهة التي يتوجهون إليها؛ فتوجه إلى الشويك وبذل المال والخلع فسلمت
إليه. ووصل الخبر بتسليمها في سادس عشرين ذي الحجة من السنة. وولى نيابتها الأمير
سيف الدين بلبان المحتصبي، واستخدم بها النقباء والجاندارية، وأفرد لخاص القلعة ما كان
لها إلى آخر أيام الصالحية النجمية.

وفي هذه السنة، كانت وفاة الصاحب صفي الدين أبي إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن
هبة الله بن أحمد بن مرزوق العسقلاني، وكان قد وزر للملك الأشرف ابن الملك العادل
بدمشق مدة، ثم عزل بجمال الدين بن جريد، وكان تاجرا مشهورا بالثروة وكثرة الأموال.

وكان ابتداء أمره كما حكي عنه أنه حكاه عن نفسه قال: أرسلني والدي إلى القاهرة من
مصر لأبتاع له قمحا، وكان له طاحون بمصر، فتوجهت إلى دار بعض الأمراء فاشتريت ألف
أردب بخمسة آلاف درهم، وتسلمتها، وبت في تلك الليلة بالقاهرة وأصبحت فتحسن
سعرها فبعتها في سبعة آلاف، فأوفيت الثمن، وأخذت ما بقي وصرفت به مائة وثلاثين
دينارا. وأتيت والدي فسألني عن القمح، فقلت: بعته، فقال: ولم لا أتيت به؟ فقلت له:

إنك لم ترسل معي الثمن حتى ولم تعطني دابة أركبها، وعندك عشرين دابة، وما هان عليك
أن أركب منها دابة. وكنت قد مشيت من مصر إلى القاهرة فحقدت ذلك عليه. قال: ثم
اتجرت في ذلك المال الذي ربحته من ثمن القمح فبارك الله لي فيه حتى جمعت منه ستمائة
ألف دينار عينا، غير ما اشتريت من العقار والأثاث والخدم والدواب والمسفر وغيره.
وكانت وفاته بمصر ودفنه بسفح المقطم. ومولده في شهر رجب سنة سبع وسبعين
وخمسمائة. رحمه الله تعالى.
وفيها توفي الأمير مظفر الدين عثمان بن ناصر الدين منكورس بن بدر الدينم خماردكين،
وهو صاحب صهيون، وجده عتيق الأمير مجاهد الدين صاحب صرخد.
وكانت وفاته في ثاني عشر شهر ربيع الأول سنة تسع وخمسين وستمائة بقلعة صهيون
ودفن بها، وولى بعده ولده سيف الدين محمد. وكان هو قد ولى صهيون بعد وفاته والده
ناصر الدين منكورس في سنة ستة وعشرين وستمائة. وخلف الأمير مظفر الدين من
الأموال ما لا يحصى كثره. حكى الشيخ شمس الدين بن الجزري في تاريخه قال: حكى لي
الصاحب مجد الدين إسماعيل بن كسيرات الموصلي قال: كان مظفر الدين صاحب صهيون
يحلس في كل يوم في باب القلعة ويأخذ قطعاً من الشمع ويختم عليها بختامه، فمن كان له
دعوة على خصمه أو محكاكمة جاء إليه وأحضر معه شيئاً من المأكول فيضعه في الدركاه
بين يدي الأمير مظفر الدين، ويأخذ قطعة من ذلك الشمع المختوم ويتوجه إلى خصمه ويقول
هذا ختم السلطان، فيأخذ الخصم معه شيئا ايضا ويحضر إلى بين يديه فيحكم بينهما
بنفسه. قال: فسألته عن مقدار ما يحضره الواحد منهم. قال: يأتي كل واحد بحسبه من
الرأس الغنم إلى خمس بيضات. ومات وقد ناف على تسعين سنة، رحمه الله.
وفيها توفي الحافظ أبو عبد الله محمد بن عبد الملك بن عيسى بن درياس المارداني
الشافعي، وكانت وفاته بالقاهرة في يوم السبت سادس شوال، ودفن من يومه بسفح المقطم.

ومولده في ليلة الثلاثاء ثاني عشرين شهر ربيع الأول سنة ست وسبعين وخمسمائة، رحمه
الله تعالى.
واستهلت سنة ستين وستمائة
وفي هذه السنة، في ثالث عشرين المحرم، أعرس الأمير بدر الدين بيليك الخزندار الظاهري
نائب السلطنة الشريفة على ابنة الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل كان، وكان
عقد النكاح قد عقد في ثالث عشر شوال سنة تسع وخمسين وستمائة، وذلك أن السلطان
قد استدعى الملوك أخوتها في اليوم المذكور وعرفهم مكانه الأمير بدر الدين منه، وأن محله
محل الولد، وخطب أختهم له، فأجابوا إلى ذلك وعقد النكاح.
وملكه السلطان في ذلك
اليوم بانياس وقلعتها بالبيع الشرعي. ثم كان البناء بها في هذه السنة، وعمل العرس
بالميدان الأسود. واحتفل السلطان به احتفالا عظيما، وفوض إليه بعد أيام قلائل النظر في
أمر الجيش: يقطع الإقطاعات ويزيد وينقص؛ وفوض إليه أمر الرعاية وكشف ظلاماتهم
وغير.
وفيها، حصل الصلح بين السلطان والملك المغيث صاحب الكرك، وكان ولده الملك العزيز
في الاعتقال من الأيام المظفرية. فإن والده كان قد سيره إلى هولاكو كما ذكرنا فاتفق عوده
إلى دمشق عند دخول الملك المظفر إليها، فأمر بإرساله إلى قلعة الجبل واعتقاله بها.
فأطلقه السلطان الآن، وأقطعه دبنان بمنشور، وحلف السلطان لأبيه ثم بعد ذلك سير
السلطان له سنجقا وشعائر السلطنة، فقبل عقب الصنجق وركب بشعائر السلطنة وفيها،
انتصب السلطان لعرض العساكر بنفسه وحلف الناس لولده الملك السعيد ناصر الدين بركة
خاقان، فحلفوا له، وسيرت نسخ الإيمان إلى القلاع والممالك والناس بأجمعهم.
الأمير شمس الدين سلار
البغدادي
وفي نصف شهر رجب سنة ستين وستمائة وصل الأمير شمس الدين سلار البغدادي من
العراق إلى الديار المصرية، وكان رجلا تركيا من قبيلة دروت وهو من مماليك الخليفة

الظاهرة بأمر الله أبي نصر محمد بن الناصر لدين الله. ولاه واسط الكوفة والحلة. فأقام به
في الأيام الظاهرية والمستنصرية والمستعصمية. فلما استولى هولاكو على بغداد وقتل
الخليفة، اجتمع سلار هذا وصاحب شستر ومن أنضم إليهما، وقاتلوا التتار قلم يكن لهم
بهم طاقة لكثرة التتار فتوجه إلى برية الحجاز فأقام بها نحوا من ستة أشهر ثم راسله هولاكو
وكتب له فرمانا بإفراده على ما كان عليه في الأيام المستعصمية، فحضر إليه فأقره، فلما
أفضت السلطنة بالديار المصرية إلى السلطان الملك الظاهر كاتبه السلطان، وطلب منه
الوصول إليه مرة بعد أخرى فتقرر حضوره إليه وتأخر ذلك إلى أن يتحمل لنفسه ويجمع
أمواله فاتفق أن السلطان تحدث على قليج البغدادي في بعض الأيام فقال له السلطان:
خوشداشك سلار يصل إلينا؟ فقال: هذا لايتصور وقوعه، لأن سلار من الملوك بالعراق،
فكيف يفارق ما هو فيه ويحضر إلى هذه البلاد؟ فقال السلطان متى لم يحضر برضاه
أحضرته بغير رضاه. وبعث قاصدا يكتب إليه على أنها أجوبة كتبه، نوبعث قاصدا آخر
وقال له: إذا قربت من الأردو فاقتل هذا القاصد واتركه وما معه، ففعل ذلك فلما قتل
القاصد وجده القراؤل، فأحضروه إلى هولاكو فقرأ ما معه من الكتب فوجدت أجوبة
سلار. وكان بمقام هولاكو جماعة من أولاد مماليك الخليفة أخذهم لنفسه وجعلهم خواصا
عنده، فسيروا إلى سلار في الوفت يعلمونه الخبر، فعلم أنها مكيدة، ورسم هولاكو بطلبه إلى
الأردو فوصل إليه قبل ورود مرسوم هولاكو بطلبه. وكان حال وصول الخبر إليه يتصيد،
فعلم أنه متى وصل إلى هولاكو قتله، فساق لوقته إلى أن وصل إلى الديار المصرية. وترك
جميع أمواله وذخائره وأهله وأولاده. وما وصل أكرمه السلطان وعامله بإحسان كثير،
وأنزله بالكبشن وأمره طبلخانا، وأقطعه منية بني خصيب. فقال للسلطان: لقد ضيع
السلطان على المسلمين أموالاً عظيمة، فإنك لو تركتني حتى أحضر بما جمعته من الأموال
والذخائر انتفع بيت المال به، فإني جمعت خراج سنتين، فقال له السلطان: إنما كان قصدي

حضورك،ولم أقصد الأموال. ولا تجلس بين يدي. السلطان لا يرفع أحدا عليه. ثم جرده
السلطان في مقابلة الفرنج بساحل عكا، فكتب إلى السلطان يسأله أن يقيم بالشام فأقطعه
نصف "مدينة" نابلس، وأقام ستة أشهر ثم أعاده "السلطان" إلى الديار المصرية وكان
السلطان قبل وصول سلار البغدادي قد اعتقل الأمير سيف الدين قليج لأمر صدر منه،
فأطلقه السلطان بغير شفاعة، وأحسن إليه وأعاده إلى الأمرة ولعب معه الكرة.
عود رسل السلطان من جهة الأنيرور
وفي شعبان سنة ستين وستمائة، وصل الأمير سيف الدين الكرزي، والقاضي أصيل الدين
خواجة إمام، وكان السلطان بعثها إلى الأنبرور، وذكرا أن الأنبرور اهتم بأمرهما اهتماما
عظيما، وأنه أحضرهما ساعة وصولهما وعرضت عليه الهدية، وكان في جملتها زرافة
فأعجبته إعجابا عظيما، وشاهد التتار الذين سيروا إليه "ذلك"، وذكرا أنه جهز رسولا
وهدية تحضر فيها بعد.
وكان في جملة رسله إلى السلطان نفران من البحرية، فلما وصلا، أمر السلطان بتأديبهما لما
بلغه من سود اعتمادهما، وسيرهما إلى قلعة الجزيرة يعملان فيها.
عود رسل السلطان من جهة صاحب الروم ووصل رسله
إلى السلطان ما قرره السلطان من بلاده.
وفي هذا الشهر، وصل الأمير شرف الدين الجاكي، والشريف عماد الدين الهاشمي. وكان
السلطان قد سيرهما إلى السلطان عز الدين كيكاوس بن كيخسرو صاحب الروم ووصل
صحبتهما الأمير ناصر الدين نصر الله بن كوح رسلان أمير حاجب، والصدر صدر الدين
الخلاطي رسولان منه، ومعهما كتابا إلى السلطان يذكر أنه نزل للسلطان عن نصف بلاده،
وسير درجا فيها علائم بما يقطع من البلاد لمن يختاره السلطان ويؤمره "وسأل أن" يكتب له
من جهته منشورا قرين منشور صاحب الروم. فلما وصل الرسل إلى السلطان أكرمهم
وجهز جيشاً نجدة لصاحب الروم. وأمر بكتب المناشير، وعين الأمير ناصر الدين أغلمش
السلاح دار الصالحي لتقدمه الجيش، وعين له ثلاثمائة فارس، وأقطعه في الروم، وكتب للأمير

ناصر الدين الرسول المذكور منشورا بثلاثمائة فارس وأقطعه أمد وأعمالها، وتقرر سفره
صحبة العسكر، وأن يتوجه صدر الدين رفيقه في البحر صحبة رسل السلطان. ووقع
الاهتمام في كتب المناشير وتجريد الأمراء من الشام وحلب.
وفي شهر رجب من السنة، وصل الأمير عماد الدين ولد الأمير مظفر الدين صاحب
صهيون رسولا من جهة أخيه الأمير سيف الدين، وصحبته الهدايا الحسنة. فأحسن
السلطان إليه وكتب له منشورا في بلاد حلب بثلاثين فارسا، وكتب له منشورا آخر في بلاد
الرومية بمائة طواش.
وفي هذه المدة ورد كتاب صاحب الروم يذكر أن العدو لما بلغهم إتفاقه مع السلطان ولوا
هاربين، وأنه سير إلى قونية يحاصرها ليأخذ من بها من أصحاب أخيه.
وفي هذا التاريخ، وصلت كتب الأمير علاء الدين الخزندار مقدم العسكر المتوجه إلى
الصعيد بسبب العربان عندما قتلوا الأمير عز الدين الهواش متولي الأعمال القوصية يذكر
تبديد شملهم وأبادتهم وأنه أراح المسلمين من فسادهم.
وفي شعبان منها توالى وصول جماعة ممن كان صحبة الأمير شمس الدين أقش البرلي من
العزيزية والناصرية، فأحسن السلطان إليهم، ولم يأخذهم بما كان منهم
عود رسل السلطان من جهة الأشكري
وخبر مسجد القسطنطينية
وفي هذه السنة، وصل الأمير فارس الدين أقش المسعودي الذي كان توجه رسولا إلى
الأشكري، وكان الأشكري، قد سير رسولا إلى السلطان يلتمس بطركا للنصاوى الملكيين
فعين لذلك الرشيد الكحال، وسير إليه صحبه الأمير فارس الدين المذكور، فأكرمه
الأشكري وأكرم من صحبه من الأساقفة وصادف وصولهم إلى الأشكري فتح
القسطنطينية فركب يوما ليفرج فارس الدين المذكور فيها وفي عمارتها. فمر بمكان وقال:
هذا جامع، وقد أبقيته ليكون ثوابه للسلطان، فلما سمع السلطان هذا الخبر استبشر به
وفرح فرحا عظيما. وأمر لوقته بتجهيز الحصر العبداني والقناديل المذهبة والستور المرموقة
والسجادات والمباخر والعنبر والعود وللمسك وماء الورد.

وهذا المسجد كانت عمارته في سنة ست وتسعين للهجرة.
وكان قد وقع الصلح مع الروم
على أن يبني بها مسجد جامع فبنى. ولما طالت المدة جعلوه
حبسا. وقيل: أن الصلح
كان قد تقرر على أن يبني مسجد قدر جلد بعير، وتقررت العهود
على ذلك فعمد
المسلمون إلى جلد بعير فقدروه سيورا ومدوها. فأنكر ذلك
فقال المسلمون: هذا جلد
بعير، لم نزد عليه شيئا، وعليه وقع الاتفاق. فسكتوا وقيل: إن
بانيه مسلمة بن عبد الملك
في أيام أخيه الوليد. والله أعلم.
حضور الأمير شمس الدين أقش البرلي العزيزي إلى الديار
المصرية
قد ذكرنا من أخباره وتردده إلى حلب وقاتله التتار في سنة تسع
وخمسين وستمائة ما
قدمناه
قال المؤرخ: ولم يزل السلطان يكاتبه ويرغبه ويعطيه العهود
والمواثيق على الوفاء، وسير إليه
الأمير بدر الدين بكتاش الفخري في رسالة، وشافهه باليمن،
فقال له الأمير شمس الدين "قد
جاءتني رسالة هولاكو يطلبني إليه، وحلف لي. وهذه رسالة
السلطان ويمينه، وأتاه، والله
"أعلم أنه هولاكو يفي، وأن السلطان لا يفي" وكان أولاده
وأهله بالقاهرة فترجح عنده
الحضور فحضر، ولما وصل إلى دمشق كتب السلطان إلى
النواب بخدمته وترتيب الإقامات
له في جميع الطرقات والمنازل إلى أن يصل إلى القاهرة وكان
متمرضا من جراحة في رجله
فجهز إليه الأدوية واهتم بأمره اهتماما عظيما، وكان وصوله إلى
القاهرة في ثاني ذي الحجة
سنة ستين وستمائة، فركب السلطان لتلقية وحمل إليه من
الأموال والأقمشة والخلع والخيول
وآلات البيوتات ما لا يكون مثله إلا لملك. ولم يترك شيئا مما
يحتاجه الأمراء إلا سيره إليه.
وكتب له منشورا بستين فارسا، وأعطاه طبلخاناه، وأمر من
صحبة من الأمراء. وأعطى
كل واحد منهم بحسب حاله. قال: ولما استقر أرسل إلى
السلطان يسأله زيادة في الشام أو
في نابلس أو في بلاد الصلت أو بعلبك أو حران، وينزل عن
البيرة، ويقول: إن قدرته تعجز
عن حفظها، فشكره السلطان ولم يقبل البيرة منه. وقال: "أنا
أرجو لك الزيادة" وصار

السلطان يقربه فيسايره إذا ركب، ويستشيره إذا جلس، ويساهمه في كل شيء حتى فيما
يكون بين يديه من الطرف، ولازمه حتى لم يفارقه صيد ولا غيره، ثم جدد السؤال في قبول
البيرة، فقبلها السلطان منه وأعطاه الرها وغيرها، وأمر مماليكه. وسافر في صحبة
السلطان إلى الطور ثم قبض عليه لأسباب نذكرها، إن شاء الله تعالى.

القبض على علاء الدين طيبرس
الوزيري نائب السلطنة بالشام

وفي سنة ستين وستمائة، بلغ السلطان عن الأمير الحاج علاء الدين طيبرس الوزيري النائب
بدمشق أمور أنكرها عليه، فسير الأمير عز الدين الدمياطي، والأمير علاء الدين أيدغدي
الحاج الركني فتوجها من الديار المصرية في شوال،ودخلا إلى دمشق في ثالث ذي القعدة.فلما
خرج إليهما ليتلقاهما ووصل إلى الأمير عز الدين الدمياطي أهوى ليكارشه على ما جرت
العادة به في السلام، فقبض الدمياطي بيده على عضد طيبرس وبيده الأخرى على سيفه،
وأنزل عن فرسه وركبوه بغلا، وقيد وأرسل إلى السلطان ووقعت الحوطة على أمواله
وحواصله بدمشق، وكان قد سير جملة منها مع العرب. وكان طيبرس قد أساء السيرة في
أهل دمشق، وضيق عليهم، وتسلم الأمير علاء الدين الركني دمشق ينظر فيها إلى حين
حضور نائب مستقل.

ومن عجيب ما وقع في القبض عليه ما حكاه شمس الدين الجزرى في تاريخه عن الرشيد
فرج الله كاتب البيرتات بدمشق، قال: لما وصل الأمراء الذين قبضوا على طيبرس إلى
الكسوة طلبني وقال:جهز سماطا جيدا لهؤلاء الأمراء، وأحضره أنت بنفسك واحترز
عليه، فأنا لا أحضره. قلت: لأي سبب يتأخر مولانا عنه؟ فأسر إلي وقال: إن هؤلاء
جاءوا ليقبضوا على قبل دخولهم إلى دمشق. فقلت: يكفيك الله، وبكيت. فقال: هذا
أمر لا بد منه، فأبصر أنت كيف تكون. فخرجت من عنده، وجهزت السماط كما رسم،
وكان من قبض ما تقدم قال الرشيد: فدخلت يوما على الأمير علاء الدين الركني وهو يحكم
بدمشق، فسألني عن أشياء تتعلق بالديوان والسماط.

الأمير علاء الدين طيبرس الوزيري
وأثنى عليه خيرا،فوجدت مجالا للكلام، فذكرت له هذه الحكاية.
فقال لي: أنا أحكي لك
أعجب من هذا: بينا أنا في داري بالقاهرة في وقت القايلة وإذا برسل السلطان تستدعيني
إليه، فما شككت حين طلبني في غير الوقت المعتاد أنه يقبض علي. فأوصيت استاداري
بما يعتمده، وودعت أهلي، وركبت إلى القلعة،فوافيت الأمير عز الدين الدمياطي وقد طلب
كما طلبت، فتحققنا جميعا إننا نمسك، ثم دخلنا على السلطان فوجدناه في خلوة، فلما
أقبلنا عليه نهض قائماً، و أكرمنا فقبلنا الأرض بين يديه وزال عنها ما كنا نجده، ثم أمرنا
بالقرب منه، فتقد منا حتى التصقت ركبنا بركبتيه،
ثم أخرج من جيبه ختمة واستحلفنا أننا لا نذيع له سرا، وأن نفعل ما يأمرنا به، فحلفنا،
فلما تمت اليمين قال: تتوجه الساعة إلى دمشق وتستصحبا معكما العسكر المقيم بغزة،
وتمسكوا علاء الدين طيبرس نائب الشام، وتكون أنت مكانه، وإن سمعت هذا الحديث من
أحد من خلق الله تعالى قبل أن تفعلاه شنقتكما، فخرجنا من عنده فلما صرنا تحت
القلعة إذا بحرفوش يقول لآخر: هؤلاء رايحين إلى دمشق يقبضوا على طيبرس نائب السلطنة
بها، فأصفر عند ذلك لوني ولون الدمياطي، وحلفنا جميعا لا نصل إلى بيوتنا، وقال كل منا
لا ستادداره أن يلحقه بهجين وجنيب إلى البئر البيضاء وسقنا من وقتنا إليها. فلحقنا
غلمائنا وما نحتاج إليه بعد العصر، واستمر بنا السير حتى نفذنا أمر السلطان. وهذا
شيء أجراه الله تعالى على ألسنة عوام مصر، لا ينطقون بشيء في غالب الأوقات إلا
ويكون كذلك.
وصول جماعة من التتار إلى خذمة السلطان
قال المؤرخ: كان السلطان قد جهز كشافة من الأمراء وهم، جمال الدين أقش الرومي
السلاح
دار من الخواص ومعه الخيول الجياد، ثم جهز الأمير علاء الدين أفسنقر الناصري، وكتب
إلى الشام بأردافهم، وأرسل أمراء العربان فساقوا إلى حدود العراق. وكانت الأخبار من

جهة القصاد قد وردت أن هولاكو جمع جمعا كبيرا ولم يعلم قصده، فاحترز السلطان وسير
هذه الكشافة. فأمسكوا من وسط التتار جماعة، واستطلعوا منهم الأخبار، وكانوا
مسلمين، فأطلقهم الأمير علاء الدين. ولما توالت الأخبار بحركة هولاكو عمل السلطان
بالحزم، وتقدم إلى أهل دمشق بالحضور بأهاليهم لتخف ظهورهم وترخص الأسعار فحضر
منهم جماعة كثيرة.

وكتب إلى النواب بحلب بحريق الأعشاب، وسير جماعة إلى بلاد آمد ومواضع الأعشاب
فأحرقوا من المروج مسيرة عشرة أيام، وكذلك أعشاب بلاد خلاط حتى صارت كلها
رمادا. ثم ورد كتاب الأمير الحاج علاء الدين أقسنقر الناصري أن الكشافة وجدوا جماعة
كثيرة من التتار مستأمنين وافدين إلى باب السلطان، وأنهم من أصحاب الملك بركة، وكانوا
نجدة عند هولاكو، فلما وقع بينهما كتب الملك بركة إليهم بالحضور إليه وإن عجزوا
ينحازوا إلى عسكر الديار المصرية وأنهم يذكرون أن العداوة قد استحكمت بين الملكين
هولاكو وبركة، وأن ولد هولاكو قتل في المصاف، وأنهم فوق مائتي فارس، فكتب السلطان
إلى نواب الشام بإكرامهم وترتيب الإقامات لهم في الطرقات وحمل الخلع إليهم وإلى نسائهم،
وأحسن إلى مقدميهم الأربعة، فوصلوا يوم الخميس رابع عشرين ذي الحجة سنة ستين،
وخرج السلطان للقائهم يوم السبت السادس والعشرين من الشهر. وكان السلطان قد رسم
بعمارة أدر ومساكن لهم بقرب اللوق، فسكنوها، فحملت إليهم الخلع وسيقت الخيول،
وفرقت فيها الأموال، ولعبوا الكرة مع السلطان، وأمر أكابرهم بمائة فارس فما دونها، ونزل
بقيتهم في جملة بحريته ومماليكه، وأفردت لهم جهات يستخرج منها مرتبهم. وأسلموا
وحسن إسلامهم. وبلغ التتار ما نال هؤلاء من الإحسان وما شملهم من الأنعام فتوافدوا
جماعة بعد جماعة، والسلطان يعتمد مع كل من يحضر منهم مثل ما اعتمد مع من قبلهم.
إنفاذ الرسل إلى الملك بركة

قال: ولما وصلت جماعة التتار إلى السلطان، واستطلع منهم الحال وعرف أحوال الملك
بركة ومقامه والطريق إليه جهز إليه رسله وهم: الأمير سيف الدين كشربك وهو رجل
تركي كان جمدار السلطان خوارز مشاه يعرف البلاد واللغات،والفقيه مجد الدين
الروذراورى، وسير صحبتهم نفرين من التتار الذين وصلوا إليه من أصحاب الملك بركة.
وكتب على أيدي الرسل كتابا يستميله ويحثه على الجهاد، ويصف العساكر الإسلامية
وكثرتهم وعدة أجناسهم من الترك وعشاير الأكراد وقبائل العربان ومن أطاعها من الملوك
الإسلامية والفرنجية، ومن خالفها، ومن وافقها، ومن هاداها وهادنها، وأن جميعها في
طاعته وسامعه لإشارة إلى غير ذلك من الإغراء بهولاكو وتهوين أمره وتقبيح الغفلة عنه،
وأعلمه بوصول من وصله من التتار وادعائهم أنهم من أصحابه، وأن الإحسان إليهم إنما
هو من أجله. وكان الخليفة الحاكم بأمر الله قد حضر وبويع بحضور الرسل وكتب نسبته
وأذهبت وأشهد على ثبوت نسبه، وسير ذلك إلى الملك بركة.
وزود الملك الظاهر الرسل
لمدة شهور، وتوجهوا في المحرم سنة إحدى وستين. ووصلوا إلى بلاد الأشكري فأحسن
إليهم وصادف وصولهم وصول رسل الملك بركة إلى الأشكري، فسيرهم صحبتهم ورجع
الفقيه مجد الدين لمرض حصل له، وتوجه الرسل صحبة رسل الملك بركة: الأمير جلال
الدين والشيخ نور الدين علي، ووصلت كتب الأشكري أن رسل السلطان توجهوا سالمين.
تفويض نيابة السلطنة بالشام إلى الأمير
جمال الدين النجيبي الصالحي
قال: ولما تسلم الأمير علاء الدين الركني مدينة دمشق على ما قدمناه اختار السلطان
الأمير جمال الدين أقش النجيبي الصالحي لنيابة السلطنة بدمشق، وجهز معه الصاحب عز
الدين عبد العزيز بن وداعة وزير الشام. وكان قد حصل بينه وبين الأمير علاء الدين
طيبرس مفاوضات أوجبت حضوره إلى الباب السلطاني صحبة الركاب الشريف فرسم
بعوده على وظيفته.

وفي هذه السنة في ذي القعدة، خرج أمر السلطان لقاضي القضاة تاج الدين أن يستنيب
نوابا من المذاهاب الثلاثة، فاستناب القاضي صدر الدين سليمان الحنفي، والشيخ شرف
الدين عمر السبكي المالكي، والشيخ شمس الدين الحنبلي.
وفيها: اشتد الغلاء بالشام، وأبيعت غرارة القمح بأربعمائة وخمسين درهما، والشعير بمائتين
وخمسين، وأبيع القمح بحماة عن كل مكوك أربعمائة درهم، ثم غلت سائر الأصناف، ومات
خلق كثير من الجوع.
وفيها: في ذي الحجة ظهر بالقاهرة عند الركن المخلق معبد وفيه حجر مكتوب عليه هذا
مسجد موسى بن عمران عليه السلام، فجددت عمارته. وهو إلى الآن يعرف بمعبد
موسى.
وفاة شيخ الإسلام عز الدين
أبي محمد
ابن عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم
ابن الحسن بن أبي محمد السلمي الدمشقي
الشافعي وشيء من أخياره
كانت وفاته، رحمه الله تعالى، بالمدرسة الصالحية النجمية بالقاهرة المعزية، في يوم السبت
قبيل العصر من جمادى الأول سنة ستين وستمائة، ودفن يوم الأحد قبل الظهر بسفح
المقطم. ومولده تقريبا في سنة سبع أو ثمان وسبعين وخمسمائة، وولي من المناصب الدينية
بدمشق: تدريس زاوية الغزالي، وخطابة الجامع الأموي. وولي بالديار المصرية: القضاء
بمصر والوجه القبلي، وخطابة جامع عمرو بن العاص، وتدريس المدرسة الصالحية بالقاهرة،
والنظر في عمارة المساجد بالقاهرة ومصر. وكان، رحمه الله تعالى، أحد أئمة المسلمين،
إليه انتهت الفتيا في زمانه، وصنف التصانيف المشهورة، منها: الإمام في أدلة الأحكام،
وقواعد الفقه الكبرى، والوسطى، والصغرى، والغابة في اختصار النهاية، وجمع بين الحاوي
والنهاية، واختصر الشامل لابن الصباغ، واختصر الكشاف، واختصر تفسير ابن عباس
والماوردي، وفسر سورة البقرة في مجلدة، وفسر من سورة يس إلى سورة الناس، واختصر
صحيح مسلم في مجلدين، وعمل عليهما حواشي مفيدة، واختصر الرعاية، وصنف في

الزهد شجرة المعارف، وغير ذلك من التصانيف المفيدة. وكان، رحمه الله، كثير الزهد
والإيثار، لا يعتني بالملابس، ولا يكترث بها، ولا تأخذه في الله لومة لائم ولا يخشى سطوة
ملك، لم يزل يصدع الملوك بمر الحق، ويفتي بحكم الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم،
وإن خالف ذلك آراء الملوك واعتقادهم، وكرهوه منه، ونهوه عنه فلا يرجع عما علمه،
ويطلب المناظرة عليه. واتفقت له وقائع مع الملوك راموا فيها قتله، فحماه الله تعالى منهم،
وهي وقائع تدل على صلابة دينه، وحسن يقينه، وتمسكه من السبب الأقوم بمتينه. منها:
واقعته مع الملك الأشرف مظفر الدين موسى ابن الملك العادل صاحب دمشق في مسألة
الكلام. وكان الملك الأشرف قد صحب جماعة من مبتدعة الحنابلة من صغره ممن يقول
بالحرف والصوت، فاستمالوه إلى مذهبهم وقرروه عنده حتى أمتزج بلحمه ودمه، واعتقد
كفر من يعتقد خلافه وأنه مباح الدم. وكان في ابتداء سلطنته يميل إلى الشيخ عز الدين لما
يبلغه عنه، وقصد حضوره إليه، والشيخ يأبى ذلك ويمنع منه ولا يجيب إليه. فألقى إلى
السلطان من صحبه من الحنابلة أن الشيخ مخالف لرأيه مباين لمذهبه، وأنه يقدح فيمن
يعتقده ويذمه ويسبه، فاتهمهم السلطان في ذلك، وطلب منهم تحقيقه عنده، فاجتمعوا
وكتبوا فتيا في مسألة الكلام وأرسلوها إلى الشيخ، وكان قد اتصل به خبر مكيدتهم، فلما
أتته كتب عليها بما يعتقده من تعظيم الله تعالى وتنزيهه وتوحيده، وأنه حي مريد سميع
بصير عليم، قدير متكلم قديم أزلي ليس بحرف ولا صوت ولا يتصور في كلامه أن ينقلب
مداداً في الألواح والأوراق، بل الكتابة من أفعال العباد، ولا يتصور في أفعالهم أن تكون
قديمة، ويجب احترامها لدلالتها على ذاته، كما يجب احترامها لدلالتها على صفاته. وأطال
في الفتيا وبسط الكلام واستدل، ونفى عن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله، وأكابر أصحابه
خلاف ذلك، وأخرج الفتيا من يده وقد تحقق ما يؤول أمرها إليه، فعرضت على السلطان،
ومن عرضها لا يشك أن فيها سفك دم الشيخ. فلما وقف عليها استشاط غضبا وقال:

صح عندي ما قالوه عنه، وتكلم في حقه بأشنع الكلام، وكفره، وكان ذلك في شهر رمضان،
وقد اجتمع على سماطه القضاة والعلماء، فما استطاع أحد منهم أن يرد عليه لما عنده من
الحرج. فقال بعضهم: السلطان أولى بالعفو والصفح لا سيما في مثل هذا الشهر، وموه
آخرون بكلام يوهم صحة فذهب خصمه، ثم انفصلوا من المجلس. فنهض في ذلك الشيخ
جمال الدين أبو عمرو بن الحاجب المالكي، رحمه الله تعالى، وهو عالم مذهبه في زمانه.
واجتمع بالقضاة والأعيان الذين حضروا المجلس، ووبخهم ولامهم وشدد عليهم النكير
كونهم ما ذكروا الحق وكونهم سألوا العفو والصفح، وقال: هذا يوهم الذنب، ولم يزل إلى أن
أخذ خطوطهم بموافقة الشيخ. فعند ذلك التمس الشيخ من السلطان أن يعقد مجلسا
للشافعية والحنابلة ويحضره المالكية والحنفية وغيرهم من علماء المسلمين. وقال: الذي
يعتقد في السلطان أنه إذا ظهر له الحق يرجع إليه، وأنه يعاقب من موه الباطل عليه، وهو
أولى الناس بموافقة والده السلطان الملك العادل، تغمده الله برحمته، فأنه كان قد عزر جماعة
من أعيان الحنابلة المبتدعة تعزيرا بليغا رادعا وبدع بهم وأهانهم.
فأجابه السلطان بخطه ما مثاله:
بسم الله الرحمن الرحيم
"وصل إلي ما التمسه الفقيه ابن عبد السلام، أصلحه الله، من عقد مجلس وجمع المفتيين
والفقهاء. وقد وقفنا على خطه وما أفتى به، وعلمنا من عقيدته ما أغنى عن الاجتماع
به. ونحن فنتبع ما عليه الخلفاء الراشدون الذين "قال" صلى الله عليه وسلم، في حقهم.
"عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي". وعقائد الأئمة الأربعة فيها كفاية لكل
مسلم يغلب هواه ويتبع الحق ويتخلص من البدع، اللهم إلا أن كنت تدعي الاجتهاد فعليك
أن تثبت، ليكون الجواب على قدر الدعوى لتكون صاحب مذهب خامس.
وأما ما ذكرته عن الذي جرى في أيام والدي، تغمده الله برضوانه، فذلك الحال أنا أعلم به
منك. وما كان له سبب إلا فتح باب السلامة، لا لأمر ديني وجرم جره سفهاه قوم فحل بغير

جانيه العذاب. ومع هذا فقد ورد في الحديث الفتنة نائمة، لعن الله مثيرها؛ ومن تعرض إلى
إثارتها قابلناه بما يخلصنا من الله، وما يعضد كتاب الله وسنة رسوله".
فلما وصلت هذه الرقعة إلى الشيخ قرأها، وقال للرسول: اذهب فقد وصلت. فقال:
تقدمت الأوامر المطاعة السلطانية بإحضار جوابها، فكتب الشيخ ما مثاله:
بسم الله الرحمن الرحيم
"فوربك لنسألنهم أجمعين. عما كانوا يعملون"
أما بعد حمدا لله الذي جلت قدرته وعلت كلمته وعمت رحمته وسبغت نعمته، فإن الله
تعالى قال لأحب خلقه إليه وأكرمهم لديه: "وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل
الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون" وقد أنزل الله تعالى كتبه وأرسل رسله
بنصائح خلقه. فالسعيد من قبل نصائحه وحفظ وصاياه. وكان فيما أوصى به خلقه أن
قال: "يا أيها الذين أمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا
على ما فعلتم نادمين" وهو سبحانه وتعالى أولى من قبلت نصيحته وحفظت وصيته. وأما
طلب المجلس وجمع العلماء فما حملني عليه إلا النصح للسلطان وعامة المسلمين. وقد سئل
رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدين فقال: "الدين النصيحة"؛ قيل لمن؟ يا رسول
الله: قال: "لله وكتابه ورسوله وأئمة المسلمين وعامتهم"، فنصح الله بامتثال أوامره واجتناب
نواهيه، ولكتابه بالعمل بمواجبه، وللائمة بأرشادهم إلى أحكامه والوقوف عند أوامره
ونواهيه، ولعامة المسلمين بدلالتهم على ما يقربهم إليه ويؤلفهم لديه. وقد اديت ما علي في
ذلك.
والفتيا التي وقعت في هذه القضية يوافق عليها علماء المسلمين من الشافعية والمالكية
والحنفية والفضلاء من الحنابلة؛ وما يخالف في ذلك إلا رعاع لا يعبأ الله بهم، وهو الحق
الذي لا يجوز دفعه، والصواب الذي لا يمكن رفعه. ولو حضر العلماء مجلس السلطان
أعلم صحة ما أقول والسلطان أقدر الناس على تحقيق ذلك. وقد كتب الجماعة خطوطهم

بمثل ما قلته، وإنما سكت من سكت في أول الأمر لما رأوا من غضب السلطان. ولولا ما
شاهدوه من غضب السلطان لما أفتوا أولا إلا بما رجعوا إليه آخرا.ومع ذلك فيكتب ما
ذكرته في هذه الفتيا وما ذكره الغير، ويبعث إلى بلاد الإسلام ليكتب فيها من يجب الرجوع
إليه ويعتمد في الفتيا عليه. ونحن نحضر كتب العلماء المعتبرين ليقف عليها السلطان.
وبلغني أنهم ألقوا إلى سمع السلطان أن الأشعري يستهين بالمصحف.ولا خلاف بين
الأشعرية وجميع علماء المسلمين أن تعظيم المصحف واجب. وعندنا أن من استهان
بالمصحف أو بشيء منه فقد كفر، وانفسخ نكاحه، وصار ماله فيئا للمسلمين، وتضرب
عنقه، ولا يغسل، ولا يكفن، ولا يصلى عليه، ولا يدفن في مقابر المسلمين، بل يترك بالقاع
طعمة للسباع. ومذهبنا أن كلام الله سبحانه وتعالى قديم أزلي قائم بذاته، لا يشبه كلام
الخلق، كما لا تشبه ذاته ذات الخلق ولا يتصور في شيء من صفاته أن يفارق ذاته، إذ لو
فارقته لصار ناقصا، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا، وهو مع ذلك مكتوب في
المصاحف محفوظ في الصدور مقروء بالألسنة، وصفة الله القديمة ليست بمداد الكاتبين ولا
ألفاظ اللافظين. ومن اعتقد ذلك فقد فارق الدين وخرج عن عقائد المسلمين بل لا يعتقد
ذلك إلا جاهل غبي، وربنا المستعان على ما تصفون.
وليس رد البدع وإبطالها من باب إثارة الفتن. فإن الله سبحانه وتعالى أمر العلماء بذلك،
وأمرهم ببيان ما علموه. ومن امتثل أمر الله ونصر دين الله لا يجوز أن يلعنه رسول الله.
وأما ما ذكر من أمر الاجتهاد والمذهب الخامس: فأصول الدين ليس فيها مذاهب فإن
الأصل واحد، والخلاف في الفروع.
ومثل هذا الكلام مما اعتمدتم فيه قول من لا يجوز أن يعتمد قوله. والله أعلم بمن يعرف
دينه ويقف عند حدوده.
وبعد ذلك فأنا نزعم أنا من جملة حزب الله وأنصار دينه وجنده. وكل جندي لا يخاطر
بنفسه فليس بجندي.
وأما ما ذكر من أمر باب السلامة، فنحن تكلمنا فيه بما ظهر لنا من أن السلطان الملك

العادل، تغمده الله برحمته، إنما فعل ذلك إعزازا للدين ونصرة للحق. ونحن نحكم بالظاهر
والله يتولى السراير، والحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم".
وكتب الشيخ هذا الجواب مسترسلا بحضرة رسول السلطان، ودفعه إليه. فلما قرأه
السلطان اشتد غضبه وأرسل إليه أستادداره غرس الدين خليلا برسالة؛ وكان غرس الدين
يحب الشيخ ويعتقده، فحضر إليه وجلس بين يديه، وتلطف به واستأذنه في أداء الرسالة،
فقال: أدها كما قبلت لك.
فقال: يقول لك السلطان: "إنا قد شرطنا عليك ثلاثة شروط أحدها: ألا تفتي، والثاني: ألا
تجتمع بأحد، والثالث: أن تلزم بيتك". فقال له: إن هذه الشروط من نعم الله الجزيلة علي،
المستوجبة للشكر لله تعالى على الدوام. أما الفتيا: فإني والله كنت متبرما بها وأكرهها.
وأعتقد أن المفتي على شفير جهنم. ولولا أني كنت أراها متعينة علي لما أفتيت. والآن
فقد سقط عني الوجوب وتخلصت ذمتي ولله الحمد والمنة. وأما ترك اجتماعي للناس
ولزومي لبيتي: فهذا من سعادتي لتفرغي لعبادة الله تعالى. والسعيد من لزم بيته وبكى
على خطيئته واشتغل بطاعة الله تعالى. وهذا تسليك من الحق، وهدية من الله تعالى إلي
أجراها على يد السلطان وهو غضبان وأنا بها فرحان. والله لو كان عندي خلعة تصلح
لك على هذه الرسالة المتضمنة لهذه البشارة لخلعتها عليك ونحن على الفتوح، خذ هذه
السجادة صل عليها فقبلها الحاجب وقبلها، وانصرف إلى السلطان وقص عليه ما قاله
الشيخ. فقال لمن حضره: قولوا لي ما أفعل به، هذا رجل يرى العقوبة نعمة، اتركوه، بيننا
وبينه الله.
وبقي على ذلك ثلاثة أيام إلى أن ركب الشيخ العلامة جمال الدين الحصيري شيخ الحنفية
حماره وتوجه إلى القلعة، وكان معظما عند السلطان وقد جمع العلم والعمل، فلما بلغ
السلطان وصوله إلى القلعة أرسل خواصه يتلقونه، وأمرهم أن يدخلوا به إلى داره على
حماره ففعل. ولما رآه السلطان وثب إليه وتلقاه، وأنزله عن حماره وأجلسه على تكرمته

واستبشر به. وكان ذلك عند غروب الشمس. فلما أذن المؤذن وصلوا المغرب قدم
السلطان إليه شرابا وناوله إياه بيده. فقال: ما جئت إلى طعامك ولا إلى شرابك. فقال:
يرسم الشيخ ونحن نمتثل أمره. فقال: أي شيء بينك وبين ابن عبد السلام؟ هذا رجل لو
كان في الهند أو في أقصى الدنيا كان ينبغي للسلطان أن يسعى في حلوله في بلاده لتتم بركته
عليه وعلى بلاده ويفتخر به سائر الملوك. قال: عندي خطه باعتقاده في فتيا، وخطه أيضا
في رقعة جواب رقعة سيرتها إليه. فيقف الشيخ عليهما ويكون الحكم بيني وبينه. ثم
أحضر الورقتين فقرأهما الشيخ وقال: هذا اعتقاد المسلمين و شعار الصالحين ونفس
المؤمنين، وكل ما فيهما صحيح، ومن خالف ما فيهما وذهب إلى ما قاله الخصم من إثبات
الحرف والصوت فهو حمار. فقال السلطان: نحن نستغفر الله مما جرى، ونستدرك الفارط في
حقه، والله لأجعلنه أغنى العلماء.
وأرسل إليه واسترضاه، وطلب محاللته ومخاللته. وتقدم السلطان إلى الفريقين بالإمساك عن
الكلام في مسألة الكلام وألا يفتي أحد فيها بشيء سدا لباب الخصام.
ثم وصل السلطان الملك الكامل إلى دمشق. وكانت الواقعة قد اتصلت به، فرام الاجتماع
بالشيخ فاعتذر إليه، فطلب أن يكتب له سورة الواقعة مستقصاة، فأمر ولده الشيخ شرف
الدين أن يكتب ذلك من أوله إلى آخره ففعل. وأرسله إلى الملك الكامل فقرأه وكتمه. ثم
سأل أخاه الملك الأشرف عن الواقعة. فقال: منعت الطائفتين من الكلام في المسألة، وانقطع
بذلك الخصام. فقال له السلطان الملك الكامل: ليست هذه سياسة حسنة، نساوي بين
أهل الحق والباطل، وتمنع أهل الحق من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتأمرهم أن
يكتموا ما أنزل الله إليهم. كان الطريق أن تمكن أهل السنة أن يلحنوا بحججهم وأن يظهروا
دين الله، إلى غير ذلك من الكلام. وتحقق الملك الأشرف صحة ما قاله الشيخ وصرح
بخجله منه، وصار يترضاه، ويعمل بفتاويه، ويأمر أن يقرأ عليه تصانيفه الصغار مثل: الملحة

في اعتقاد أهل الحق، ومقاصد الصلاة، وكرر قراءتها عليه في يوم ثلاث مرات.
واستمر الحال على ذلك إلى أن مرض الملك الأشرف مرضة موته. وأرسل أكبر أصحابه
إلى الشيخ وقال: قل للشيخ محبك موسى بن العادل أبي بكر يسلم عليك ويسألك أن تعوده
وتدعو له وتوصيه بما ينتفع به غدا عند الله تعالى. فأبلغه الرسول الرسالة، فتوجه إلى
السلطان فسر برؤيته، وقال له اجعلني في حل، وادع لي، وأوصني، وانصحني: ففعل الشيخ
ذلك، وتحدث معه في أشياء منها: إبطال المنكرات بدمشق. فأمر بإبطالها، وتولى الشيخ
إزالة بعضها بنفسه، وأطلق السلطان له ألف دينار عينا، فردها عليه: هذه اجتماعه لله
تعالى، لا أكدرها بشيء من الدنيا. ثم مات الملك الأشرف إثر ذلك.
ولما حضر الملك الكامل إلى دمشق وانتزعها من أخيه الصالح إسماعيل كما تقدم، حضر
الشيخ إلى مجلس السلطان فأكرمه، وفوض إليه تدريس زاوية الغزالي بجامع دمشق ثم فوض
إليه قضاء القضاة بعد ذلك بدمشق. فاشترط شروطا كثيرة ولم يله. وقيل أنه تولاه مدة
يسيرة وعزل نفسه.
ثم كانت واقعة مع الملك الصالح عماد الدين إسماعيل "بن العادل"صاحب دمشق "عندما
أذن للفرنج في دخول دمشق وشراء السلاح... فأفتى الشيخ عز الدين ابن عبد السلام
بتحريم بيع السلاح للفرنج... وكان الصالح غائبا عن دمشق فورد كتابه بعزل ابن عبد
السلام. وولى خطابة" دمشق، بعد عز الدين بن عبد السلام، علم الدين داود بن عمر بن
يوسف بن خطيب بيت الآبار.
فلما سلم الملك الصالح صفد والشقيف وغير ذلك للفرنج وصالحهم، كما تقدم، امتنع
"الشيخ ابن عبد السلام" من الدعاء له على المنبر الجامع بدمشق فكان من خبر عزله
واعتقاله وخروجه من الشام ووصوله إلى الديار المصرية وولايته الخطابة بجامع عمرو بن
العاص بمصر، والقضاء بمصر والوجه القبلي، وعزله نفسه مرة بعد أخرى، وغير ذلك من
أحواله ما قدمناه في أخبار الدولة الصالحية النجمية.

ولم يزل الشيخ، رحمه الله تعالى، معظما عند الملك الصالح وغيره من الملوك بعده بالديار
المصرية يرجعون إلى رأيه ويعتمدون على فتاويه، ويقف الأكابر عند أوامره إلى أن ملك
السلطان الملك الظاهر فزاد في تعظيمه وإكرامه وبره، واستشاره في ابتداء دولته فيما يفعله
مما فيه صلاح دولته، فقال له: إن الدولة لا تقوم إلا بأمرين؛
أحدهما: قيام الشرع الشريف.
والثاني: تحصيل الأموال من وجوهها، ولا أرى لمنصب القضاء مثل تاج الدين عبد الوهاب
يريد ابن بنت الأعز، وللوزارة مثل بهاء الدين علي. فرجع السلطان إلى رأيه وتمسك بقوله،
وفوض المنصبين لهما، فقام كل منهما في منصبه أحسن قيام. وحمدت عاقبة هذه الولاية،
وشكر سداد هذا الرأي.
ولما توفى الشيخ، رحمه الله تعالى، تألم السلطان لفقده، وشيع جنازته أمراء الدولة
وأكابرها، وحملوا نعشه إلى أن وضع في قبره، رحمه الله تعالى.
وهذا الذي أوردته من أخبار الشيخ في مسألة الكلام نقلته من خط ولده الشيخ شرف
الدين محمد، رحمه الله تعالى. وفضائله ومناقبه، رحمه الله تعالى، كثيرة. وقد أتينا منها بما
يدل على مجموعها.
وفيها: أيضا توفى الصاحب كمال الدين عمر، ابن قاضي القضاة نجم الدين أبي الحسن
أحمد بن هبة الله بن أحمد بن يحيى بن زهير بن هارون بن موسى ابن عيسى بن عبد الله
بن محمد بن أبي جرادة الحنفي المعروف بابن العديم الحلبي، كان فاضلا أديبا شاعرا كاتبا
رئيسا مؤرخا، وكانت وفاته بمصر في العشرين من جمادى الأولى سنة ستين وستمائة، ودفن
بسفح المقطم، ومولده بحلب في العشر الأول من ذي الحجة سنة ثمان وثمانين وخمسمائة.
واستهلت سنة إحدى وستين وستمائة
البيعة للإمام الحاكم بأمر الله
أبي العباس أحمد العباسي
كان وصوله إلى الديار المصرية في سنة ستين وستمائة فتلقاه السلطان وأكرمه وخدمه،
وأنزله بقلعة الجبل، وأدر عليه النفقات، ثم بايعه في يوم الخميس الثاني من المحرم سنة إحدى
وستين

وستمائة على ما قدمناه ذكره في أخبار الدولة العباسية.
القبض على الملك المغيث
صاحب الكرك واعتقاله
كان القبض على الملك المغيث فتح الدين عمر صاحب الكرك
في يوم السبت السا بع
والعشرين من جمادى الأول سنة إحدى وستين وستمائة. وذلك
أن السلطان توجه من قلعة
الجبل المحروسه لقصد الشام في سابع شهر ربيع الآخر من
السنة،وخيم بظاهر القاهرة إلى
أن تجهز الناس، ورحل في حادي عشر الشهر فوصل إلى غزة
المحروسة فوجد والدة الملك
المغيث بها، فأحسن إليها وأنعم عليها، وأعطاها شيئا كثيرا،
وحصل الحديث معها في
حضور ولدها "إلى السلطان"، وتقررت الأمور سرا ولم يعلم أحد
بما تقرر، وأعاد عليها
العطاء والإنعام وعلى كل من حضر معها، وتوجهت صحبتها
الأمير شرف الدين الجاكي
المهندار، برسم تجهيز الإقامات للملك المغيث إذا حضر من
الكرك.
ونظر السلطان في أمر أمراء التركمان وخلع عليهم. وأحضر
أمراء العابد وجرم وثعلبة
وضمنهم البلاد، وألزمهم بالعداد وشرط عليهم إقامة خيل البريد
في المراكز.
ثم سار من غزة ونزل الطور، في ثاني عشر جمادى الأول.
وسير الملك الأشرف صاحب
حمص إلى السلطان يلتمس الإذن له في الحضور إلى الخدمة
فأذن له، فحضر في نصف الشهر
فتلقاه السلطان وأحسن إليه. وصارت رسل الملك المغيث
تتوالى إلى السلطان وهو ينعم
عليهم. وخرج "إليه" الملك المغيث من الكرك وأقام مدة في
الطريق. وأظهر السلطان من
الاحتفال بأمره شيئا كثيرا وخدعه أعظم خديعة. ولما وصل
الملك المغيث إلى بيسان
ركب السلطان لتلقيه فالتقاه وساق الملك المغيث إلى جانبه،
فلما وصل إلى باب الدهليز
ترجل ودخل إلى الخيمة فأدخل إلى خركاه واحتيط عليه وعلى
أصحابه. وكان السلطان
قد استدعى قبل ذلك قاضي القضاة بدمشق والعلماء وأظهر أن
ذلك لمبايعته، ولم يطلع
أحد على غير ذلك. فلما وقعت الحوطة على الملك المغيث
أحضر السلطان الملوك

والأمراء وقاضي القضاة والشهود والأجناد ورسل الفرنج وأخرج كتبا من جهة العدو
المخذول إليه. وقال الأتابك لمن حضر: "السلطان يسلم عليهم ويقول ما أخذت الملك
المغيث إلا بهذا السبب". وقرئت الكتب. وانصرف
الملك الأشرف ومن حضر. وقال للقاضي وجماعة العلماء: ما طلبتكم إلا بهذا السبب.
وكتب مكتوب بصورة الحال، وكتب فيه القاضي والجماعة. ثم جهز الملك الأشرف وركب
السلطان لوداعه.
وفي اليوم الذي قبض فيه على الملك المغيث جلس السلطان بعد انقضاء المجلس وأمر
بالكتب إلى الكرك: يعد من فيها بالإحسان، ويحذرهم عاقبة مخالفته. وسير الأمير بدر
الدين بيسري الشمس والأمير عز الدين أيدمر الظاهري أستاد الدار العالية إلى جهة الكرك
وجهز الخلع والأموال ليلحقهما بها، وجهز الملك المغيث عشية النهار إلى الديار المصرية
صحبة من أختاره لذلك، وأطلق أهله وحاشيته، وسير حريمه إلى مصر وأطلق لهم
الرواتب.
وكان من خبر وفاة الملك المغيث ما قدمناه في أخباره، رحمه الله.
وفي هذه المنزلة وصلت رسل دار الدعوة ومعهم الهدايا ووصل ولدا الصاحبين مقدمي
الدعوة، فأحسن السلطان إليهما وتوجها.
وفيها: أغار السلطان على عكا، وكان من أخبار الفرنج ما نذكر إن شاء الله تعالى في
غزوات السلطان وفتوحاته.
ولما رجع السلطان من الغارة توجه إلى نحو الكرك، وكان رحيله من منزلة الطور في يوم
الاثنين ثالث عشر جمادى الآخرة من السنة. وجرد صحبته جماعة من العسكر وطائفة
أخرى صحبة الأمير علاء الدين أمير جاندار إلى الصالحية.
ووصل السلطان إلى القدس الشريف في يوم الجمعة، فزار تلك الأماكن الشريفة وعاين ما
يحتاج إليه من العمارة، وكتب إلى دمشق يتجهز جميع ما يحتاج إليه من الأصناف
والصناع. ثم صلى الجمعة، وتصدق وكتب بحماية الأوقاف، وتوجه نحو الكرك.
أخذ الكرك

وفي يوم الخميس ثالث وعشرين جمادى الآخرة سنة إحدى وستين وستمائة نزل السلطان
على الكرك وصحبته العساكر، وأحضرت السلاليم الخشب من الصلت وغيرها. وكان
السلطان قد استصحب من الديار المصرية جماعة من الحجارين والبنائين والنجارين
والصناع على أنه يبني الطور، وأحضر جماعة من دمشق وغيرها وسيروا إلى عين جالوت،
وأشاع أن ذلك لبناء جامع، ولم يكن ذلك إلا لأجل الكرك. وعزم على الطلوع إليها
بنفسه. فخاف أهل الكرك ونزل أولاد الملك المغيث، وقاضي المدينة، وخطيبها وجماعة
من أهلها، ومعهم مفاتيح الحصن والمدينة، وطلبوا العوض فحلف السلطان على ما طلبوا
وأرضاهم بالعطاء، وسير الأمير عز الدين أيدمر أستاد الدار والصاحب فخر الدين لتسلم
الحصن. فطلعا في ليلة الجمعة وقت المغرب وتسلماه. ودعى للسلطان في بكرة الجمعة على
أسوارها،ونصبت الصناجق السلطانية على أبراجها. وأصبح السلطان وطلع إلى الحصن
في الثالثة من نهار الجمعة وجلس في القاعة الناصرية ورتب أحوال الحصن واهتم بأمره،
وعين للقلعة خاصا. وأعطى أولاد الملك المغيث جميع ما حواه الحصن من مال وقماش
وأثاث، وكذلك سائر غلمانهم وجميع الأمراء والمغادرة والأجناد، ولم يتعرض لأحد منهم في
شيء، ونزلوا جميعهم في ذلك النهار، وصلى السلطان بها الجمعة وخطب له. ونزل وقت
المغرب.
وفي يوم الأحد، سير إلى الملك المغيث الخلع والقماش، وكذلك "إلى" الطواشي بهاء الدين
صندل والأمير شهاب الدين بن صعلوك أتابكة.
وكتب السلطان إلى الشام بحمل الغلال والذخائر والأصناف إليها. وطلع إليها يوم الاثنين
وكتب المناشير لعربانها ومن بها. وكانت تزيد على ثلاثمائة منشور في وقت واحد، وعلم
عليها، وثبتت، وسلمت لأصحابها بعد تحليفهم بين يدي السلطان، كل هذا في بعض يوم.
وجرد السلطان بها جماعة من البحرية والظاهرية، واستناب الأمير عز الدين أيدمر أستاد
الدار بالكرك، وأضاف إليه النظر على الشوبك وأعمالها. وحلف مقدمي المدينة وحلف

نصارها على الإنجيل، وحمل ما كان معه إلى الحصن من الزردخاناه والأغنام والشعير وغير
ذلك من سائر الأصناف والأقمشة وسبعين ألف دينار عينا، ومائة ألف وخمسين ألف
درهم، وأعطى الأمير عز الدين أستاد الدار ثلاثين ألف درهم وجملة من القماش.
وتوجه السلطان إلى القاهرة في يوم الأربعاء "تاسع عشر جمادى الآخرة" فكان دخوله إليها
في سابع عشر رجب، وزينت المدينة أحسن زينة، وشق السلطان المدينة، وخلع على
الأمراء والمقدمين والمغادرة وجميع حاشيته وغلمانه وأمر ولد الملك المغيث الأكبر: مائة
فارس.
القبض على الأمراء
وهم: الأمير سيف الدين
بلبان الرشيدي والأمير شمس الدين أقش
البرلي والأمير عز الدين الدمياطي، وما نقل
من الأسباب الموجبة لذلك
وفي شهر رجب الفرد سنة إحدى وستين وستمائة، قبض السلطان على الأمراء المذكورين
واعتقلهم. وسبب ذلك أن السلطان كان قد أحسن إليهم إحسانا عظيما. وكان مما
اعتمده مع الأمير سيف الدين بلبان الرشيدي أنه فوض إليه أمر المملكة، وأنفذ كلمته،
وأطلق له في كل جمعة خوانين من عنده يمدان بجميع ما يحتاج إليه حتى ماء الورد، إلى غير
ذلك. ورتب له في كل شهر كلوتتين زركشا بمائة دينار عينا، وكلبنداتها، كل كلبند بأربعين
دينارا. كل ذلك زيادة على الإقطاعات العظيمة والمرتبات الكثيرة، وعلى الإنعام حتى
جامكيات البزدارية والفهادين وعليق خيلهم. واشتغل الرشيدي بالشرب واللهو.
وأما الأمير عز الدين الدمياطي فإن السلطان أعطاه وزاده، ومن جملة ما كان بيده نصف
مدينة غزة زيادة، وكتب له توقيعا أنه إذا سافر في جميع المملكة لا يمنع شيئاً يطلبه في الشام
من غزة إلى الفرات.
وأما الأمير شمس الدين البرلي فقد تقدم ما عامله به عند وصوله واستمر ذلك إلى آخر
وقت.
ثم بلغ السلطان أن الرشيدي قد فسدت نيته فجعل عليه عيونا تحفظ جميع ما يجري منه،

فكان مما أنكر السلطان عليه أن الأمير أسد الدين أستاد دار الملك المغيث أخبر السلطان
أن كتاب الرشيدي وصل إلى الملك المغيث يقول له لا تحضر فإن السلطان يريد أن
يمسكك. وكان جواب السلطان: "إن كان الملك الرشيدي فلا يحضر، وإن كان حلف لي
فيحضر". ولم يظهر للرشيدي شيئا من ذلك. ولما سير السلطان الأمير بدر الدين بيسري
الشمسي إلى الكرك كتب إلأى السلطان يقول إنني أمسكت كتابا من الرشيدي للكرك يقول:
"لا تسلموها"، ويحسن لهم التوقف على التسليم ويعرض عليهم الاتفاق معه على أن يحضر
هو ويستلمها منهم ويحفظها لهم، فكتم السلطان ذلك وأمر الأمير بدر الدين بيسري
بالأحتراز والتحفظ. ولما توجه السلطان إلى الكرك جعل على الرشيدي عيونا فبلغ
السلطان أنه لما نزل الكفرين ونمرين قصد الركوب في أصحابه ومماليكه ويسبق إلى الكرك
فيدخلها هجما. فركب السلطان إليه ونزل عند ولاطفه ومازحه، ففاته ما دبره، وحفظ
السلطان عليه الطرقات، ثم نزل السلطان بركة زيزاء، فبلغه أن الرشيدي قد عزم على
الركوب إلى الكرك فخدعه السلطان بأن أرسل إليه أحد خواصه يبشره بتسليم الكرك.
فلما سمع الرشيدي ذلك وقف عن فعله وخلع على المبشر.
فلما رجع السلطان من الكرك
ونزل غزة قام ليسبغ الوضوء على العادة، وتفرقت الخاصكية للوضوء والتهيؤ لصلاة
الجماعة. وقام السلطان يتركع قبل الأذان، وإذا بالرشيدي قد أقبل في مقدار ثلاثمائة فارس
مستعدة من مماليكه والدمياطي والبرلي، فلما قضى السلطان صلاته شد سيفه، وقال للأمير
شمس الدين سنقر الرومي: ما الذي رأيت؟ فقال: "جماعة ما جاءوا في خير". ثم حضر
الأمير سيف الدين قلاون الألفي وركب فرسا جيدا ووقف، واجتمعت الخصاكية. وركب
السلطان وأتى الرشيدي فوقف بالقرب من السلطان في مكان ما جرت عادته بالوقوف فيه،
فحضر الأمير عز الدين إيغان الركني فقال للرشيدي: "أراك في هذا المكان ما هذا مكانك يا
سيف الدين: ومازحه وما زال به حتى ساق من ذلك المكان وساق الدمياطي والبرلي

وتفرقوا. وكان الدمياطي قد جرت منه قضية أخرى وهي أن السلطان لما ملك الكرك
وأنزل أولاد الملك المغيث أعطاهم السلطان خلعا وأقمشة وإنعاما كثيرا وأنزلهم في المنظرة
التي في الوادي تحت الكرك بقرب منزلة السلطان: سير الدمياطي ضواء وجماعة يمشون
حولهم بغير أمر السلطان، ثم حضر في الليل إليه جماعة من ممالكه بالسيوف متلثمين
فكسروا الصناديق وأخذوا القماش الذي كان السلطان أنعم عليهم به ظن منهم أن تقوم
فتنة وشوشة في العسكر ولا يعلم أنهم مماليك الدمياطي، فكشف الله ذلك، وظهر القماش
عند خواص ممالكه، وأطلع السلطان على ذلك، وتحدث الأمير شجاع الدين المهندار مع
الدمياطي فما أنصف من مماليكه، وقال: "أنا أغرم عنهم"، وأحضر بعض القماش، وقرر أن
تكون بدراهم عن بقية ذلك. هذا والسلطان لا يتكلم بكلمة بل كتم ذلك إلى أن استقر
بقلعة الجبل فلما أصبح طلب الرشيدي فاعتقله، وطلع الأمراء إلى الخدمة في اليوم الثاني،
فأمسك الدمياطي والبرلي وأحسن إلى مماليكهم وخواصهم وأقرهم على أخبارهم، ولم يغير
على أحد منهم ولا تعرض على بيوت الأمراء.

وصول "رسل" الملك بركة

قال: ولما وصل السلطان إلى غزة عند عوده من الكرك، وصل إليه البريد من الأمير عز
الدين الحلي نائب السلطنة بالديار المصرية يذكر أن رسل الملك بركة وصلوا إلى ثغر
الإسكندرية، وهم الأمير جلال الدين بن القاضي، والشيخ نور الدين علي ومعهما جماعة،
وبخبر بوصول رسل الملك الأشكري، ورسل مقدم الجنوية، ورسل السلطان عز الدين
صاحب الروم. فكتب بالإحسان إلى جميعهم، ولما استقر السلطان بقلعة الجبل أحضرهم
واجتمع بهم بحضور الأمراء وغيرهم، وقرئت الكتب ومضمونها؛ السلام والشكر وطلب
الإنجاد على هولاكو والإعلام بما هو عليه من مخالفة يسق جنكرخان، وأن جميع ما فعله
من إتلاف النفوس بطريق العدوان منه، وأنني قد قمت أنا وأخوتي الأربعة بحربه من سائر
الجهات لإقامة منار الإسلام، والتمس إنقاذ جماعة من العسكر إلى جهة الفرات لإمساك

الطريق على هولاكو، ويوصي على السلطان عز الدين صاحب الروم ويستمد مساعدته.
فأنعم السلطان على الرسل إنعاما عظيما، ورسم بتجهيز الهدية إلى الملك بركة.
قال القاضي محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر: وكان في جملة الهدية ختمة شريفة ذكر
أنها خط عثمان بن عفان رضي الله عنه، ونمر لقات، وسجادات وذكر أشياء كثيرة من
جملتها زرافة، وسافرت الرسل في سابع عشر شهر رمضان سنة إحدى وستين وستمائة.
توجه السلطان إلى ثغر الإسكندرية
وفي سادس شوال سنة إحدى وستين وستمائة، توجه السلطان إلى ثغر الإسكندرية،
وذلك بعد أن توجه نحو الصيد وتصيد. وكان دخوله إلى الثغر في يوم الأربعاء مستهل ذي
القعدة، ودخل من باب رشيد. ورسم بمكتوب برد مال السهمين، وصلة أرزاق الفقراء،
ووضع المظالم، ثم لعب الكرة، وخلع على الأمراء ووصلهم بالأموال والأقمشة. وركب
لزيارة الشيخ القباري والشاطبي وجلس بدار العدل في يوم الخميس تاسع الشهر وبسط
المعدلة وأمر بتطهير الثغر من الخواطي الفرنجيات. ثم رجع السلطان في حادي عشر
الشهر.
وفي آخر ذي القعدة من السنة نزل السلطان إلى القاهرة، وعاد الأمير سيف الدين قلاون
الألفي، والأمير علاء الدين أيدغي الركني والأمير حسام الدين بركة خان.
وفي ليلة الأربعاء الخامس من ذي الحجة توفي الأمير حسام الدين المذكور، فحضر السلطان
جنازته ومشى فيها.
وصول التتار المستأمنين
وفي سابع ذي القعدة من السنة، وردت الكتب من البيرة وحلب أن جماعة من التتار
مستأمنة واردة إلى الباب العزيز، يزيدون على ألف وثلاثمائة فارس من المغل والبهادرية.
فكتب السلطان بالإحسان إليهم وتجهيز الإقامات لهم. وفي يوم الخميس السادس والعشرين
من ذي الحجة كان وصولهم، فركب السلطان وتلقاهم، فنزلوا عندما رأوا السلطان، وقبلوا
الأرض. وكان السلطان قد رسم بعمارة مساكن لهم فعمرت باللوق فنزلوها، وأحسن

إليهم. ثم وردت الكتب بقدوم جماعة أخرى كثيرة منهم.
فاحتفل بهم وركب لتلقيهم ثم
ورد جماعة أخرى فاعتمد معهم من الإحسان نظير أولئك. وكان الواصل إلى الخدمة في
هذه الثلاث مرار من أكابر أمرائهم من يذكر. وهم: كرمون أغا، وهو الذي فتح بلاد الترك
جميعها، وامتغا أغا ونوكا أغا، وجبراك أغا، وقنان أغا، وطيشور، وناصغبة ونبتو،
وصجتي وجوجلان، واجقرقا، وأرقدق وصلاعنة وميقتدم، واجتمعوا بمن كان قد وصل
قبلهم وهم: صراغان أغا ومن كان قد وصل معه. ثم عرض السلطان عليهم الإسلام
فأسلموا على يديه.
وفي هذه السنة أمر السلطان بعمل جامع خام يضرب على يمنة الخيمة السلطانية، وعمل له
محاريب وعدة أبواب ومقصورة برسم السلطان.
وفيها: أمر السلطان بعمارة دار العدل تحت قلعة الجبل، وتجديد بنائها.
وفيها: وصلت رسل اليمن بتقادم ومعهم هدايا لخواص الأمراء، فأمر السلطان بإنفاذها إلى
من عينت له وأذن لهم في قبولها.
وفيها: عرض السلطان العساكر، وكان يجلس لذلك في كل خميس واثنين.
وفيها: جهز السلطان عرب خفاجة، وسير الخلع إلى كبراء العراق، وكتب إلى صاحب
شيراز وغيره بالإغراء بهولاكو.
وفيها: توفي الأمير فخر الدين أبو الهيجا بن عيسى بن خشترين الأزكشي الكردي أحد
الأمراء بدمشق، وكان شجاعا أبلى في وقعة عين جالوت بلاد حسنا، رحمه الله تعالى.
وفيها: توفي الملك الأشرف مظفر الدين موسى بن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن
الملك المسعود صلاح الدين أقسيس بن الملك الكامل ناصر الدين محمد بن الملك العادل
سيف الدين أبي بكر محمد بن أيوب. وكانت وفاته بنابلس في خامس عشر ذي الحجة
سنة إحدى وستين وستمائة، ومولده بدار الوزارة بالقاهرة في سنة اثنتين وأربعين وستمائة،
وهو الذي كان قد ملك الديار المصرية في أيام الملك المعز عز الدين أيبك كما تقدم.
فلما ملك السلطان الملك الظاهر أمره بالشام، وخلف، رحمه الله، ولدا اسمه ناصر الدين

محمد، ونعته بالملك الكامل.
واستهلت سنة اثنتين وستين وستمائة
تفويض أمر جيش حماة إلى الطواشي
شجاع الدين مرشد الحموي
وفي أول هذه السنة طلب السلطان الطواشي المذكور وتحدث في اشتغال صاحب حماة
مخدومه بالملاذ واللهو، وقال: "كتب إليه أو تنبهه من هذه الغفلة، وسيرت إليه شرف الدين
عبد العزيز شيخ الشيوخ في ذلك فما أفاد، وقد اعتمدت عليك في مصلحة هذا البلد، لما
فيك من الديانة والخير والشجاعة"، والزمه بتكملة الجيش والزام الجند بإقامة البرك والعدة
الكاملة. فالتزم بهذه الأمور. وكتب تقليده بذلك وتوجه.
المدرسة الظاهرية
وترتيب الدروس
كان الشروع في عمارة المدرسة الظاهرية التي هي بالقاهرة المحروسة بين القصرين في ابتداء
الدولة في ثامن شهر ربيع الآخر سنة ستين وتنجر بابها ودهليزها وأبوابها وكتاب السبيل في
أواخر شعبان من السنة المذكور. ولم يشرع في بنائها حتى رتب أمور أوقافها، وكان المتولي
عمارتها الأمير جمال الدين ابن يغمور، ورسم له السلطان إلا يستعمل أحدا فيها بغير
أجرة. وكان اجتماع أهل العلم بها في يوم الأحد الخامس من صفر سنة اثنتين وستين
وستمائة. وفوض السلطان تدريس الحنفية للصدر مجد الدين بن الصاحب كمال الدين بن
العديم، وتدريس الشافعية لقاضي تقي الدين بن رزين. وصدر الافراء للفقيه كمال الدين
المحلي، والتصدر لإفادة الحديث النبوي للشيخ شرف الدين عبد المؤمن بن خلف الدمياطي
شيخنا. وذكرت الدروس بها في هذا اليوم، وحضر السلطان، ومدت الأسمطة وأنشد
الشعراء وخلع عليهم.
وفي صفر من سنة، خرج السلطان متصيدا إلى الجهة الغربية وتوجه إلى ثغر دمياط وزار
البرزخ ومر في عوده لبلاد أشموم، وتصيد بمنزلة ابن حسون، وأخذ على بلاد الشرقية.
وفاة الملك الأشرف مظفر الدين
موسى
صاحب حمص والرحبة

وفي يوم الجمعة حادي عشر صفر من هذه السنة، توفى الملك الأشرف مظفر الدين موسى
بن الملك المنصور إبراهيم بن الملك المجاهد شيركوه بن الأمير ناصر الدين محمد بن أسد
الدين شيركوه بن شادي "بن مروان" رحمه الله تعالى. ولم يكن له ولد ولا أخ ولا ولي عهد،
فسير السلطان إلى نوابه بتسليمها. فوصل البريد في سابع عشرين صفر بأن بدر الدين
بيليك العلائي أحد الأمراء قد تسلما، وحلف الناس بهما للسلطان.
وفي هذا التاريخ ورد كتاب الأمير جمال الدين النجيبي النائب بدمشق يذكر أنه ولى حران
للأمير جمال الدين الجاكي، والرقة لأمير آخر.
وفي هذا الشهر: سأل الفرنج نواب السلطان أنهم يأذنون لهم بزراعة البلاد وتقويتها من
أموالهم وهي جملة كثيرة من الغلال؛ فتقررت الهدنة معهم إلى أيام الحصاد.
وفي هذه السنة: ثمن القرط الذي قضمته الخيول السلطانية وجمال المناخات فكان ثمنه
خمسين ألف دينار.
وفيها: استدعى السلطان الأمير علاء الدين الشهابي النائب بحلب وأمره أن يستنيب عنه
الأمير نور الدين بن محلى ففعل ذلك. ولما وصل الملك إلى الأبواب السلطانية عزله السلطان
عن نيابة حلب، وأقر الأمير نور الدين بن محلى في نيابة حلب فأحسن السيرة، وعمر البلاد
وأعاد الفلاحين، وأفرد الخاص على ما كان عليه في الأيام الناصرية.
جلوس السلطان بدار العدل
وما رتبه عند غلو الأسعار
قال: وفي شهر ربيع الآخر من السنة غلت الأسعار"بمصر" وبلغ ثمن الأردب إلى قريب المائة
درهم نقرة. فرسم السلطان بالتسعير طلبا للرفق. فاشتد الحال وعدم الخبز. فأمر
السلطان أن ينادى باجتماع الفقراء تحت القلعة، ونزل إلى دار العدل في يوم الخميس سابع
الشهر، فأول ما تكلم فيه إبطال التسعير. ورسم أن يباع من الأهراء في كل يوم خمسمائة
أردب بما يقدره الله من ويبتين فما دونها تباع على الضعفاء والأرامل. ونزل الحجاب تحت
القلعة وكتبت أسماء للفقراء، وسير إلى كل جهة حاجبا لكتابة الأسماء في القاهرة ومصر

وحواضرها، ولما تكامل حصر العالم أخذ السلطان ألوفا، وأعطى لنواب ولده الملك
السعيد كذلك، وأعطى لكل أمير جماعة على قدر عدته، وفرق على الأجناد ومفاردة
الحلقة والمقدمين والبحرية، وعزل التركمان والأكراد البلدين، ورسم أن يعطي لكل فقير مئونته
مدة ثلاثة شهور، ويسلم نواب الأمراء والأكابر والتجار الفقراء.
ثم قال السلطان:" هؤلاء
الفقراء جمعناهم في هذا اليوم وقد انقضى نصف النهار فليعط كل منهم نصف درهم يتقوت
به خبزا، ومن غد يتقرر الحل". فانفق فيهم جملة كثيرة بهذا القدر خاصة. وأخذ
الصاحب جماعة العميان والأتابك "جماعة" التركمان، ولم يبق أحد من الخواص والحواشي
وأرباب المناصب وغيرهم إلا أخذ جماعة. فانحطت الأسعار لذلك وكثر الخبز.
وفي ثالث شهر ربيع الآخر من السنة رسم السلطان بمسامحة بنات الأمير حسام الدين
الجوكندار العزيزي بما وجب للديوان في تركة أبيهن، أربعمائة ألف درهم نقرة.
وفي هذه السنة، قصد متملك الأرمن حلب المحروسة مرة بعد أخرى، فلم يظفر بشىء،
وخاب سعيه على ما نشرحه إن شاء الله في غزوات السلطان وفتوحاته.
وفيها: رسم السلطان بحفر خليج الإسكندرية، وكانت قد استدت فوهته،وندب لذلك
الأمير عز الدين أمير جاندار فأهتم بذلك وحفر المكان المعروف بالنقيدي، وأمر ببناء
مسجد هناك ليكون تذكرة باقية. وجهز الأمير جمال الدين موسى بن يغمور أستاد الدار
العلية وأمره بالاهتمام بأمر جزيرة بني نصر لما بلغه قلة ريها، فاحتفل بها كل الاحتفال.
وفيها: في جمادى الأول، تقدم أمر السلطان إلى الأمير سيف الدين بلبان الزيني أمير علم
بالتوجه إلى الشام للاهتمام بأمر القلاع والبلاد وعرض عساكر حماة وحلب ورجال
الثغور،والنظر في المهمات الخاصة والعامة، وإلزام الأمراء بتكملة العدد والعدة وإزاحة
الأعذار وأخذ الأهبة للجهاد، وكتب على يده إلى دمشق بحمل خزانة كبيرة إلى البيرة
برسم نفقاتها، فتوجه لذلك.

وفي العشر الأوسط من جمادى الآخرة حصل الظفر
بجاسوسين للتتار، وكانت أخبارهما
وحلاهما وصلت إلى السلطان من جهة القصاد والناصحين
بالأردو، وكذلك من كل جهة
يصلان إليها، إلى أن ركبا من عكا في البحر، فلما وصلا إلى ثغر
دمياط مسكا وأحضرا
إلى بين يدي السلطان فذكر لهما الأماير، فأقرا، ووجد معهما
فرمانين للأتابك وأراه ذلك، ولم
يصدق ذلك فيه، ومزق ذلك وحرقه، واستدل بذلك على ضعف
هولاكو.
وفي هذه السنة تنجز البرج الذي أمر السلطان بعمله في قارا،
وشرع في بناء برج أكبر منه
لحفظ الطرقات وصون الرعية من عوادي الفرنج المجاورين.
وفي جمادى الأول من السنة شرع النواب بالشام في بناء
شقيف نيرون.
وفي الشهر أنعم السلطان على عسكر الساحل الذين هم صحبة
الأمير ناصر الدين
القيمري بمائتي ألف درهم فرقت عليه.
جلوسه بدار العدل وما قرره من مشاركة أمناء
الحكم للأوصياء
وفي مستهل شهر رجب سنة اثنتين وستين وستمائة، جلس
السلطان بدار العدل، فتقدم
رجل من الأجناد ومعه صغير، فقال:"أنا وصي هذا الصغير"
وشكا من قضية تتعلق به.
فقال السلطان لقاضي القضاة:"أعلم أن الأجناد يموت الواحد
منهم فيستولي خوشدا شيته
على موجوده ويجعل اليتيم أو شاقية، ويموت اليتيم فيستولي
الوصي على الموجود، أو يكبر
اليتيم ولا يجد شيئا ولا يقوم له حجة على موجوده، وقد يموت
الوصي فينغمس مال اليتيم
في ماله، وأنا أرى ألا ينفرد أحد من الأوصياء بوصية، وأن يكون
نظر الشرع شاملا،
وأموال اليتامى مضبوطة، وأمناء الحكم يحاققون على
المصروف وطلب نواب الأمراء
ونقباء العساكر وأمرهم بذلك. واستمرت الحال عليه إلى وقتنا
هذا.
وصول جماعة من عسكر شيراز
وفي جمادى الآخر، بلغ السلطان أن جماعة من عسكر شيراز
وصلوا لقصد الخدمة
الشريفة، فأمر بالإحسان إليهم. ووصلوا في ثالث شهر رجب
ومقدمهم بكلك ورفقته

وهم:سيف الدين إقبار جمدار السلطان جلال الدين خوارز مشاه والأمراء الأتابكية غلمان
أتابك سعد منهم:سنقر جاه وغيره من الأتابكية.ووصل صحبتهم حسام الدين بن ملاح
أمير العراق وجماعة من أمراء خفاجة، فتلقاهم السلطان وأحسن إليهم، وأمرالأمير سيف
الدين بكلك وأعطاه طبلخاناه،وكذلك أمراء خفاجة،والأمير مظهر الدين وشاح بن سهرى،
وأطلق لحسين ابن ملاح قرية في الشام،وجهزهم إلى بلادهم.
وفي شهر رمضان وصل رسول من الملك شارل أخي الملك افرنسيس وهو صاحب
مرشيلية،وصحبته عدة من السناقر الشهب والأمتعة. ومضمون كتابه المحبةةة والمشابعة.
ووصل كتاب استادداره يقول: إن مخدومه أمره أن يكون أمر السلطان نافذا في بلاده، وأن
يكون نائب السلطنة كما هو نائبه. وفي يوم الجمعة خامس عشر شهر رمضان:قرىء
مكتوب بجامع مصر بأبطال ما قرره على ولاية مصر من الرسوم وهي مائة ألف درهم
وأربعة آلاف درهم"نقرة".
وفي هذا الشهر أحضرت فلوس من جهة قوس وجدت مدفونة فأخذ منها فلس: فإذا عليه
صورة ملك واقف،وفي يده اليمنى ميزان، وفي اليسرى سيف، ومن الوجه الآخر رأس
مصور بآذان كبيرة، ويداير الفلس سطور،فقرأها راهب يوناني: فكان تاريخه إلى وقت
قراءته ألفين وثلاثمائة سنة. وفيه مكتوب:أنا غلياث الملك، ميزان العدل، والكرم في يميني
لمن أطاع،والسيف في يساري لمن عصى، وعلى الآخر:أنا غلياث الملك،أذني مفتوحة
لسماع كلمة المظلوم، وعيني مفتوحة أنظر بها مصالح ملكي.
سلطنة الملك السعيد
وفي يوم الخميس ثالث عشر شوال سنة اثنتين وستين وستمائة،حصل الإتفاق على سلطنة
الملك السعيد،فأركبه السلطان بشعار السلطنة، ومشى بنفسه في ركابه وحمل الغاشية. ثم
أخذها الأمراء وحملوها وعليهم الخلع الفاخرة، ورجع السلطان. ولم يزل الملوك والأمراء في
خدمته إلى باب النصر، ودخلوا القاهرة رجالة يحملون الغاشية، وقد زينت المدينة أحسن
زينة. وشق الملك السعيد القاهرة وأتابكه عز الدين الحلى راكب إلى جانبه. وبسط

الأمراء الثياب الأطلس والعتابي وغيرها تحت حوافر فرسه.
ولم يزل أن عاد إلى القلعة.
وكانت "الثياب" بجملة عظيمة تفرقها المماليك السلطانية
وأرباب المنافع.
وكتب له تقليد شريف أنشأه المولى محيي الدين بن عبد الله بن
عبد الظاهر، وقرئ
بحضور الأمراء وقاضي القضاة والعلماء في سابع عشر الشهر.
وفي العشر الأول من ذي القعدة من السنة، عرض السلطان
الجيش، وكان قبل ذلك رسم
بتكملة العدة والتأهب للغزاة فجلس في هذا اليوم على الضفة
التي بجانب دار اعدل عند
طلوع الشمس، وساق كل أمير في طلبه، وعليهم لامة الحرب،
وجروا الجنائب عليها عدة
الحرب دون غيرها من التشاهير والمروات المتخذة للزينة.
وعبرت العساكر خمسة خمسةَ.
فلما طال الأمراء عبروا عشرة عشرةَ، وهلك الناس من الزحام.
وإنما قصد السلطان
عرض العسكر في يوم واحد حتى لا يقال إن أحدا استعار من أحد
شيئا. وكان الناس
يدخلون من باب القرافة ويخرجون من جهة الجبل إلى صوب
باب النصر إلى الدهليز
المضروب هناك. ولما قرب وقت المغرب ركب السلطان وساق
في وسط العساكر في
جماعة يسيرة من سلاح درايته وخواصه، ونزل إلى الدهليز،
ورتب المنازل، ورجع إلى قلعته
وقت المغرب. ثم اهتم الناس بعد ذلك باللعب بالقبق، ولبسوا
خيولهم التشاهير والبراجم
البحرية والمروات والأهلة الذب والفضة والأطلس وغير ذلك.
وساق السلطان إلى ميدان
العيد وبين يديه جنائيه العظيمة وهي مزينة. حكى القاضي
محيي الدين عبد الله بن عبد
الظاهر في السيرة الظاهرية قال: قال لي القاضي فتح الدين
بن سناء الملك وهو صاحب
ديوان الخزائن قبل هذا الوقت بمدة سنة: إن الذي دخل في
المراوات من البنود الأطلس
الأصفر قيمته عشرة ألاف دينار، وما تجدد بعد ذلك لا يحصى.
قال: وشرط السلطان
لكل أمير يصيب القبق فرسا من خيوله بما عليه من التشاهير،
ولكل مفردى أو مملوك أو
جندي خلعة تليق بمثله. ودخل الناس بالرماح بكرة النهار، ثم
شفع السلطان ذلك برمي

النشاب. وحضر رسل الملك بركة في ذلك الوقت ووقفوا مع السلطان وشاهدوا ذلك
واستعظموه، وأقام العسكر كذلك أياما.
وفي تاسع عشر ذي القعدة خلع السلطان على الملوك والأمراء والبحرية والحجاب والمفاردة
وأرباب المناصب من الوزراء والقضاة وأرباب البيوت.
وحضر الناس بالخلع والتشاريف ولعبوا بقية ذلك النهار. فقالت رسل الملك بركة
للسلطان: "هذه عساكر مصر والشام؟". فقال: "بل عساكر المدينة خاصة، غير الذين في
الثغور، والمجردين والذين في إقطاعهم" فعجبوا من ذلك.
ختام الملك السعيد ومن معه
قال: وفي عاشر ذي القعدة من السنة رسم السلطان بعمل سماط عظيم، ومد بالقلعة لختام
الملك السعيد بن السلطان، فأكل الناس وختن الملك السعيد ثم ختن بعده ابن الأمير عز
الدين الحلى، وابن الأمير شمس الدين سنقر الرومي، وولد الأمير سيف الدين سكر، وولد
الأمير حسام الدين بن بركة خان، وولد الملك المجاهد ابن صاحب الوصل، ثم أولاد الملك
المغيث صاحب الكرك الخمسة وولد فخر الدين الحمصي، وجماعة أخر من أولاد الأمراء.
وكان قد تقدم قبل ذلك بكسوة جماعة من الأيتام وأبناء الفقراء بالقاهرة ومصر، فأحضروا
إلى القلعة وختنوا. وحمل السلطان عن الأمراء والخواص كلفة التقادم.
خبر غازية الخنافة
وفي هذه السنة ظهر بخليج القاهرة قتلى، وفقد جماعة من الناس أتهم بهم معارفهم،
والتبس أمرهم. ودام ذلك شهورا. ثم ظهر أن امرأة حسناء وضيئة تسمى غازية كانت
تتبرج بزينة فاخرة وتطمع من يراها من الأحداث في نفسها، ومعها امرأة عجوز، فإذا رأت
أحدا قد مال إليها تعرضت له وخاطبته في أمرها وقالت: هذه لا يمكنها أن تجتمع بأحد
إلا في منزلها خوفا على نفسها. فمنهم من يحمله الغرض على موافقتها فيتوجه معها، فإذا
حصل عندها خرج إليه رجلان فيقتلانه ويأخذان لباسه وما معه. وكانوا ينتقلون من
مكان إلى آخر مخافة الشعور بهم، ثم سكنوا خارج باب الشعرية على الخليج، وكان

بالقاهرة ماشطة مشهورة فجاءتها العجوز وقالت لها: عندنا امرأة قد زوجناها ونحتاج إلى
قماش وحلي تتجمل به بالأجرة على العادة، فأحضري لها ما يمكنك ونحن نزيدك في
الأجرة، وواعدتها أن تأتيها ليلا ففعلت الماشطة ذلك وأتتها ومعها جارية تحمل القماش
والمصاغ، فوصلتها الجارية وعادت، فلما دخلت الماشطة قتلت وأخذوا ما معها، ثم جاءت
الجارية من الغد وطلبت الماشطة فأنكروها، فتوجهت الجارية إلى متولي المدينة، فجاء
وهجم الدار، فوجد فيها الصبية والعجوز، فأخذوهما وقررهما، فأقرتا على نفسيهما وعلى
رجلين آخرين فحبسهما. وجاء أحد الرجلين يتفقد أمرهما في الاعتقال فقبض عليه
وعوقب فأقر ودل على رفيقه وعلى رجل طواب كان يحرق لهم من يقتلونه في قمين الطوب.
فطولع السلطان في أمرهم، فأمر بتسمير الخمسة فسمروا تحت القلعة، وشفع بعض الأمراء
في إطلاق المرأة فأطلقت وفكت المسامير فماتت بعد أيام.
وهدم عوام القاهرة الدار التي
كانوا يسكنونها ويقتلون فيها. وبنيت مسجدا بمأذنة، وظهر في الدار حفيرة فيها قتلى
كثيرة.
وصول رسل الملك بركة
قد ذكرنا أن السلطان كان قد جهز الأمير سيف الدين كشريك والفقيه مجد الدين الروذ
راوري إلى الملك بركة، وأنهما توجها في المحرم سنة إحدى وستين وستمائة وذكرنا عود
الفقيه مجد الدين للمرض الذي أصابه فتوجه الأمير سيف الدين ومن معه من المغل، وكان
اجتماعهم بالأشكري في أنبه، ثم رحلوا إلى القسطنطينية في عشرين يوما. ومنها إلى
اسطنبول، ومنها إلى دفنسيا، وهي ساحل السوادق من جهة الأشكري، ثم ركبوا في
البحر إلى البر الآخر ومسيرة ما بين العشرة أيام إلى يومين، ثم طلعوا إلى جبل يعرف
بسوادق، فالتقاهم وإلى تلك الجهة في قرية اسمها القرم، يسكنها عدة أجناس من القفجاق
والروس واللان. ومن الساحل إلى هذه القرية مسيرة يوم، ثم ساروا من القرم إلى برية يوما
واحدا، فوجدوا بها مقدم عشرة آلاف وهو حاكم على تلك الجهات، ثم ساروا عشرين

يوما في صحراء عامرة بالخركاهات والأغنام إلى بحر إتل، وهو بحر حلو سعته سعة نهر
النيل، وفيه مراكب الروس ومنزلة الملك بركة على طول ساحله.
قال: وحملت إليهم الإقامات في طول الطرقات. ولما قاربوا الأردو تلقاهم الوزير شرف
الدين القزويني.
ثم حضروا عند الملك بركة، وكانوا قد علموا آدابه التي تعتمد معه، وهي الدخول عليه
من جهة اليسار، فإذا أخذت الكتب منهم انتقلوا إلى جهة اليمين، ويكون القعود على
الركبتين. ولا يدخل أحد معه إلى خركاته بسيف ولا سكين ولا عدة، ولا يطأ برجله عتبة
الخركاه، ولا يقلع الإنسان عدته إلا على الجانب اليسار، ولا يترك القوس في القربان، ولا
يخليه موترا ولا يخط في تركاشه نشابا، ولا يأكل الثلج، ولا يغسل ثوبه في الأردو.
قال: ووجد الملك بركة في خركاه تسع خمسمائة رجل مكسوة لبادا أبيض، مستورة من
داخلها بالصندات والخطاي مرصعة بالجواهر واللؤلؤ، وهو جالس على تخت، وإلى جانبه
الخاتون الكبرى، وعنده خمسون أو ستون أميرا على كراسي الخركاه. ولما دخلوا إليه أمر
وزيره بقراءة الكتاب، ثم نقلهم عن اليسار إلى اليمين، وسأله عن النيل، وقال: "سمعت أن
عظماء لابن آدم ممتدا على النيل يعبر الناس عليه؟" فقالوا: "ما رأينا هذا".
قال: وأخذ قاضي القضاة الذي عنده هذا الكتاب وفسره وبعث به نسخة إلى القان.
وقرئ كتاب السلطان التركي على من عنده، ففرحوا به.
وأعادوا الرسل بجوابه، وسير
معهم رسله، فكان وصولهم في ذي القعدة من هذه السنة.
توجه السلطان إلى الإسكندرية
وتقديم سيف الدين عطاء الله على عرب برقة
قال: ولما فرغ السلطان من هذا المهم توجه إلى ثغر الإسكندرية متصيدا، فعد في ذي
القعدة من السنة وسار إلى تروجة، ومنها إلى الحمامات، وسار إلى منزلة الكرش بالقرب
من العقبة الصغرى، وضرب حلفة هناك، ووصلت المسيرة إلى فرب العقبة الصغرى، وعيد
عيد الأضحى، وصلى صلاة العيد، ونحر الأضاحي، وبلغه أن بعض العربان قد عصوا في

البراري، فجرد إليهم جماعة، وحضر جماعو من عرب هوارة وعرب سليم فكتب عليهم
الحجج بعمارة البلاد، وألا يقربوا أحدا من العربان العصاة.
وعاد السلطان إلى الإسكندرية، وصلى في الجامع الغربي، ولعب الكرة بميدانها. وزار
الشيخ الشاطبي، ورجع إلى القاهرة فلما وصل إلى تروجة رسم بتقديم سيف الدين عطاء
الله بن عزار على عرب برقة، وتحدث معه في أمر العربان وكونهم ينتفعون من مصر بأثمان
الخيول المحلوية والأغنام، وأنهم يستنتجون الأغنام ويزرعون ولا يقومون بحق الله. فالتزم
المذكور بحفظ البلاد واستخراج الزكاة من العربان. وأنعم عليه السلطان بصنجق ونقارات،
وتوجه.
قال: ولما وصل السلطان من الإسكندرية وصل شحنة تكريت ومعه جماعة فأحسن
إليهم.
ذكر
واقعة مع الفرنج بالأندلس
ببلاد الأندلس وانتصار المسلمين
كانت هذه الواقعة في سنة اثنتين وستين وستمائة. وورد الخبر بها إلى الاديار المصرية في
سنة ثلاث وستين بمقتضى كتاب ورد في جمادى الآخرة يتضمن انتصار المسلمين على
الفرنج. وأمير المسلمين وسلطانهم يومئذ أبو عبد الله بن الأحمر وكان ألفنش ملك الفرنج قد
طلب منه الساحل من طريف إلى الجزيرة، ومالقة إلى المرية، وحضر بمجموعة، فاجتمع
المسلمون ولقوهم واقتتلوا، فانهزم الفرنج مرارا، وأخذ أخو ألفنش أسيرا. ثم اجتمع الفرنج
في جموع كثيرة ونزلوا على أغرناطة فقتل المسلمون منهم مقتلة عظيمة، وجمعوا من رؤوسهم
نحو خمسة وأربعين ألف رأس، وجعلت تلا، وأذن المسلمون فوقه. وأسر من الفرنج عشرة
آلاف. وذلك في يوم الخميس رابع عشر شهر رمضان سنة اثنتين وستين وستمائة. وانهزم
ألفنش إلى اشبيلية، وكان قد دفن أباه بجامعها فأخرجه من قبره، خوفا من استيلاء
المسلمين عليها وحمله إلى طليطلة، واستعاد المسلمون من الفرنج اثنتين وثلاثين بلدا من
جملتها اشبيلية ومرسية وشريش وغير ذلك.

وفي هذه السنة كانت وفاة الأمير حسام الدين لاجين العزيزي الجوكندار بدمشق، ودفن
بفسح قاسيون. وقيل أنه سم، وأن مملوكه جمال الدين أيدغدي واطأ عليه. وكان شجاعاً
كريما متواضعا يحب الفقراء ويكرمهم ويتولى خدمتهم بنفسه، رحمه الله تعالى.
مقتل الزين الحافظي
وفي أواخر سنة اثنتين وستين وستمائة، أحضر هولاكو زين الدين أبا المؤيد سليمان بن
عامر العقرياني، المعروف بالحافظي، وقال له ما معناه: قد ثبت عندي خيانتك وتلاعبك
بالدول، وأنك خدمت صاحب طبيبا، فخنته، واتفقت مع غلمانه على قتله. ثم انتقلت إلى
خدمة الملك الحافظ الذي عرفت به ونسبت إليه، فلم تلبث أن خنته، وباطنت الملك
الناصر حتى أخرجت قلعة جعبر عن يد مخدومك، ثم انتقلت إلى خدمة الملك الناصر
فخنته معي، ثم انتقلت إلي، فاحسنت إليك إحسانا لم يخطر ببالك أن تصل إلى بعضه مني،
وقد شرعت تعاملني بما عاملت به الملك الناصر. وعدد له ذنوبا أخر من خيانته في
الأموال التي كانت قد ندبه باستخراجها من البلاد، وأمر بقتله هو وأهله فقتل هو أخوته
وأولاده وأقاربه ومن يلوذ بهم، وكانوا نحو الخمسين لم ينج منهم إلا ولده مجير الدين محمد
وولد أخيه اختفى بالسوق وقيل أن السلطان الملك الظاهر تسبب في قتله، فأنه أحسن إلى
أخيه عماد الدين أحمد، ورتب له راتبا كبيرا، وأمره بمكاتبة أخيه واستدعائه، وأنه إذا
وصل كان له ما يقترحه، بشرط المواطأة على هولاكو وإفساد من يقدر على إفساده منهم.
فلما وصلت إليه الكتب حملها إلى هولاكو وقال: إن صاحب مصر إنما يكاتبني بمثل هذا
لتقع الكتب في يدك فتقتلني، وقد عزمت على أن أكاتب الأمراء القائمين بدولته والأعيان،
وأكيده كما كادني. فأبى هولاكو ذلك، فلم يزل يراجعه حتى أذن له. فكاتب جماعة فعلم
السلطان أنها مكيدة، فكتب إليه يشكره على عرض الكتب على هولاكو، ويستصوب رأيه
في عرضها لنزول التهمة عنه، وأمر القصاد أنهم إذا وصلوا إلى شط جزيرة ابن عمر

يتجردوا من ثيابهم ويتجيدوا في إخفاء أنفسهم ليظن أنهم قصدوا السباحة فغرقوا، ففعلوا
ذلك. وجاء نواب التتار فوجدوا الثياب فأخذوها وجهزوا الكتب إلى هولاكو فقرأها.
وكان ذلك من أسباب قتله، والله تعالى أعلم.
واستهلت سنة ثلاث وستين وستمائة
في المحرم منها، وصل الأمير جمال الدين سكز بن الدوادار، وكان أبوه المجاهد دوادار
الخليفة ببغداد، وكانت له نعمة عظيمة، فأحسن إليه السلطان وأمره بطبلخاناه.
وفي صفر من السنة، وقف السلطان الخان بالقدس الشريف وقرئ كتاب وقفه بحضور
السلطان وقاضي القضاة تاج الدين ووقف اسطبلين تحت القلعة يعرف أحدهما بجوهر
النوبى، وحبسهما على وجوه البر.
وفيها في العشر الآخر من المحرم أنهى إلى السلطان أن جماعة من الأمراء والأجناد
اجتمعوا في دار على طلطماج وجرى بينهم كلام كثير أفض إلى الغض من الدولة، فاتصلذلك
بالسلطان وعين له ثلاثة نفرا وسعوا في الكلام في ذلك فأمر بتسميرهم، فسمر أحدهم،
وكحل الثاني، وقطعت رجل الثالث. وأفرج عن بقيتهم، وأمر ألا يجتمع أميران في مكان،
وألا تعمل وليمة ولا ضيافة عن غير موجب، فحسمت مادة الاجتماعيات.
وفي صفر ورد كتاب الأمير عز الدين أيدمر النائب بالكرك أنه رتب راتب الأسمطة
والضيافة بحرم الخليل عليه الصلاة والسلام للوافدين. وكان ذلك قد قطع من مدة طويلة.
وفيها في تاسع عشر شهر ربيع الأول قطع السلطان أيدي جماعة من نواب متولي القاهرة
والخفراء وأصحاب الأرباع والمقدمين، وكانوا ثلاثة وأربعين رجلا، وكان سبب ذلك على ما
حكاه الصاحب عز الدين بن شداد، ظهور شلوح ومناسر بالقاهرة وضواحيها ينهبون
ويقتلون حتى تعرضوا للعريان الذين تحت القلعة، فارتفعت أصواتهم حتى سمعها السلطان
وسأل عن خبرهم فأخبر بصورة الحال، فلما أصبح أتته ورقة الصباح وليس فيها ذكر هذه
الحادثة، فأنكر على متولي القاهرة، فاعتذر أن نوابه لم يطالعوه بها، فأمر السلطان بقطع
أيديهم فمات بعضهم وسلم البعض.

وحكى غيره، عن الأمير عز الدين أيدمر الظاهري، أن السلطان خرج ليلة متنكرا وجعل
يطوف أزقة القاهرة، وكان يفعل ذلك ويتفقد أمور الناس واحوالهم ويسمع من ألفاظهم ما لا
ينقل إليه، فمر في بعض أزقة المدينة فوجد بعض مقدمي الوالي قد امسك امرأة وهو
يتهددها، وهي تقول له: اتقي الله، والله ما أفعل هذا "إلا" من حاجة وأنت تعلم أن عندي
خمسة أيتام. فقال: أما ما أعرف هذا، ولا بد افعل وأصنع. فقالت له تقدم عني ناحية.
وخلعت لباسها وناولته إياه، وقالت: والله ما أمسك سواه أخذه وأطلقها. فعرفه السلطان
ثم لم تكن له همة إلا أن جمعهم وقطع أيديهم، وشاهد فيما قطع، ذلك المقدم بعينه.
وفي هذه السنة توجه السلطان إلى الصيد بجهة العباسة، وذلك بعد عوده من ثغر
الإسكندرية، فرمى البندق، وأصرع جماعة وادعو للسلطان، ومن جملتهم الملك العزيز فخر
الدين عثمان بن الملك المغيث صاحب الكرك.
وتوجه السلطان من العباسة إلى قلعة الجبل فأقام ليلة واحدة، وجهز العساكر، ثم توجه
بعدها إلى الشاموصرع بشرا بالقرب من رأس الماء، وذلك في ثالث شهر ربيع الأول. وكان
سبب توجهه ما بلغه من محاصرة التتار البيرة وكان في هذه السفرة من الغزوات والفتوحات
ما نذكره، إن شاء الله تعالى، في موضعه.
وفي هذه السنة رسم السلطان بتبطيل المزر بالديار المصرية وأن تخرب البيوت التي يعمل
فيها وتكسر مواعين ويسقط من الديوان ارتفاعها، ورسم بتعويض المقطعين عنه. وكتب
بذلك إلى الأمير عز الدين الحلي فابطلها.
ولما فتح السلطان في هذه السفرة ما نذكره من بلاد الفرنج عاد إلى مقر ملكه، وكان رحيله
من أرسوف في يوم الثلاثاء ثالث وعشرين شهر رجب سنة ثلاث وستين وستمائة، ودخوله
إلى القاهرة في يوم الخميس حادي عشر شعبان من السنة، وشق المدينة والأسارى بين
يديه، وعم الناس بالخلع والإنعام، من الأمراء والوزراء والمقدمين والمفاردة والخواص حتى
البرد دارية وجميع الحاشية. وتصدق بجملة عظيمة من الدراهم والغلال على الفقراء، وفرق
كساوي

بالجوامع.
الحريق بالقاهرة
ومصر واتهام أهل الذمة
وما قرره عليهم من الأموال بسببه
وفي هذه السنة في جمادى الآخرة وقعت نار بحارة الباطلية
بالقاهرة، فأحرقت ثلاثا وستين
دارا جامعة. ثم كثر الحريق بعد ذلك بمصر حتى احترق من
رباعها المشهورة ربع فرح،
وكان وقفا على الأشراف بالمدينة وأكثر ربع العادل وغير ذلك.
وكانت توجد لفايف من
المشاق والكبريت والأصناف النفطية على الأسطحة. وشاع
الخبر أن النصارى يفعلون
ذلك لأجل ما فعله السلطان ببلاد الفرنج من إحراق الكنائس.
فجمع السلطان عند عوده
من الشام النصارى واليهود وأنكر عليهم هذه الأمور التي تفسخ
عهودهم، وأمر بتحريقهم،
فجمع منهم عالم كثير تحت القلعة وأحضرت الأحطاب والحلفا.
فسأل أهل الذمة مراحم
السلطان، فقرر عليهم حمل خمسمائة ألف دينار إلى بيت مال
المسلمين، والتزم بتوزيعها
واستخراجها بطرك النصارى، والتزموا أنهم لا يعودون إلى
شيء مما كانوا يعتمدونه من
المنكرات، ولا يخرجون عن الذمة وشرطها وحمل المال المقرر
شيئا بعد شيء.
وفي هذه السنة، اعتقل السلطان الأمير نور الدين زامل بن
علي، وكان قد حصل منه
إساءات وفتن مرة بعد أخرى.وقبض السلطان عليه ثم أطلقه
وأصلح بينه وبين الأمير
شرف الدين عيسى بن مهنا والأمير أحمد بن حجي، والأمير
هارون، وحلفهم، وأعاد
إقطاع زامل إليه وإمرته. فلما توجه لم يتأن إلى أن يصل البلاد
بل ساق من أوائل الرمل
"وهجم على بيوت عيسى" وافسد، وأمسك قصاد السلطان
ومملوك الأتابك المتوجه إلى
شيراز، وأخذ منهم الكتب، وتقرب بها إلى هولاكو، وتوجه إليه
وأطمعه في البلاد فأعطاه
إقطاعا في العراق. وتوجه "زامل" إلى الحجاز فنهب وقتل
وانتهك حرمة الأشراف، وحضر
إلى أوائل الشام. وكان السلطان قد أعطى إقطاعه وإمرته
لأخيه أبي بكر، فراسل زامل
السلطان في طلب العفو، فتقرر حضوره في وقت معلوم وأنه
متى تأخر عنه ليس له عهد ولا

أيمان، فتأخر عن المدة المعينة ثم وصل فاعتقله السلطان .
وفيها : حضر السلطان نعجة قد ولدت خروفًا على صورة الفيل له خرطوم طويل وأنياب
وإلية خروف .
وفيها : جهز السلطان الأخشاب والحديد والرصاص والآلات والصناع ، فكانوا ثلاثة
وخمسين رجلاً لإتمام عمارة الحرم الشريف النبوي . وأنفق فيهم الأموال وجهز معهم
المئونة ، وندب لذلك الطواشي شهاب الدين محسن الصالحي ، ورضي الدين أبا بكر ، والأمير
شهاب الدين غازي بن فضل اليغموري مشدا ، ومحيي الدين أحمد بن أبي الحسين بن تمام
طبيبًا إلى البيمارستان الذي بالمدينة ، ومعه أدوية وأشربة ومعاجين ومراهم وسكر لأجل
من يعتريهم من الجماعة مرض . وكان خروجهم من القاهرة في سابع عشر شرهر رجب .
ووصلوا إلى المدينة في ثاني شوال. واستمر العمل في العمارة إلى سنة سبع وستين
وستمائة. وكان السلطان يمدهم بما يحتاجون إليه من النفقات والآلات .
وفيها: توجه السلطان إلى بحر أشموم ،وغرق عدة مراكب لإصلاحه، وتولى الحفر بنفسه ،
وشاهد الناس على كتفه قفة مملوءة نرابا. فلم يبق أحد من الأمراء وغيرهم إلا بادر وفعل
مثل ذلك . فتنجز ذلك في ثمانية أيام، وذلك في شوال من السنة.
وفي حادي عشرين الشهر رسم السلطان بإبطال حراسة النهار ، وكانت جملة مستكثرة
وكتبت بإبطالها .
وفي الشهر قرئ مكتوب بجامع أشموم بمسامحة الأعمال الدقهلية والمرتاحية بأربعة وعشرين
ألف درهم عن رسوم الولاية والمال المستخرج برسم النقيدي .
وفيه توجه شجاع الدين بن الداية الحاجب رسولا إلى الملك بركة، في كف غارات الملك
بركة عن بلاد الأشكري حسب سؤاله في ذلك، وسير معه ثلاث عمر أعتمر بها بمكة
للملك بركة، وسير معه قمقمان من ماء زمزم، ودهن بلسان وغير ذلك.
وفي ذي القعدة وصل الأمير جمال الدين النجيبي نائب السلطنة بالشام فتحدث السلطان
معه في مهمات، وكتب على يده تذكرة وعاد في ذي الحجة.
تفويض القضاء لأربعة حكام

وفي ذي القعدة سنة ثلاث وستمائة فوض السلطان القضاء بالقاهرة والديار المصرية لأربعة
قضاة، لكل مذهب قاض. وسبب ذلك أن الأمير جمال الدين أيدغدي العزيزي كان يكره
قاضي القضاة تاج الدين بن بنت الأعز ويغض منه عند السلطان لتثبته في أحكامه وتأنية
واحترازه، فانفق أن السلطان جلس بدار العدل فقدمت له قصة من بيت الملك الناصر
تتضمن أنهم ابتاعوا دار من القاضي بدر الدين السنجاري وأن ورثته بعد وفاته ادعوا أنها
وقفت قبل ذلك،فأخذ الأمير جمال الدين أيدغدي ينتقص المتعممين فقال السلطان للقاضي
تاج الدين: "هكذا تكون القضاة ؟ ". فأجابه بالآية:"ولا تزر وازرة وزر أخرى".قال
:"فكيف العمل في هذا؟". قال : "إذا ثبت الوقف يستعاد الثمن من الورثة من مال
مورثهم". فقال السلطان:" فإن عجزوا عن الثمن؟" قال:" الوقف باق على أصله".
فامتعض السلطان لذلك. فلم يتم الكلام حتى تقدم رسول صاحب المدينة النبوية وقال:"
حملت كتاب السلطان إلى قاضي القضاة أن يسلم إلى المال الذي تحت يده من الوقف؛
لأنفقه في فقراء أهل المدينة، فلم يفعل".فسأل السلطان القاضي عن ذلك. فقال:" صدق
هذا الرجل، أنا لا أعرفه، ولا أسلم المال إلا لمن أعرفه وأثق بدينه وأمانته، فإن تسلمه
السلطان أحضرته بين يديه". فقال السلطان:" تخرجه من عنقك وتجعله في عنقي، لا تسلم
المال إلا لمن تختاره وترضاء". وتقدم بعض الأمراء في المجلس وشكي من القاضي تاج الدين
في قضية أخرى هي شهادة لم يثبتها لبعض أولاد خوشد اشيته فقال القاضي:" لم تأتنى
بينة".فقال الأمير:حضرت البينة فلم تسمعها.فسأله السلطان عن امتناعه من سماع
البينة. قال:"لاحاجة إلى ذكر الجواب".فقال الأمير جمال الدين أيدغدي العزيزي للقاضي
نحن نترك مذهب الشافعي لك ويولي السلطان من كل مذهب قاضيا، فرجع السلطان إلى
قوله، وفوض النظر في الأحكام والقضايا إلى حكام أربعة وهم: قاضي القضاة تاج الدين
عبد الوهاب المشار إليه، قاضي الشافعية. والشيخ شرف الدين أبو حفص عمر بن عبد

الله ابن صالح بن عيسى السبكي، قاضي المالكية، والقاضي صدر الدين سليمان قاضي
الحنفية والشيخ شمس محمد بن الشيخ عماد الدين إبراهيم المقدسي، قاضي الحنابلة.
وجعل لهم السلطان أن يولوا في الأعمال نوابا عنهم وخص قاضي القضاة، تاج الدين
الشافعي، بالنظر في أموال الأيتام والأوقاف بمفرده بالديار المصرية، بتقليد سلطاني نسخته
بعد البسملة، ومثال العلامة السلطانية بين السطرين المستعلي بالله.
"الحمد لله مجرد سيف الحق لمن اعتدى، وموسع مجاله لمن راح إليه واغتدى، وموضح
طريقة لمن اقتاد به واقتدى، ومزين سمائه بنجوم تستمد الأنوار من شمس الهدى، الذي
أعذب لشرعه الشريعة المحمدية ينبوعا، وأقامها أصلا مد بثمار الرشد فروعا، نحمده على
نعمة التي ألزمتنا التشييد "في" مباني الإنصاف شروعا".
"ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة نعمر بها من القلوب والأفواه ربوعا.
ونصلي على سيدنا محمد الذي بعثه الله إلى العلم جميعا، صلى الله عليه وعلى آله
وصحبه، صلاة يناجي القائل بها بصيرا سميعا".
"وبعد: فإن أحاق من استوعبت كليات المحامد له بالتعيض، وطافت الممادح من كعبة
العلم بركن منه طواف المفرض لا طواف المفيض وخلد له إرضاءه الأحكام وإمضاء
التفويض، وريش جناحه وإن لم يك بالمهيض، وفسح مجاله وإن كان الطويل العريض، ورفع
قدره على الأقدار، وتقسمت من سحائبه الأنواء، ومن أشعته الأنوار، ووغزر مدة فجرت
منه في رياض الرشد الأنهار، وغدا تخشع لتقواه القلوب وتنصب لفتواه الأسماع وترنو لمحياه
الإبصار، من أوفد إرشاده للأمة والأئمة لطفا فلطفا، وأوقد من علمه جذوة لا تخبو، ومن
عدله قبسا بالهوى لا يطفأ، وفات النظراء والنظار فلا يرسل أحد معه طرفا، ولا يمد إليه
حياء منه طرفا، وقد جاز واحتوى من العلوم على ما تفرق في غيره وغدا خير دليل إلى
الحق، فلا يقتدى في المشكلات إلا برأي اجتهاده، ولا يهتدى في المذاهب إلا بسيره، وأصبح
لفلك الشريعة المحمدية قطبا، ولجثمانها قلبا ولسوارها قلبا وأضحى لدليلها برهانا،

ولإنسانها عينا، ولعينها إنسانا، فكم أرضى بعدله وفضله بني الأيام عن الأيام، وكم أغضى
مع قدرته على الانتقام وكم أمضى حكما لا انفصال لعروته ولا انفصام، وكم أفضى بالحور
إلى ماله وبالعدل إلى الأيتام، فلو استعداه الليل على النهار لأنصفه من تعديه، ولم يداجه
لكونه يستر غليه تعبده في دياجيه، فهو الحاكم بالحق ولو على نفسه، والمسترد الحقوق
الذاهبة حتى لغده من يومه وليومه من أمسه.
"ولما كان المجلس السامي القضائي الإمامي، العالمي والعاملي، الأشرف الزاهدي الأثيري
الماجدي الذخيري الأفضلي الجلالي التاجي، حجة الإسلام، شرف الأنام، مجد الأمة، فخر
الأئمة، صدر الشريعة مقتدى الفرق، رئيس الأصحاب، لسان الحق، ذخر الملوك
والسلاطين، ولي أمير المؤمنين، قاضي القضاة، عبد الوهاب بن القاضي الأجل الأوحد
الأعز أبي القاسم خلف، حرس الله جلاله، ممن هو في أحسن هذه السمات يتصور، وله
أنوار بركات تعد ونجوم السماء بها تتكثر، وقد تجوهر بالعلوم فأصبح التاج المجوهر، وله
مزايا السؤدد التي لا يشك ولا يرتاب، وسجايا الديانة التي إذا دخل غيره إليها من باب
واحد دخل هو إليها من عدة أبواب، وهو شجرة الأحكام ومصعد كلم الحكام، ومطلع
أنجم شرائع الإسلام، ومهبط وجي التقدمات والارتسام وعكاظ قضايا الحلام والحرام".
"خرج الأمر العالي المولوي السلطاني الملكي الظاهري الركني، لا زال ماضيا وبالسداد
قاضيا: بتجديد هذا التقليد الشريف له بقضاء القضاة بالديار المصرية فليحكم جميعها بما
أراه الله من مذهب الإمام المطلي محمد بن إدريس الشافعي، رضي الله عنه، وأموالي
اليتامى على اختلاف أجناسها هي ودائع الأموات، ودخائر كل ممنوع من التصرفات، وقد
أوصى الله بها، وأوسع المتعدي عليها إنكارا وتحذيرا، وخوف من أكلها ظلما، فقال جل
وتعالى: "إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا".
وقد رأينا أن تخصص المجلس السامي بالنظر في جميع أمورها وإذ قد غدت ذخر كل

منقطع فنجعله من ذخرها، فلينظر في جميع أموال الأيتام على اختلاف أجناسها بالقاهرة
ومصر المحروستين والديار المصرية بمفرده وبمن يستنيبه عنه، وليحطها بنظره،ويضبطها
بحسن تأثيره وأثره، وكذلك ما يختص بمذهبه من الجوامع والمناصب والمساجد والربط
والتصديرات والأوقاف،ينظر في جميعها ويولي في أصولها وفروعها، والأوقاف العامة من
الصدقات وغيرها، ينظر فيها بنفسه وبنوابه،حافظا لأمورها وملاحظا لتدبيرها، ومجتهدا في
صلاحها وتثميرها، وليستصحب من ذلك ما هو ملي باستصحابه، وليستمر على إقامة
منار الحق الذي هو موثق عراء ومؤكد أسبابه،عالما بأن كل إنارة أضأنها من قبسه وأن
استضأنا بها في دياجي المنى، وكل ثمرة من مغترسه وإن مددنا إليها يد إلا جنتا، وكل
جدول هو من بحره وإن بسطت إليه راحة الاغتراف وكل منهج هو من جادته وإن ثنيت
إليه أعنة الاستطلاع للإفادة والاستكشاف وهو بحمد الله المجتهد المصيب. والمادة
للعناصر وإن كان يصيبه منها أوفر نصيب، والصادق الذي ينبئ بالحق إذا وامرته
المراسيم، ولا ينبؤك مثل خبير، ووصاياه منها يسترشد، فلا يفاوض فيها، ومنه تتعلم فلا
نكرر عليه ما يستفاد منه من معانيها، والله تعالى يسد بأحكامه الذريعة، ويحمي بها حمى
الشريعة إن شاء الله تعالى، وكتب في ثامن وعشرين ذي القعدة سنة ثلاث وستمائة
بالإشارة العالية المولوية الأتابكية الفارسية وأعزها الله، الحمد لله وحده وصلاته على
سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامه".
ولما فوض السلطان القضاء بالديار المصرية لحكام الأربعة، فعل مثل ذلك بدمشق، وجهز
التقاليد إلى الحكام الذين وقع الاختيار عليهم، وهم: القاضي شمس الدين أحمد بن محمد
بن خلكان الشافعي، على عادته، والشيخ زين الدين عبد السلام الزواوي المالكي قاضي
المالكية، والقاضي شمس الدين عبد الله بن محمد بن عطاء الأذرعي الحنفي قاضي
الحنفية، والشيخ شمس الدين عبد الرحمن بن الشيخ أبي عمر الحنبلي قاضي الحنابلة،

ووصلت تقاليدهم بذلك في سادس جمادى الأول سنة أربع وستين وستمائة، فامتنع المالكي
والحنبلي من قبول الولاية والدخول في باب القضاء، فطولع السلطان بذلك، فورد جوابه
بإلزامهما، وأنهما إن استقرا على الامتناع وصمما عليه يعزلا عما بأيديهما من المناصب
ويخرجا من بلاد السلطان، فقبلا الولاية، وامتنعا من قبول المعلوم المقرر للقضاة وقالا: "نحن
في كفاية عن قبول المعلوم".
القبض على الأمير شمس الدين سنقر الأقرع
وفي ذي الحجة سنة ثلاث وستين وستمائة، قبض السلطان على الأمير شمس الدين سنقر
الأقرع. وسبب ذلك ان رسول الملك بركة أحضر معه رجلا ادعى أنه الملك الأشرف بن
الملك المظفر شهاب الدين غازي، فطلب السلطان من يشهد له بصحة ذلك، فشهد له
المذكور، فبحث السلطان عن أمره، فوجد الأمير شمس الدين المشار إليه بعث إليه
واستدعاه من عند الملك بركة لغرض كان في نفسه، فقبض السلطان عليه واعتقله، واعتقل
من شهد له بخزانة البنود.
القبض على الأمير شمس الدين سنقر الرومي
وذنوبه السالفة
وفي رابع وعشرين ذي الحجة من السنة، أمسك السلطان الأمير شمس الدين سنقر
الرومي. وسبب ذلك؛ أنه كان له مملوك جميل الصورة، فبلغه أن السلطان ربما تعرض إليه
بفعل، فغضب لذلك، وشفع السلطان عنده فيه فلم يقبل شفاعته، وضربه وحمى سفودا من
الحديد وجعله في دبره فمات، فطلبه السلطان من وقته واعتقله. وأما ذنوبه السالفة فإنه كان
جمدار الملك الصالح، وكان مؤاخي الملك الظاهر لما كانا في الخدمة الصالحية وبينهما
صداقة، ولما كان من أمر البحرية ما قدمناه كانا جميعا وكان الملك الظاهر يتفقده بالمال
والقماش، ولما قتل الملك المظفر لم يكن شمس الدين حاضرا، وأعطاه السلطان الإقطاعات
العظيمة فصار يخلو بجماعة بعد جماعة ويفرق عليهم المال الذي ينعم به السلطان عليه،
فاتصل ذلك بالسلطان فأرسل إليه يحذره مع خوشداشيته، فلم يفد ذلك شيئا، وبقى ذلك

في خاطر السلطان، فلما قتل الآن مملوكه وقبض عليه أرسل يقول: "أشتهي أعرف ذنبي"،
فسير السلطان إليه من عدد ذنوبه، فتحسر وقال:" آه، لو كنت حاضرا قتل الملك المظفر
حتى أعاند السلطان في الذي جرى"، وكان قد تكلم بهذا الكلام وشافه السلطان به في
حال إحسانه إليه، واستمر في الاعتقال إلى أن توفي، وكانت وفاته في يوم الأحد عاشر
جمادى الأول سنة ست وسبعين وستمائة.
وفاة قاضي القضاة بدر الدين السنجاري
وشيء من أخباره
في هذه السنة في يوم السبت رابع عشر شهر رجب: كانت وفاة قاضي القضاة بدر الدين
أبي المحاسن يوسف بن الحسن بن علي بن الخضر السنجاري الشافعي، رحمه الله تعالى،
فجأة، وكان قد أكل بطيخا أصفر وسلنجنينيا عقب خروجه من الحمام. ودفن في يوم
الأحد بمدرسته بالقرافة بجوار تربة الإمام الشافعي، وصلى عليه قاضي القضاة تاج الدين
بن بنت الأعز. ومولده بسواد إربل في رابع عشر شهر ربيع الأول سنة ثمان وسبعين
وخمسمائة، وكان قاضيا بسنجار، وكان له على السلطان الملك الصالح من الخدمة بسنجار
ما قدمنا ذكره، فلما ملك الملك الصالح دمشق كما تقدم، ولاه قضاء بعلبك وأعمالها وقرر
له معلوما كثيرا، وكان قد وصل في صحبته، ولما ملك الديار المصرية حضر إليه فأكرمه،
وفوض إليه القضاء بمصر والوجه القبلي، ثم بالقاهرة والوجه البحري كما تقدم ذكر ذلك.
وولي الوزارة كما تقدم أيضا في أيام الملك المنصور نور الدين بن الملك المعز، وكان، رحمه الله
تعالى، مكينا عند السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب، وكان الأمير فخر الدين بن
الشيخ يكرهه، فكتب إلى السلطان الملك الصالح يذكر عنه انه يأخذ من نوابه الأموال، ومن
يعدله من الشهود، وأشباه ذلك، فأجابه السلطان في طرة كتابه: "يا أخي فخر الدين:
للقاضي بدر الدين على حقوق عظيمة لا أقوم بشكرها، والذي وليناه قليل في حقه، وما
قمت له بما يجب على من مكافئته"، فلم يعاوده الأمير فخر الدين في أمره، وبقيت هذه

الورقة عنده في جملة أوراقه، فلما قتل وخلف بنت صغيرة، احتاط ديوان الأيتام على
موجوده فوجدوا هذه الورقة فحملوها إلى بالقاضي بدر الدين، فأوقف الناس عليها، وكان
رحمه الله تعالى، كريما كثير الاحتمال كثير المروءة، حسن العشرة، يقبل الاعتذار، ولا
يكافئ على السيئة بمثلها، بل يحسن لمن ظهرت اساءته، ويبره بماله ويستميله بإحسانه، إلا
أنه شهر عنه في ولاية القضاء قبول هدايا النواب، حتى قيل إنه ربما كان قرر على كل منهم
ما لا يحمله في كل مدة في مقابلة ولايته على قدر الولاية، وكذلك أيضا من يقصد إنشاء
عدالته حتى كثر المعدلون في أيامه، ووصل إلى العدالة من ليس من أهلها، ولما ولي قاضي
تالقضتة تاج الدين أسقط كثيرا من عدوله، ولقد جاء بعد ذلك زماننا وأدركت بقايا عدوله
فكانوا أميز العدول وأجل الناس، ومنهم من ولي قضاء القضاة وبلغ، رحمه الله تعالى،
خمسة وثمانين سنة وثلاثة أشهر، رحمه الله تعالى.
وفي هذه السنة في يوم الاثنين مستهل شعبان توفي الأمير جمال الدين موسى بن شرف الدين
يغمور بن جلدك بلمان بن يغمور استاد دار السلطان الملك الظاهر، وهو الذي كان ينوب
عن الملك الصالح نجم الدين أيوب بدمشق، وكان عالي المنزلة عند الملوك الأيوبية ومن
بعدهم، ودفن بسفح المقطم، وكان مولدهبالقرية اليغمورية بقرب سمهود من الأعمال
القوصية في جمادى الآخر سنة تسع وتسعين وخمسمائة، وهو ياروقي الأصل،: وكان عفيفا
كريما سمحا جوادا، كيسا لطيفا، متواضعا حسن العشرة والسيرة، كثير البر والصدقة،
رحمه الله تعالى.
وفي ذي القعدة سنة ثلاث وستين وستمائة أيضا: أمر السلطان بشنق الشريف حصن الدين
بن ثعلب الجعفري بالإسكندرية، فشنق خارج باب البحر، وكان السلطان قد اعتقله بها،
وسبب شنقه أن الشريف السرسناي أحد عدول الثغر كان يتردد إليه في معتقله لتأنيسه
وقضاء حوائجه، فاتصل بالسلطان أنه أعمل الحيلة في هروبه، وكان الشريف قد حضر إلى
مصر لقضاء حوائج حصن الدين فأحضره السلطان وسأله عن ذلك، فأنكره، فأراه الخطوط

الواردة من الإسكندرية بالشهادة عليه بذلك، وأمر بشنقه فشنق تحت قلعة الجبل. وسير
السلطان عز الدين أيبك الأغا حصاري إلى الإسكندرية فشنق الشريف حصن الدين.
واستهلت سنة أربع وستين وستمائة
في هذه السنة توجه الملك السلطان الظاهر إلى الشام في مستهل شعبان، واستناب بقلعة
الجبل الأمير عز الدين أيدمر الحلى، وجعله في خدمة ولده الملك السعيد هو والصاحب
بهاء الدين، وتوجه. وكان في سفرته هذه من فتوح صفد والغارات على بلاد الفرنج ما
نذكره، إن شاء الله تعالى.
عمارة جسر دامية
وفي جمادى الأول سنة أربع وستين وستمائة، رسم السلطان ببناء جسر على نهر الأردن،
وهو النهر الذي يشق غور الشام، ويسمونه الشريعة. وهذا الجسر هو بقرب دامية، فيما
بينها وبين فراوي. واتفق فيه أعجوبة لم يسمع بمثلها: وذلك أن السلطان ندب الأمير جمال
الدين بن نهار المهندار لعمارته، ورسم أن يكون خمس قناطر. واجتمع الولاة لذلك ومنهم:
الأمير بدر الدين محمد بن رحال متولي نابلس وحصلوا الأصناف وجمعوا الصناع، وعمروه
على ما رسم به السلطان. فلما تكاملت عمارته وتفرق ذلك الجمع اضطرب بعض أركان
الجسر، فقلق السلطان لذلك وأنكر عليهم وأعادهم إصلاح ذلك. فتعذر عليهم لزيادة الماء
وقوة جريانه، فأقاموا كذلك أياما وقد تيقنوا العجز عنه. فلما كان في الليلة المسفرة عن
السابع عشر من شهر ربيع الأولى سنة ست وستين انقطع ماء الشريعة حتى لم يبق بها
شيء منه، فتبادروا وأشعلوا النيران الكثيرة والمشاعل واغتنموا هذه الحادثة وأصلحوا
الأركان وقووها، وأصلحوا منها ما لا كان يمكن عمله. وركبوا من يكشف خبر هذه
الحادثة، فساقوا الخيل فوجدوا كتارا مرتفعا كان يشرف على الشريعة من الجانب الغربي،
والكتار شيء يشبه الجبل وليس بجبل لأن الماء يحله بسرعة كالطين، قد سقط في الشريعة
فسدها، وانسكر الماء وتحامل على جهة الغور مما وراء السكر، فعادوا الخبر، وانقطع الماء

من نصف الليل إلى الرابعة من النهار، ثم تحامل الماء وكسر ذلك الكتار، وجاء طول رمح
فلم يؤثر في ذلك البناء لإتقانه، وحمل الماء ما كان هناك من آلات العمارة. وهذه الحادثة من
عجائب الاتفاق. وهذا الجسر باق إلى وقتنا هذا.
وفي جمادى الأولى تكاملت عمارة الدار الجديدة المرسوم بعمارتها عند باب السر المطل
على سوق الخيل. وعمل بها دعوة للأمراء.
وفي هذه السنة اهتم السلطان بحفر خليج الإسكندرية، وندب الأمير علم الدين المسروري
بذلك. ثم توجه السلطان بنفسه وباشر الحفر وأزيلت الرملة التي كانت على الساحل بين
النقيدي وفم الخليج، ثم عدى إلى بر أبيار، وغرق المراكب هناك وبنى عليها بالحجارة، ثم
رجع إلى القاهرة.
وفي شهر رمضان من السنة وصل إلى دمشق ولد الخليفة المستعصم بالله المسمى بالمبارك
الذي كان عند هولاكو، وصحبته جماعة من أمراء العربان.
فأنزله الأمير جمال الدين النجيبي في أعز مكان. فلما وصل السلطان إلى دمشق سير إليه
جمال الدين بن الدوادار والطواشي مختار، فما عرفاه. وظهر أنه بخلاف ما ادعاه، فسير إلى
مصر تحت الاحتياط.
وفي ذي القعدة وصل شخص آخر أسود ادعى أنه من أولاد الخلفاء، فسير إلى مصر
أيضا.

الوثوب على الأمير عز الدين الحلى وضربه بالسكين وسلامته وقتل الأمير صارم الدين المسعودي
قال: لما كان في يوم الاثنين منتصف ذي الحجة سنة أربع وستين وستمائة جلس الأمير عز
الدين الحلى بدار العدل، ومعه الصاحب بهاء الدين والقضاة، وإذا بإنسان يخترق الصفوف
- وبيده قصة -، فوقف قدامه، وكان بيده سكين بين أثوابه، فضرب بها حلق الأمير عز
الدين. فأمسكها بيده فجرحت يده، ثم رفسه برجله ونام على ظهره وقصد أن يضربه مرة
أخرى أو يضرب الصاحب. فلما رفع يده جاءت السكين في فؤاد الأمير صارم الدين قايماز
المسعودي فمات لساعته. وكان فخر الدين المتولي الجيزة حاضرا فأمسكه ورماه. فوقع

على قاضي القضاة، فضرب بالسيوف فمات. وعرف الضارب أنه من الجانداريه. وكانت
به شعبة من الجنون. ولما وصل الخبر بسلامة الحلى إلى السلطان وهو راجع من أفامية
أعطى مملوك الحلى ألف دينار عينا، وأعطى رفيقه ثلاثة آلاف درهم، واحسن إلى ورثة
المسعودي.
وفي هذه السنة فتحت صفد على ما نذكره، إن شاء الله تعالى.
ورجع السلطان منها إلى
دمشق، وأنعم على أمرائها وقضاتها وأرباب المناصب بالتشاريف.
ونظر السلطان في أمر الجامع الأموي ومنع من مبيت الفقراء به.
وفيها: أبطل السلطان ضمان الحشيشة وأمر بتأديب أهلها.
وفيها: في ثالثذي القعدة توفي الأمير كرمون أغا بدمشق بعد منصرفه من فتح صفد فشهد
السلطان جنازته، ودفن برأس ميدان الحصا عند قباب التركمان.
وفيها: في ليلة عرفة، كانت وفاة الأمير جمال الدين أيدغدي العزيزي وكان قد جرح على
صفد وبقي مدة والألم يتزايد به إلى أن مات، رحمه الله تعالى.
وكان من أكابر الأمراء، وسمع الحديث، وحدث، وكان مشهورا بالشجاعة والكرم والديانة
وسعة الصدر وكثرة الصدقة، وكان قد رتب على نفسه صلة للفقراء من أرباب البيوت
والزوايا في كل سنة تزيد على مائة ألف درهم وألوف أرادب غلة، هذا غير صدقاته. وكان
مقتصدا في ملبسه يلبس الثياب القطن من الهندي والبعلبكي وغيره مما يباح ولا يكره
لبسه. وكان من السلطان بالمنزلة العلية لا يخرج عن رأيه ومشورته سيما في الأمور الدينية
وأحوال القضاة. ومما يدل على ذلك: ما تقدم من إشارته بتولية الحكم لأربعة قضاة.
فرجع السلطان في ذلك إلى رأيه، وفعله لوقته. وكان رحمه الله من حسنات الزمان، وقد
ختم له بالشهادة، فإنه مات من ألم تلك الجراحة. ودفن في مقبرة الملك الناصر بسفح
قاسيون، رحمه الله.

واستهلت سنة خمس وستين وستمائة
عود السلطان إلى الديار المصرية
وبناء الجامع الظاهري

كان خروج السلطان من دمشق في يوم الاثنين ثاني المحرم سنة خمس وستين وستمائة. فلما
وصل إلى منزلة الفوار فارق العسكر وتوجه إلى الكرك. ولما وصل إلى بركة زيزاء تقنطر
على فرسه، وذلك في يوم الأحد ثامن المحرم، فتأخر هناك أياما، ونزل إليه الأمير عز الدين
نائبه بالكرك فأعطاه ألف دينار، وخلع عليه وسير الخلع إلى من بالكرك. ثم توجه في محفة
حملها الأمراء والخواص على أكتافهم والخواص على أكتافهم إلى غزة. ووصل إلى بلبيس في
ثالث عشر صفر فتلقاه ولده الملك السعيد والأمير عز الدين الحلى، وزينت المدينة لمقدمه.
وفي أول شهر ربيع الأول ركب السلطان فرسه وضربت البشائر لذلك، ونزل بباب النصر
وأقام هناك إلى خامس الشهر، ثم توجه إلى بركة الجب لرمي البندق.
وفي شهر ربيع الآخر، سير السلطان الأتابك والصاحب فخر الدين ولد الصاحب لكشف
مكان يعمل به جامعا بالحسينية. فاتفقا على مناخ الجمال السلطانية. فقال السلطان:
"أولى ما جعلت ميداني الذي هو نزهتي جامعا". وركب في ثامن شهر ربيع الآخر
وصحبته الوزير والقضاة ونزل إلى ميدان قراقوش، ورتب أمور بنائه جامعا، وأن يكون بقية
الميدان وقفا عليه، ورجع ودخل مدرسته بالقاهرة.
وفي هذه السنة أمر السلطان بإنشاء القناطر على بحر الرجا فأنشئت، وتولى عمارتها
الأمير عز الدين أيبك الأفرم أمير جاندار فحصل الرفق بها للمسافرين وكانوا يجدون شدة
وإزدحاما بسبب المعادي.
وفي سابع وعشرين شهر ربيع الآخر وصل الملك المنصور صاحب حماة، وكان السلطان
قد توجه إلى العباسة فتلقاه إلى رأس الملء وسير له ولمن معه التشاريف، وعاد السلطان
إلى قلعته. وطلب صاحب حماة التفرج في الإسكندرية فسير إليها وسير في خدمته الأمير
شمس الدين سنقر جاه الظاهري، فوصل إليها وعظم تعظيما كثيرا، ثم عاد، وتوجه في
خدمة السلطان إلى غزة ثم توجه إلى مملكته.
وفي جمادى الآخرة وصلت رسل صاحب الدعوة وصحبتهم جملة من الذهب وقالوا: هذا

المال الذي كنا نحمله قطيعة للفرنج قد حملناه لبيت مال المسلمين، وكان السلطان قد شرط
ذلك عليهم عند وصول رسلهم وسؤالهم الصلح وشرطه على بيت الاسبتار في جملة ما
اشترط عليهم.
إقامة الجمعة بالجامع الأزهر
بالقاهرة المحروسة
وشيء من اخباره
وفي يوم الجمعة ثامن شهر ربيع الأول سنة خمس وستين وستمائة أقيمت صلاة الجمعة
بالجامع الأزهر. وسبب ذلك أن الأمير عز الدين الحلى خاطب السلطان في أمره وتبرع
بجملة من ماله في عمارته، وانتزع أشياء من أوقافه كانت مغصوبة في أيدي جماعة، وشرع في
عمارته، فعمر ما وهي من أركانه وجدرانه وبيضه وبلطه، وأصلح سقوفه وفرشه.
واستجد به مقصورة حسنة، وعمل الأمير بدر الدين بيليك الخازندار الظاهري فيه
مقصورة كبيرة ورتب فيها مدرسا وجماعة من الفقهاء الشافعية، ورتب فيها محدثا يسمع
الحديث النبوي والرقائق، وسبعا لقراءة القرآن. ووقف على ذلك أوقافا، وولى خطابته زين
الدين أدريس بن صالح بن وهيب المصري القليوبي، واستمر به إلى أن توفي. وكانت وفاته
في ليلة السبت رابع عشر من ربيع الآخر سنة إحدى وثمانين وستمائة، ومولده سنة ثمان
عشرة وستمائة.
وهذا الجامع هو أول مسجد جامع وضع للناس بالقاهرة المعزية، وفرغ من بنائه وأقيمت
فيه الجمعة في شهر رمضان سنة إحدى وستين وثلاثمائة. فلما ولي العزيز بن المعز جدد به
أشياء وعمر به عدة أماكن. ويقال إن به طلسم لا يسكنه بسببه عصفور ولا يفرخ فيه،
وفي سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة سأل الوزير أبو الفرج يعقوب بن كلس الخليفة أن يأذن له في
صلة رزق جماعة من الفقهاء، فأذن له. فأطلق كل منهم كفايته واشترى لهم دارا إلى جانب
الجامع، فإذا كان يوم الجمعة حضروا إلى الجامع وذكروا فيه دروس فقه وكان أبو يعقوب
قاضي الخندق، وكانوا نيفا وثلاثين فقيها لأن دولة العبيد بينما كان يستقل فيها بفقيه، ولما
عمر الحاكم الجامع نقل الخطبة إليه.

القصر الأبلق
بالميدان بظاهر دمشق
وفي سنة خمس وستين وستمائة، أمر السلطان الملك الظاهر بإنشاء القصر الأبلق بالميدان
الأخضر بظاهر دمشق، فعمر على ما هو عليه الآن. واتفق في عمارته واقعة غريبة،
حكى بعض من كان يباشر عمارته، قال: لما انتهت عمارة القنطرة التي بالإيوان ولم يبق من
ختمها إلا وضع حجر واحد أسود، فرفع بالجبال بعد أن نحت وجهز ليوضع في مكانه
وتشد به القنطرة، فانقطع الحبل وسقط الحجر إلى أرض الإيوان فانكسر، فتألم المهندس
لذلك، ثم دخل إلى مرحاض القصر العتيق لقضاء الحاجة، "فرأى" في أحد كراسيه حجر
أسود منحوتا، فقاسه فوجده قدر الحجر الذي انكسر سواء، فاستأذن المهندس، الأمير
جمال الدين النجيبي على قلعه ووضعه في رأس القنطرة، فأذن في ذلك، فقلع من كرسي
المرحاض وجعل في رأس القنطرة بالإيوان فختمت به. وجاء كأنه عمل لها، ووضع الحجر
الذي انكسر مكانه. وهذا من عجيب الاتفاق، وقد وقع نظير هذه الواقعة في أساس سور
بغداد وعتبة جامع غزنة، وتقدم ذكر ذلك.
توجه السلطان إلى الشام
وعمارة قلعة صفد
وفي العشرين من جمادى الآخرة توجه السلطان إلى الشام في جماعة من أمرائه وأراح بقية
العسكر. ولما وصل إلى غزة وردت إليه رسل الفرنج بهدية وجماعة من أسرى المسلمين.
وتوجه السلطان إلى صفد بقصد عمارته فرتب أمورها. وتوجه إلى دمشق مسرعا عندما
بلغه أن التتار عزموا على قصد الرحبة، فأقام بها خمسة أيام واهتم بأمر الرحبة وعاد إلى
صفد في رابع وعشرين شهر رجب، فقسم الخندق على الأمراء، وأخذ نصيبا وافرا لنفسه
ومماليكه وحاشيته، وعمل السلطان بنفسه وبيده، فلم أحد من العمل. ولما كملت عمارة
قلعة صفد رسم السلطان أن يكتب على أسوارها:
"ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون".
"أولئك حزب الله، ألا أن حزب الله هم المفلحون" أمر بتجديد هذه القلعة المحروسة

وتحصينها وتكملة عمارتها وتحسينها من خلصها من أيدي الفرنج الملاعين، ووردها إلى
أيدي المسلمين، ونقلها من مسكن أخوة الدواوية إلى سكن أخوة المؤمنين، فأعادها للإيمان
كما بداها أول مرة، وجعلها للكفار خسارة وحسرة، ولم يزل بنفسه يجتهد ويجاهد حتى
عوض عن الكنائس بالجوامع والبيع بالمساجد، وبدل الكفر بالإيمان، والناقوس بالآذان،
والإنجيل بالقرآن ووقف بنفسه التي هي أعز النفوس حتى حمل تراب خنادقها وحجارتها
منه ومن خواصه على الرؤوس، سلطان الإسلام والمسلمين ومسترد صوال الدين،مبيد
التتار، فاتح القلاع والحصون والأمصار،وارث الملك،سلطان العرب والعجم والترك،
إسكندر الزمان، صاحب القرآن أبو الفتح بيبرس قسيم أمير المؤمنين، خلد الله سلطانه،
فمن صارت إليه هذه القلعة من ملوك الإسلام، ومن سكنها من المجاهدين المثاغرين على
الدوام فليجعل لهذا السلطان فاتحها ومجددها نصيبا من أجره، ولا يخله من الرحمة في سره
وجهره في طول عمره، فإنه جعلها دار يمن وأمان، بعد أن كانت دار كفر وطغيان، وصار
يقال عمر الله سرحها، بعد أن كان يقال عجل الله فتحها، والعاقبة للمؤمنين إلى يوم الدين."
ولما كملت العمارة طلع السلطان إلى القلعة فرأى بالبرج صنما كبيرا كان الفرنج يقولون أن
القلعة في خفارته ويسمونه أبا جرج، فأمر بقلعة وتكسيره، وعمر مكانه محرابا.
ورسم بتجديد عمارة حرم الخليل، وكتب بذلك إلى دمشق، وتوجه الأمير جمال الدين بن
نهار لذلك، فجدد الأخشاب والمقاصير والأبواب، ودهن ما يحتاج منها إلى الدهان،
وجددت الضرائح المقدسة.
ووصلت رسل الفرنج إلى السلطان وهو على صفد، وتحدثوا معه في أمر بلادهم، وأجابوا
إلى ما قاله من مناصفة صيدا وهدم الشقيف. ثم أغار على عكا على ما نذكره إن شاء
الله، ولم ينتظم أمر الصلح.
ثم حضرت رسل سيس ورسل بيروت ومعهم جماعة من أسرى المسلمين، وردوا مال
التجار.

وفيها: توفي القاضي صدر الدين موهوب بن عمر بن إبراهيم الجزري الشافعي وهو الذي
كان ينوب عن الشيخ عز الدين بن عبد السلام بمصر، وولى القضاء بعده كما قدمنا ذكر
ذلك، وكان فاضلا عالما بمذهب الشافعي ومشاركا في غيره من العلوم. وكان في مبدأ أمره
على قضاء جزيرة ابن عمر. وكان كثير المال مرزوقا في التجارة، فاكتسب مالا جزيلا فمد
صاحب الجزيرة عينه إلى أمواله وقصد أخذها، فبلغه ذلك، فأرسل أكثر أمواله إلى مصر
والشام صحبة التجار ثم هرب واختفى، ووصل إلى الشام ثم إلى الديار المصرية. ولما ولى
الصاحب بهاء الدين الوزارة قصد أذاه فخافه خوفا شديدا .
حكى عنه أنه قال: لما خفت الصاحب بهاء الدين رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم
في المنام فسألني عن حالي فقلت : يا رسول الله ، إني خائف من الصاحب فقال لي : لا
تخف منه وقل له بأمارة كذا وكذا لا تؤذني ،فإن رسول الله قد شفع في عندك ، قال :
فانتبهت فرحا بمقابلة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولما صليت الصبح ركبت دابتي
ووقفت للصاحب في طريقه إلى القلعة، فسلمت، عليه وقلت له: معي رسالة ، فقال:ممن
هي؟ قلت: من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو يقول لك: بأمارة كذا وكذا لا تؤذني
فأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قد شفع في عندك، فقال : صدقت أنت ، وصدق
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنت اليوم فقد بقيت أتشفع بك إلى رسول الله صلى
الله عليه وسلم ، والله لا حصل لك مني سواء أبدا، فالمولي يرسم والمملوك يتمثل، ومن
اطلع عليه مولانا وله حاجة من مضرور أو مظلوم ترسل إلى تعرفني حتى أقضى حاجته
بنفسي، واعتذر إليه، وبقي يعظمه، ولو فسح في أجله لولاه القضاء بعد القاضي تاج الدين
ولكنه مات قبله. وكانت وفاته في مستهل شهر رجب سنة خمس وستين وستمائة . وقيل
بل كانت وفاته فجأة في تاسع الشهر، ودفن بسفح المقطم. ومولده في النصف من جمادى
الآخرة سنة تسعين وخمسمائة بالجزيرة . ولما مات ترك ما يقارب ثلاثين ألف دينار، وكان له

ابنتان : إحداهما بالجزيرة. والأخرى زوجة القاضي بدر الدين ولد القاضي تقي الدين بن
رزين، فورثتاه وشركهما بيت المال، وكان رحمه الله كثير المروءة والإحسان إلى أهل بلده
ومن يقصده.
وفاة قاضي القضاة تاج الدين بن بنت الأعز
ونبذة من أخباره رحمه الله ومن ولى قضاء الشافعية وغيره من مناصبه بعد وفاته
وفي السابع والعشرين من شهر رجب الفرد سنة خمس وستين وستمائة، كانت وفاة قاضي
القضاة، تاج الدين أبي محمد عبد الوهاب بن القاضي الأعز أبي القاسم خلف بن رشيد
أبي الثناء محمود بن بدر العلامي - ونبو علامة بطن من لخم - وهو المشهور بابن بنت
الأعز والأعز هذا هو جده لأمه، وهو الصاحب الأعز فخر الدين أبو الفوارس مقدام بن
القاضي كمال الدين أبي السعادات أحمد بن شكر، أحد وزراء السلطان الملك العادل
سيف الدين أبي
بكر محمد بن أيوب ، وقد تقدم ذكره في أخبار الدولة العادلية .
ومولد القاضي تاج الدين
ذبالقاهرة في مستهل شهر رجب سنة أربع وستمائة. ولما مات والده الأعز خلف - رحمه
الله تعالى - ترك دنيا عريضة ، فيقال إنه خلف اثني عشر ألف دينار عينا ، وقيل سبعة
الآف، فانفقت والدته ابنة الصاحب الأعز جميع ذلك على نفسها ومن يلوذ بها من أهلها ،
ونشأ فلم يجد شيئا من ذلك ، فما شافهها فيه بكلمة ، وكان بارابها ، وأشتغل بالعلم ،
وولى إعادة المدرسة المعروفة بزين التجار بمصر ، وولى شهادة بيت المال في الدولة الكاملية
. وكان سبب ذلك أن الشريف شمس الدين الأرموي نقيب السادةالأشراف ،رحمه الله
تعالى ، كان يلي تدريس المدرسة المذكورة فتوجه متن جهة السلطن الملاك الكامل في رسالة
واستناب القاضي تاج الدين هذا في التدريس والنظر، فأحسن الخلافة عنه وعمر الوقف
وقام بالوظيفة أحسن قيام، فلما عاد الشريف ووجد الأمر على ذلك، أنهاه إلى السلطان
وشكره وأثنى عليه، فرسم السلطان الملك الكامل له بمباشرة شهادة بيت المال فباشر

ذلك، وكان إذ ذاك على غاية الفاقة، وسلك طريقي الضبط والأمانة، وهذه الوظيفة هي
أول مناصبه الديوانية، فاشتهر بحسن المباشرة والأحتراز، فتقدم في الأيام الصالحية النجمية
وما بعدها، وولى نظر بيت المال، ثم ولى نظر الدواوين بالديار المصرية في أيام الملك المعظم
غياث الدين نورانشاه ابن الملك الصالح، بتقليد معظمي، تاريخه لخميس بقين من ذي القعدة
سنة سبع وأربعين وستمائة، نعت فيه بالحضرة السامية: القاضي، ثم كتب له منشورا كريم
خاتوني بأقطاع لخاصه ولأربعة أتباع. وقد رأيت أن أشرح هذا المنشور بنصه وابين وضعه
ليعلم منه كيف كان الرسم والمصطلح في مثله، وهو أن الموقع كتب عن يمين الدرج ما مثاله:
"الصالحية" بقلم أغلظ من قلم المنشور، ثم كتب البسملة بعد هذه اللفظة بقدر أصبعين
وكتب تلو البسملة ما مثاله: خرج الأمر العالي المولوي السلطاني الخاتوني الصالحي الجلالي
العصمي الرحيمي، زاده الله شرفا ونفاذا، أن يجري في إقطاع المجلس السامي، القاضي
الأجل، الصدر الكبير، الرئيس الفقيه، العلم الإمام، الفاضل الأوحد، العامل المرتضي،
الكامل المجتني، المختار تاج الدين مجد الإسلام بهاء الأنام اختيار الدولة، مجتبي الملوك
السلاطين، فخر الرؤساء، علم العلماء، شرف الفقهاء، رضي أمير المؤمنين عبد الوهاب بن
خلف الناظر بالدواوين المعمورة، أدام الله رفعته ونعمته، ما رسم له به الآن من الإقطاع
لخاصه ولأربعة أتباع معه في السنة ما يأتي ذكره.
خاصه: الثلثان من أبواب الهلالي بمدينة الفيوم. كفور سفط رشين خارجا من بني شريان،
ومعصرة أبي دخان، ودبيس، وهي منشأة ابن مليح، كوم بني مؤمنة، كوم الحمير، كوم
مغنين، منشأة حراز، فزونة، قيالة الحعاف. وذلك في الإقطاع لاستقبال مغل سنة سبع
وأربعين وستمائة بعد الإعتداد على غايته بما قبضة من الجامكية لاستقبال المدة من جملة
ما يعوض به، وفي الخدمة مستهل المحرم منها.
أتباعه وعدتهم أربعة في السنة: ستة عشر ألف درهم ناصرية جهة ذلك من متحصل
السدس من بحيرة تنيس لاستقبال تاريخ عرضهم بالديوان المعمور بعد الخط الشريف، أعلاه

الله، وثبوته حيث ثبتت مثله.
كتب في ثامن ربيع الأول سنة ثمان وأربعين وستمائة، وبين السطرين الأول والثاني بخطها ما
مثاله: والده خليل.
ورأيت في هذا المنشور أشياء تستغرب ويستنكر مثلها في وقتنا هذا: وهو أن بيت
العلامة الذي هو بين السطرين كتبت فيه الملكة، وفيه تحت خطها بين السطرين: خط ناظر
الدواوين ومثاله: ليثبت بديوان النظر على الدواوين المعمورة إن شاء الله تعالى، وخط شاد
الدواوين: امتثل الخط الشريف، وبينهما في بيت العلامة أيضا: خط ناظر الفيوم ومثاله:
ليثبت إن شاء الله تعالى بديوان نظر الفيوم. وما معه وفي سامته السطر الثاني ما مثاله:
ليثبت بالديوان المعمور مما يختص بالوجه القبلي، واسفل منه ما مثاله: ليثبت بالديوان
المعمور بالوجه البحري، وإلى جانبه عن يسار ليثبت بديوان الجيوش المنصورة إن شاء الله
تعالى، ثم بعد ذلك خطوط الكتاب، ولعل ناظر الفيوم الذي كتب في هذا الموضع هو شرف
الدين هبة الله الفايري الذي ولى الوزارة فيما بعد، فإنه كان ناظر الصناعة والفيوم في ذلك
الوقت، والله أعلم.
ثم ولى القاضي تاج الدين نظر بيت المال في الأيام المعزية، بتوقيع تاريخه ثالث عشر صفر
سنة إحدى وخمسين وستمائة، وقرر له في كل شهر خمسون دينارا، وفي السنة مائتا أردب
واثني عشر أردبا نصفين، ثم ولى بعد ذلك نظر الدواوين. فهذه مناصبة قبل أن يلي القضاء
والوزارة. ثم ولى قضاء القضاة بمصر والوجه القبلي في تاسع شهر رمضان سنة أربع
وخمسين وستمائة، عوضا عن القاضي بدر السنجاري، وجمع له القضاء بالقاهرة والوجه
البحري في الشهر المذكور لثمان بقين منه، وعطل القاضي بدر الدين السنجاري عن
القضاء. ولما ولى القضاء شدد على العدول وأسقط كثيرا منهم، فكان يكتب الإسجالات
بأسقاط عدالة جماعة بعد جماعة من عدول السنجاري، ويشهد على نفسه بما تضمنته،
فقلق الناس لذلك، ولما تطل مدة ولايته هذه، فإنها عزل في بعض شهور سنة خمسة

وخمسين وستمائة كما قدمنا ذكر ذلك، ثم فوضت إليه الوزارة بالديار المصرية كما تقدم
ذكره، ثم عطل عن الوزارة والقضاء في الأيام المظفرية - قطز - إلى أن كانت الدولة الظاهرية
الركنية، ففوض السلطان الملك الظاهر له قضاء القضاة بجميع الديار المصرية في السابع عشر
من جمادى الأول سنة تسع وخمسين وستمائة، عوضا عن القاضي بدر الدين السنجاري،
ثم أفردت عنه مصر والوجه القبلي في السنة المذكورة، وفوض ذلك إلى القاضي برهان
الدين الخضر السنجاري، ثم أعيد ذلك إليه في الثامن من صفر سنة ستين وستمائة. وقد
شرحنا مضمون تقاليد هذه الولايات في مواضعها. وفوض غليه تدريس المدرسة الصالحية
النجمية بتوقيع ظاهري تاريخه ثاني عشر جمادى الأول سنة ستين وستمائة بعد وفاة الشيخ
عز الدين بن عبد السلام. ثم فوض إليه النظر العام على الأشرف والأوقاف والأحباس،
ومشهد السيد الحسين ومدرسة الإمام الشافعي، والخانكاه والمشاهد بالباب الشريف
وبجميع أعمال الديار المصرية بتوقيع ظاهري تاريخه السابع من جماد الآخر سنة ستين
وستمائة. وفوض إليه تدريس مدرسة الشافعي بتقليد تاريخه نصف ذي الحجة سنة
إحدى وستين. ثم قسم القضاء بين أربعة حكام، فكتب له تقليد كما تقدم تاريخه ثامن
عشر ذي القعدة سنة ثلاث وستين، وخص بالنظر في جميع أموال الأيتام بالقاهرة ومصر
والديار المصرية بمفرده والأوقاف، وقد شرحنا ذلك. واستمر كذلك إلى أن مات رحمه الله
تعالى، وكان رحمه الله، كثير الاحتراز والتحفظ، وضبط ناموس الشرع، وإقامة الحرمة،
وكف الأيادي العادية، والتطلع على جهات الأوقاف، وأخبار العدول، وغير ذلك مما هو
متعلق بمنصب الشرع الشريف. ولما مات، رحمه الله تعالى، قسم قضاء الشافعية بعده،
ففوض قضاء مصر والوجه القبلي للقاضي محيي الدين بن الصلاح عبد الله بن قاضي
القضاة شرف الدين محمد بن عين الدولة الصفراوي. وفوض قضاء القاهرة والوجه البحري
للقاضي تقي الدين محمد بن الحسين بن رزين. وولى النظر علة ديوان الأحباس القاضي تاج

الدين أبو الحسن علي بن الشيخ أبي العباس أحمد المعروف بالقسطلاني، وولى تدريس
المدرسة الصالحية القاضي صدر الدين أبو حفص عمر ولد قاضي القضاة تاج الدين المشار
إليه. وولى نظر الخانقاه قاضي القضاة شمس الدين الحنبلي، وولى تدريس مدرسة الإمام
الشافعي فخر الدين محمد بن الصاحب بهاء الدين.
وفيها أيضا: توفي الأمير ناصر الدين الحسين بن عزيز بن أبي الفوارس القيمري مقدم الجيش
بالساحل، وكانت وفاته في ثالث شهر ربيع الأول بالساحل، ومولده في سنة ستمائة بقيمر،
وهو الذي بنى المدرسة الشافعية بدمشق بناحية مادنه فيروز. وكان جوادا كريما جليلا
مقدما تقدمن على جيوش الشام في الأيام الصالحية الناصرية وكان جميع الأكراد في طاعته
وخدمته. وكان في أمره في الأيام الناصرية أنفذ من أمر السلطان لانقياد الجيوش إليه. ثم
خمل في الأيام الظاهرية إلى أن أقطعه السلطان الملك الظاهر إقطاعا بالساحل، وقدمه على
أمراء الساحل، فصلحت حاله، وكان مقامه بجنين، رحمه الله تعالى.
وصول الشريف بدر الدين مالك بم منيف وإعطائه نصف إمرة المدينة النبوية على ساكنها
أفضل الصلاة والسلام
وفي سنة حمس وستين وستمائة: وصل الشريف بدر الدين مالك بن منيف بن شيحة،
وكان على صفد، فشكى من الشريف عز الدين جماز، وقال: إن المدينة كانت بين أبي
وبينه نصفين،
وتوفي والدي وأنا صغير، فظلمني وأخذ نصيبي، وقد جئت مستجيرا بالسلطان في رد
حقي. فكتب السلطان إلى الشريف جماز يأمره بتسليم النصف الذي كان لمنيف لولده
مالك، وكتب تقليده بنصف إمرة المدينة ونصف الأوقاف، وسلم إليه نصف الأوقاف التي
بمصر والشام، وتوجه. وورد جواب الشريف عز الدين جماز إلى السلطان بامتثال الرسوم،
وأرسل خادمين من خدام الضريح النبوي يشهدان بذلك، فكتب السلطان إليه يشكره على
ذلك.
ثم عاد السلطان إلى مقر ملكه بقلعة الجبل. وكان وصوله إليها في يوم الثلاثاء رابع ذي

الحجة سنة خمس وستين وستمائة.
تسمير من يذكر بالقاهرة
وفي العشرين من ذي الحجة من السنة بعد عود السلطان إلى الديار المصرية بتسمير جماعة
كانوا معتقلين بحزانة البنود منهم: أقش القفجاقي أحد المماليك الصالحية، وكان قد أدعي
النبوة وأحضر في شهر رمضان إلى دار العدل، فأمر نائب السلطنة باعتقاله. فلما حضر
السلطان إليه أمره فاستحضره وسمع كلامه وأمر بتسميره.
ومنهم: الناصح الواحي كان في ابتداء أمره ضامن الواحات، ثم ترقى إلى أن ولي نظر
أخميم وأسيوط وغير ذلك بالوجه القبلي. وكان يركب بالطبلخاناه، وقويت نفسه وكثرت
أتباعه واتسعت أمواله. فأرسل السلطان وقبض عليه وأمر باعتقاله بخزانة البنود، فأنهي
إلى السلطان أنه اتفق مع الملك الأشرف بن شهاب الدين غازي ومع رجل نصراني على أن
ينقبوا خزانة البنود ويخرجوا منها ويتوجهوا إلى الواحات فيتسلطن بها الملك الأشرف
ويكون الناصح وزيره والنصراني كاتبه، فأمر السلطان بتسميرهم، فسمروا في يوم واحد.
واستهلت سنة ست وستين وستمائة
أخذ الزكاة من عرب الحجاز
كان السلطان قد اهتم بأمر الزكاة من سائر الجهات حتى المغرب والحجاز، وأذعن عربان
بلاد برقة لذلك وقاموا بالزكاة.
وفي صفر سنة ست وستين وستمائة: وصل الأمير ناصر الدين بن محيي الدين الجزري
الحاجب من المدينة النبوية، وكان توجه لاستخراج الزكاة والعشر، فأحضر صحبته مائة
وثمانين جملا وعشرة آلاف درهم فاستقلها السلطان وأمر بردها عليه، ثم وصل بنو صخر،
وبنو لام، وبنو عنزة وغيرهم من عربان الحجاز، والتزموا بزكاة الغنم والإبل، وتوجه معهم
مشدون لاستخراج ذلك. هذا والسلطان على صفد لعمارتها.
ظهور الماء بالقدس
وفي سنة ست وستين وستمائة: ورد كتاب قاضي القدس أن الماء انتزح من بئر السقاية
وعظمت مشقة الناس رجل البئر وشاهد قناة مسدودة من زمن بخت نصر الذي هدم
البيت المقدس، فأحضر الأمير علاء الدين الحاج الركني "نائب القدس" بنائين وكشف القناة

السليمانية، ومشوا فيها تحت الأرض إلى الجبل الذي تحت الصخرة المقدسة فوجدوا بابا
مقنطرا ففتحوه، فخرجت عين ماء كادت تغرقهم. وكان خروج الماء في ذي الحجة سنة
خمس وستين.
ووردت كتاب الأمير الحاج علاء الدين الركني أنه نقص ماء السقاية الذي ظهر ونزح، ودخل
الصناع إليه فوجدوا سدا، فنقب فيه الحجارون مقدار عشرين يوما ووجد سقف مقلفط
به مائة وعشرين ذراعا بذراع العمل، فخرج الماء وملأ القناة.
وفي هذه السنة: وصلت هدية صاحب اليمن ورسله، وأحضر من الخيل المسومة عشرون
فرسا بالبركسطوانات الأطلس المزركشة وفيلة وحمارة وحش عنابية اللون، وغير ذلك من
المسك والعنبر والعود والصيني وغيره، فقبلت هديته، وجهزت له هدية وصنجق وخلعة
وشعار السلطنة وجوشن وكبش وغيره من آلة الحرب، وسير إليه طيور جوارح. وكوتب
بالمقام العالي المولوي السلطاني، وكاتبه السلطان بالمملوك. وتوجه بالهدية فخر الدين المقري
ووصل صحبة أحد رسوليه - وهو ابن الماكساني التاجر - بها، وذكر أن والده صاحب
اليمن سير به للمجاهدين ولوجوه البر، فأودع ثمنه بالخزانة. ولما توجه السلطان إلى الغزاة
أنفق منه جملة في إقامة مجانيق أفردها لها، وأفتك ببقيته جماعة من أسارى المسلمين.
الحبيس النصراني ومقتله
هذا الحبيس من نصارى مصر، وكان في ابتداء أمره من كتاب صناعة الإنشاء، ثم ترهب
وانقطع في جبل حلوان، فيقال إنه وجد في مغارة منه ما لا للحاكم العبيدي كان قد وضعه
هناك، فتصدق هذا الحبيس على الفقراء من سائر الملل. واتصل بالسلطان خبره فطلبه،
وطلب منه المال، فقال: "أما أني أعطيك من يدي إلى يدك فلا يتصور، ولكنه يصل إليك
من جهة من تصادره ولا يقدر على ما تطلبه منه، فأساعد بمال يحمله إليك" وشفع فيه،
فأطلقه السلطان.
ولما كانت واقعة النصارى المتقدمة، كان يحضر عند مشد المستخرج، ومن عجز عن أداء
ما قرر علي ساعده به وأداه عنه، نصراني كان أو يهوديا. وكان يدخل إلى الحبوس ويطلق

منها من عليه دين ويقوم بما عليه. وكان يعطي ما ينافر العقول. وتوجه إلى الصعيد، ودفعه
عن أهل الذمة أكثر ما قرر عليهم، وتوجه إلى الإسكندرية، وعامل أهلها بما هالهم من بذل
الأموال. فوصلت فتاوى الفقهاءإلى السلطان بقتله، وعللوه ذلك: "خوف الفتنة". فوافق
ذلك رأي السلطان فأحضره في سنة ست وستين وستمائة، وطلب منه المال وأن يعرفه من
أين أصله، وكيف حصل له، فلم يعرفه فجعل يغالطه ويدافعه، إلى أن قرر عليهم، وتوجه إلى
الإسكندرية، وعامل أهلها بما هالهم من بذل الأموال. فوصلت فتاوى الفقهاء إلى السلطان
بقتله، وعللوه ذلك: "خوف الفتنة". فوافق ذلك رأي السلطان فأحضره في سنة ست
وستين وستمائة، وطلب منه المال وأن يعرفه من أين أصله، وكيف حصل له، فلم يعرفه
فجعل يغالطه ويدافعه، إلى أن قرر عليهم، وتوجه إلى الإسكندرية، وعامل أهلها بما هالهم
من بذل الأموال. فوصلت فتاوى الفقهاء إلى السلطان بقتله، وعللوه ذلك: "خوف الفتنة".
فوافق ذلك رأي السلطان فأحضره في سنة ست وستين وستمائة، وطلب منه المال وأن
يعرفه من أين أصله، وكيف حصل له، فلم يعرفه فجعل يغالطه ويدافعه، إلى أن قرر عليهم،
وتوجه إلى الإسكندرية، وعامل أهلها بما هالهم من بذل الأموال. فوصلت فتاوى الفقهاء
إلى السلطان بقتله، وعللوه ذلك: "خوف الفتنة". فوافق ذلك رأي السلطان فأحضره في
سنة ست وستين وستمائة، وطلب منه المال وأن يعرفه من أين أصله، وكيف حصل له،
فلم يعرفه فجعل يغالطه ويدافعه، إلى أن يأس السلطان منه فعذبه حتى مات. وأخرج من
القلعة ورمي بظاهرها على باب القرافة. وذكر أن مبلغ ما وصل إلى بيت المال وما واسى
به من مدة سنين: ستمائة ألف دينار عينا، مما أحصى بقلم الصيارفة اللذين كان يجعل
الأموال عندهم ويكتب إليهم أوراقة بما يعطيه. وذلك غير ما كان يعطيه سرا من يده.

ذكر بناء القرية الظاهرية قرب العباسة

وفي سنة ست وستين وستمائة: مر السلطان على وادي السدير قرب العباسة فأعجبه.
فأختار منه مكانا بنى به قرية سماها الظاهرية، وعمر بها جامعا.

وفيها: توجه السلطان إلى الشام. وكان ما نذكره إن شاء الله تعالى من الفتوحات.
إيقاع الحوطة السلطانية على الأملاك
والبساتين وما تقرر على أربابها من المال
وفي سنة ست وستين وستمائة: لما كان السلطان نازلا على الشقيف أمر بإيقاع الحوطة
على البساتين والقرى والضياع التي بأيدي أهل دمشق ملكا وحبسا. وقال: "نحن فتحنا
هذه البلاد بالسيف، وانتزعناها من أيدي التتار". وكان قد تحدث بذلك في السنة الخالية.
وعقد مجلس حضره السلطان والقضاة والفقهاء، فقال قاضي القضاة شمس الدين بن عطاء
الحنبلي: "هذا لا يحل ولا يجوز لأحد أن يتحدث فيه" وقام مغضبا، فتوقف السلطان ثم
تقدم الآن بإيقاع الحيطة على البساتين فاتفق وقوع صقعة باردة على البساتين فأحرقت أكثر
أشجارها، فظن أهل دمشق أن هذه الحادثة تبعث السلطان على الإفراج عنها فلم يقعل،
ولما وصل إلى دمشق وعزم على العود إلى الديار المصرية عقد مجلسا بدار العدل حضره
القضاة والفقهاء وأهل البلد، وأجرى ذلك ذكر البساتين وأخرج فتاوى الفقهاء من الحنفية
باستحقاقها، فتوسط الصاحب فخر الدين بن الصاحب بهاء الدين عند السلطان على أن
يقرر على أصحاب البساتين ألف ألف درهم، فامتنعوا من ذلك. وقالوا: "لا طاقة لنا بها
معجلة"، وسألوا أن يقسطها، فامتنع السلطان، وتمادى الحال إلى أن خرج من دمشق، ولما
وصل إلى منزلة اللجون عاوده الصاحب فخر الدين والأتابك والأمراء، فاستقر الحال أن
يعجلوا منها أربعمائة ألف درهم ويعقد لهم نواب السلطان من المغل، ويقسط ما بقي، في كل
سنة مائتي ألف درهم، وكتب بذلك توقيع وقرئ على المنبر بدمشق.
وصول الأمير شمس الدين سنقر الأشقر من بلاد التتار
والصلح مع التكفور إيتوم صاحب سيس
كان السلطان قد جهز العساكر إلى سيس، واسروا ليفون بن هيتوم ولد صاحب سيس
على ما نذكره، إن شاء الله تعالى، فترددت الرسل منه إلى السلطان يعرض عليه كل ما تقرر
عليه من مال وقلاع. فاقترح السلطان عليه أمورا، منها أن يحضر الأمير شمس الدين سنقر

الأشقر من بلاد التتار، وأن يرد القلاع التي أخذها من المملكة الحلبية، فسأل مهلة سنة إلى
أن توجه إلى الأردو، وكشف خبره وأجيب إلى إطلاقه. ثم ورد كتاب صاحب سيس
يذكر أنه حصله. وورد كتاب الأمير شمس الدين المذكور بعلائم وأمايز. فتوقف صاحب
سيس في الإجابة إلى رد بعض القلاع، فرد السلطان رسله وكتب إليه: "إنك إذا كنت
قسوت على ولدك وولي عهدك، أنا أقسو على صديق ما بينه وبيني نسب، ويكون الرجوع
منك لا مني. ونحن خلف كتابنا. ومهما شئت افعل بسنقر الأشقر". فلما وصل إليه هذا
الكتاب والسلطان إذ ذاك على أنطاكية خاف وبذل ما رسم به السلطان، وتقرر الصلح
على تسليم قلعة بهسنا والدربساك ومزريان ورعبان والروب وشيح الحديد؛ وجميع ما كان
أخذه من بلاد الإسلام، وردها بحواصلها كما تسلمها، وإطلاق الأمير شمس الدين سنقر
الأشقر، وأن يطلق السلطان له ولده وولد أخيه وغلمانهما. وأنه يحضر رهينة باسال أخ
الملك، ويسير ريمون اخ زوجة الملك ليفون، ويبقى باسيل المأسور بن كندا صطبل هو
وهؤلاء رهائن على تسليم القلاع. وكتبت الهدنة بذلك في شهر رمضان بأنطاكية.
وأرسل السلطان الأمير بدر الدين بجكا الرومي على خيل البريد إلى قلعة الجبل، فأحضر
ليفون وتوجه به إلى أبيه على خيل البريد في حادي عشر شوال. ثم توجه الأمير سيف
الدين بلبان الرومي الداودار إلى سيس لتقرير فصول رسم بها السلطان. ولما وصل ليفون
إلى أبيه أطلق الأمير شمس الدين سنقر الأشقر. وكان السلطان يتصيد بجرود بالقرب من
بلاد حمص مما يلي دمشق، فلما بلغ السلطان، قربه، ركب مختفيا والتقاه وأحضره معه إلى
الدهليز وباتا جميعا. ولما أصبح واجتمع الناس للخدمة خرج إليهم السلطان والأمير شمس
الدين في خدمته، فبهت الناس لرؤيته. وانعم عليه السلطان بالأموال والخلع والحوائص
والخيل والبغال والجمال والمماليك وجميع ما يحتاجه الأمراء ولما حضر إلى الديار المصرية
أمره، وبنيت له دار بقلعة الجبل. وأما القلاع المذكورة فتسلمها نواب السلطان، وأطلقت

الرهائن.
ولما ترتبت هذه المصالح وفتحت هذه الفتوحات العظيمة التي نذكرها، رجع السلطان من
أنطاكية ووصل إلى شيزر، وتوجه منها في البرية إلى حمص للصيد. ووصل السلطان إلى
دار النائب بحمص في ثلاثة نفر وهم: الأمير بدر الدين بيسرى، والأمير بدر الدين الخزندار،
والأمير حسام الدين الدوادار. ثم دخل دمشق في سادس عشرين شهر رمضان والأسرى
بين يديه، وخرج منها في ثامن عشر ذي القعدة، وعيد بأم البارد "وهي السعيدية" ورحل
إلأى قلعته في حادي عشر ذي الحجة وحمل عن الناس كلفة الزينة.
وفيها: توفي الصاحب عز الدين عبد العزيز بم منصور بن محمد بن محمد بن محمد بن
وداعة الحلبي. وقيل أنه كان في ابتداء أمره خطيبا بجبلة، ثم اتصل بالملك الناصر وصار
من خواصه، فولاه شد الدواوين بدمشق، وكان يعتمد عليه. فلما ملك السلطان الظاهر
ولاه وزارة الشام، فوقع بينه وبين الأمير علاء الدين طيبرس نائب السلطنة مفاوضة اقتضت
حضوره إلى الديار المصرية، ثم أعيد إلى الوزارة بالشام عندما فوض السلطان نيابة السلطنة
بدمشق للأمير جمال الدين النجيبي كما تقدم، فوقع بينه وبينه "خلاف" أيضا، فكان يهينه،
فكتب إلى السلطان يذكر أن الأموال قد انكسرت، وأن الشام يحتاج إلى مشد تركي شديد
المهابة مبسوط اليد وتكون أمور الأموال والولايات والعزل راجعة إليه، وقصد بذلك رفع يد
الأمير جمال الدين النجيبي عن الأموال، وظن أن المشد يكون بحكمه ولا يتصرف إلا عن
أمره. فرتب السلطان في المشد الأمير علاء الدين كشتغدى الشقيري وبسط يده حسب ما
اقترح ابن وداعة، فلم يلبث أن وقع بينهما "خلاف" وكان يهينه بأنواع "الإهانات" ويسبه،
فيشمو ذلك إلى النجيبي فلا يلبي دعوته، ويقول له: "أنت طلبت مشدا تركيا، وقد جاء ما
طلبت".
ثم كاتب الشقيري في حقه، فورد الجواب بمصادرته، فصادره وضربه بالمقارع وعصره
وعلقه، فكان كالباحث عن حتفه بظلفه، وباع موجوده وأماكن كان قد وقفها وحمل ثمن

ذلك، ثم طلب إلى الباب السلطاني فتوجه، وحدث نفسه بالعود إلى منصبه، فأدركته
منيته، فمات في ذي الحجة من السنة، ودفن في مستهل المحرم سنة سبع.
واستهلت سنة سبع وستين وستمائة
في هذه السنة في أولها،جهز السلطان من كان عنده من رسل الملوك فتوجهوا إلى مرسليهم
تجديد الحلف للملك السعيد
وفي يوم الخميس تاسع صفر سنة سبع وستين وستمائة:جلس السلطان في مرتبته،وجلس
الأمير فارس الدين الأتابك والأمير عز الدين الحلي بين يديه،والصاحب بهاء الدين ، وكاتب
الإنشاء .وكان قبل ذلك يتحدث مع الأمراء في أمر ولد الملك السعيد وتفويض الأمور إليه
فأجابوا بالسمع والطاعة. وحلف الأمراء في هذا اليوم وسائر العساكر المنصورة.
وفي ثالث عشر الشهر ركب الملك السعيد في الموكب كما يركب والده، وجلس في الإيوان،
وقرئت عليه القصص. وفي العشرين من الشهر قرىء تقليده بتفويض السلطنة إليه. وهو من
إنشاء المولى فخر الدين بن لقمان وخطه.
ونسخته بعد البسملة والعلامة السلطانية الظاهرية:
" الحمد لله الذي أجزل العطاء والمواهب، وضاعف النعماء التي يفيض شعابها، وأموه
العيون نواضب، وضاعف عزا لا يعز معه مقصد، ولا يتعذر معه المطالب، وحلي عطا
الأيام بالمحاسن التي تستر بها ما ظهر من المعايب. أحمده على نعمه التي تجلي بنورها ظلم
الغياهب، والألطافلاالتي نظمت من المجد عقدة المتناسق ورده المتناسب".
"وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تبلغ بها يوم الإشهاد قاصيه المنى،
وتجعل كل صعب هينا. وأشهد أن محمد عبده الذي صدع بالحق معلنا. ورسوله الذي
أظهر الإسلام وما تباحد عزمه ولا انثني، صلى الله عليه وعلى آله الذين شيدوا من المعالي
البنا، وأصحابه الذين أحسنوا الله يحب من من كان محسنا " .
" وبعد: فإنا لما أتانا الله تعالى من السلطان الذي ملك به العز ما جمح ، والقدرة التي قربت
من الآمال ما نزح ، والمهابة التي ملأت عيون الأعداء بالذل لا الوطف، والعزايم التي أذكرت

من مواقف المهاجرين والأنصار ما سلف، والهمم التي نهضنا بها لفتح معاقل الكفار ،
والجهاد الذي كانت أثارنا فيه من أحسن الآثار، والغزوات التي كان معروفها منكرا، والوقائع
التي نصر الله فيها حزب الإيمان فأضحى الدهر ينشر حديثه متعطرا ، وشدأزرنا بولدنا
الملك السعيد الأجل الكبير العالم العادل ناصر الدين بركه خاقان ، امتع الله الإسلام ببقائه ،
وأفرعيون المجد بنصر لوائه،وتوسمنا فيه مخايل السعادة بادية الغرر،وظهرت فيه أدلة النجابة،
والأدلة إذا ظهرت لاتستتر، وبدت فيه مساع أوجبت له مزبة التكريم، وعم فيها فضله
فتغين أن يخص بالتعظيم، ولاحت منه إشارات يعرب عن الرشد، وتدل أنه في تدبيره حسن
القصد، وسما نور هلاله فاتفقت النفوس أن يكون بدرا كاملا، ووثقت الآمال أن يرجع حاليا
كل ما كان عاطلا،رأينا أن نفوض إليه حكم كل ما أمضى الله فيه حكمنا من البلاد،
وتحققنا أن رائد نظرنا في أمره يصدق فيما اختار من الارتياد. وقلدناه أمر الديار المصرية
والبلاد الشامية والقلاع والحصون، وهي: الديار المصرية، البلاد الشامية، البلاد الحلبية،
البلاد الحموية، البلاد الحمصية. فهذا الملك إليه ممتد الرواق، ودو نظامه يتزين بحس
الإنساق، ونواحيه مع اتساع محروسة بهممه، فكأنه خصر اشتمل عليه النطاق ،ونعم الله
محروسة معه بالشكر ، مقيده عنده بالإطلاق ، والدين الحنيفي من عزمه عالي المنار ،
والنفوس واثقة أن تكون بناصره دائمة الانتصار ، وأخبار نصره تحفظها الليالي مما تكرره
ألسن العمار ، ومهابته تسري إلى قلوب الأعداء فتحول منها الأفكار ، والدولة الزاهرة به
محاطة الأرجاء ، وسحائب إحسانه متدفق الأنواء ، وآثار نعمة الله فيها ظاهرة ، والله
يحب أن يرى على عبده أثر النعماء.والشريعة المطهرة بتأييده نافذة الأحكام ، وأمورها
مرعية بهممه التي أضحت المعالي أنها لا تنام.وأطلقنا تصرفه وحكمه في الخزائن والأموال،
وتعيين الإقطاعات في الغيبه منا والحضور.وأمرنا أن لايرد أمره في جميع ما يقتضيه رأيه
الشريف من الأمور .فبيديه الحل والعقد ،وإلى أبوابه ينتهي القصد .فقد أضحى بحمد الله

حلية للمجد،والأيام تزهو به كما تزهو الدرر بواسطة العقد،وإليه في الأمور النقض
والإبرام.وعليه المعتمد في فصل الأحكام.وإليه ترجع الولاية والعزل،وهو الفرع الذي زكا،ولا
يزكو الفرع إلا إذا كان طيب الأصل.ومن شيمته الإقتداء بنا في بسط الإحسان والعدل
وإحياء سنتنا مما يضفيه على الأولياء من ملابس
الفضل،واقتفاء آثارنا في غزو بلاد
الكفار،والمجاهدة التي تطول بها أيدي الكماة بالسيوف القصار،وإلى الله نرغب أن يوفقه
لمراضيه،ويلهمه رشده فيما يستقبل من أموره،ويمضيه ويؤيده بالنصر الذي تروى أحاديثه
وتتلى،ويمده بتوفيقه الذي يرشده من الضلال ناشئا وكهلا، ويساعده بالتأييد الذي يستجد له
ذكرا خالدا لايبلى، والظفر الذي تستحلى أحاديثه إذا أعيدت، وإن كان الحديث المستعاد
لايستحلى. ونسأل كل واقف على هذا التقليد أو من يسمع به الأمراء والنواب والعساكر
المنصورة - أيدهم الله تعالى - امتثال أمره، والقيام بما يجب عليه من طاعته في سره
وجهره، والنهوض في خدمة ركابه، والاجتهاد في تسهيل ما يصعب من طلابه، والمسير عند
سيره تحت علمه، والالتجاء في السراء والضراء إلى حرمه، والوفود إلى جنابه المنيع المريع،
فهو بحمد الله كعبة تحج عليها الآمال، وحرم خفف ما على الأعناق من أعباء الخدم
الثقال. والاعتماد على الخط الشريف أعلاه، وكتب في عاشر صفر سنة سبع وستين
وستمائة.
وقرئ هذا التقليد بالإيوان بحضور الأمراء وأعيان الدولة واستمر جلوس الملك السعيد
وركويه.
وفي ثاني عشر جمادى الآخرة توجه السلطان إلى الشام واستصحب أكابر الأمراء وجماعة
من العسكر المنصور. وفي غرة شهر رجب شرع السلطان في النفقة في الأمراء الذين
صحبته، ونزل أرسوف لكثرة مراعيها.
ووصل إليه رسل أبغا بن هولاكو ، فقرئعلى السلطن كتابه ومعناه الرغبة في الصلح ، وأعاد
الرسل بالجواب ، وكاتب أبغا نظير ما كاتبه به .
توجه السلطان على البريد إلى الديار

متنكرا وعوده إلى مخيمه بخربة اللصوص ولم يعلم من به بتوجهه
قال القاضي عبد الله بن عبد الظاهر في السيرة الظاهرية عن هذه الوقعة حسبما أملاه
السلطان من لفظه: لما خرج السلطان من دمشق ، بعد تجهيز رسل أبغا ، ودع الأمراء كلهم
وتوجهوا إلى الديار المصرية ، ولم يبق معه من الأمراء الأكابر غير الأتابك، والمحمدي ،
والأيدمري ، وأبن أطلس خان ، وأقش الرومي ، توجه إلى القلاع ، فابتدأ بالصبيبة ومنها
إلى الشقيف وصفد ، وبلغه وفاة الأمير عز الدين الحلى ، فكتب إلى الأمير شمس الدين
آقسنقر استاد الدار بالحضور بالأثقال والعساكر إلى خربة اللصوص والعسكر قد خيم
بها. وخطر له التوجه إلى الديار المصرية ، فكتب إلى النواب بالشام بمكاتبة الملك السعيد
والإعتماد على أجوبته ، ورتب أنه كلما جاء بريد يقرأ عليه ويخرج علائم على دروج بيض
تكتب عليها اجوبة البريد ، واستقرة هذه القاعدة مدة .
وفي رابع عشر شعبان أظهر تشويشا ، وأحضر الحكماء إلى الخيمة وحصل احتفال ظاهر
بهذا الأمر ، وأصبح الأمراء فدخلوا وشاهدو مجتمعنا في صورة متألم ، وكتب إلى دمشق
باستدعاء الأشربة .
وتقدم إلى الأمير بدر الدين الأيد مري وسيف الدين بكتوك جرمك الناصري ، بأنهما
يتوجهان إلى حلب على خيل البريد ، وودعاه وصحبتهما بريدي ، وتوجها في ليلة السبت
سادس عشر شعبان ، وأوصاهم أنهم إذا ركبوا يحيدون إلى خلف الدهليز ليتحدث
معهم مشافهة .
وجهز آقسنقر الساقي في البريد إلى الديار المصرية زأعطاله تركاشة ، وأمره بالوقوف خلف
خيمة الجمدارية خلف الدهليز . ولبس السلطان جوخة مقطعة وتعمم بشاش دخاني
عتيق ، وأراد أن يخرج ولا يعلم به الحارس ، فأخذ قماش نوم لأحد المماليك ، وطلب
خادما من خواصه وقال له : ها أنا خارج بهذا القماش فامش أمامي ، فإن سألك أحد
فقل : هذا بعض البابية معه قماش أحد الصبيان حصل له مرض وما يقدر يحضر إلى
الخدمة هذه الليلة ، وهذا غلامه خارج إليه بقماشه .

فخرج بهذه الحيلة ، وتوجه إلى الجهة التي واعد آقسنقر إليها . وكان قد سير بهاء الدين
أمير آخور ومعه أربعة أرؤس من الخيل ، وأمره أن يقف بها في مكان ، فتوجه إليه ، وأخذ
آقسنقر الخيل ، وسير بهاء الدين أمير آخور إلى التل فأحضر الأيدمري ورفقته ، وساق بهم
السلطان وهم لايعرفونه فلما اختلطوا قال للأيدمري :" تعرفني ؟" قال : " أي والله " ،
وأراد النزول لتقبيل الأرض فمنعه . وقال : لجرمك " تعرفني " ، فقال : " إيش هذا ياخوند
" ؟ فقال له : "لاتتكلم " وكان معهم علم الدين شقير مقدم البريدي فصاروا خمسة ، معهم
أربعة جنائب
من خيل السلطان الخاص .
وساقوا إلى جهة مصر ، فوصلوا إلى القصير المعيني نصف الليل ، فدخل السلطان ليأخذ
فرس الوالي ، فقام إليه يهاوشه بأربعين خمسين راحلا ، وقال له : " هذه الضيعة ملك
السلطان ما يقدر أحد يأخذ منها فرسا، فإن رحتم وإلاقاتلناكم " .
فتركوه وتوجهوا إلى بيسان فأتوا دار الوالي وقالوا : " نريد خيلا للبريد ".
فقال : " انزلوا خذوا " ، فنزلوا ،وقعد السلطان عند رجلي الوالي وهو نايم .
ثم قال للأيد مري " الخلائق على بابي وأنا على باب هذا الوالي لايلتفت إلى، ولكن الدنيا
نوب " .وطلب من الوالي كوزا فقال : " ما عندنا كوز ، إن كنت عطشان اخرج واشرب "
فأحضر له الأيدمري كوزا شرب منه . وركبوا فصابحوا جينين ، فوجدوا خيل البريد بها
عرجا معقرة ، فركب السلطان منها فرسا ما كاد يثبت عليه من رائحة عقوره . ولما
وصلوا العريش قام السلطان والأمير سيف الدين جرمك ونقيا ابلشعير . فقال السلطان
للأيدمري : " أين السلطنة ، واستاد الدار ، وأمير جا ندار الخلق الوقوف في الخدمة ؟
هكذا تخرج الملوك من ملكهم ، وما يدوم إلا الله سبحانه وتعالى " .
ووصلوا إلى قلعة الجبل ليلة الثلاثاء الثلث الأول، فأوقفهم الحراس حتى شاوروا الوالي.
ونزل السلطان في باب الأسطبل وطلب أمير آخور، وكان قد رتب مع زمام الأدر أنه لا

يبيت إلا خلف باب السر ، فدق السلطان باب السر ، وذكر علايم لزمام الأدر ، ففتح
الباب ، وأحضر السلطان رفقته إلى باب السر ، وأقام هووهم يومي الثلاثاء والأربعاء وليلة
الخميس لايعلم بهم أحد إلا زمام الأدر ، وهو ينظر إلى الأمراء وغيرهم في سوق الخيل .
فلما قدم الفرس للملك السعيد يوم الخميس قدم أمير آخور للسلطان فرسه . ولم خرج الملك
السعيد ما أحس إلا والسلطان قد خرج إليه ،فخاف، فلما عرفه قبل الأرض ، وركب
السلطان وخرج والوقت مغلس ، فأنكر الأمراء ذلك ووضعوا أيدهم على قبضة سيوفهم
وطلعوا في وجه السلطان فلما حققوه قبلوا الأرض . وساق السلطان إلى ميدان العيد ،
وعاد إلى القلعة ، فقضى أشغال الناس،ولعب الكرة يوم السبت .
وتوجه يوم الأحد إلى مصر لرمي الشواني ، وركب في الحراريق ، وسافر ليلة الأثنين على
البريد . ولما قربوا من الدهليز المنصور رد الأيدمري وجرمك إلى خيامهم ، وأخذ
السلطان جراب البريد على يده وفي كفه فوطة ، وتوجه راجلا ودخل من جهة الحراس ،
فمانعه حارس وأمسك الحارس أطواقه ونتشه ، فانجذب منه ودخل من باب الدهليز .
وركب عصر يوم الجمعة ، وحضر الأمراء إلى الخدمة ، فأظهر أنه كان متغلث المزاج ،
وضربت البشائر بالعافية ، ولم يدر بهذه الأمور إلا الأتابك واستاد الدار وخواص الجمدارية
.
وفي هذه السنة في تاسع جمادى الآخرة رسم السلطان بأبطال الخواطي من القاهرة ومصر
والديار المصرية ، وأمر بحبسهن وتزويجهن .
وفيها أيضا وردت الأخبار أن زلزلة حدثت ببلاد مسيس أخربت قلاعها مثل سر فند
كار،وحجر شعلان ، وقتل بسببها جماعة حتى سال النهر دما .
وفاة الأمير عز الدين أيدمر الحلى
"الصالحي نائب السلطنة"
لما خرج السلطان لسماع رسالة الملك أبغا خرج الأمير عز الدين المذكور في خدمته ، فلما
استقر السلطان طلب دستورا وتوجه إلى دمشق لملاحظة أملاكه، فلما دخل السلطان إلى

دمشق أطلق له شيئا كثيرا، وزار السلطان فقيرا بجبل الصالحية ومعه الأمير عز الدين، فقام
عز الدين ليجدد الوضوء، فقال الشيخ للسلطان:"هذا يموت في هذه الأيام ولا يخرج من
دمشق"، وكان إذ ذاك كالأسد قوة، فمرض في اليوم الثاني،وتوفي في أوائل شعبان سنة سبع
وستين.وحضر ولده إلى الدهليز بخربة اللصوص فأحسن السلطان إليه وسيره إلى القاهرة.
ولما وصل السلطان إلى القاهرة أمره بأربعين فارسا.
وفيها: توفي الأمير أسد الدين سليمان بن الأمير عماد الدين داود عز الدين موسك
الدوادى الهذباني، من بيت الإمرة وله اختصاص كبير بالملوك والتقدم عندهم. وجده
الأمير عز الدين من أكابر الأمراء الصالحية، وترك أسد الدين هذه الخدم وتزهد ولازم
مجالس العلماء، ولبس الخشن من الثياب، وكانت له نعمة عظيمة ورثها من أبيه فأذهبها،
ولم يبق له سوى ريع أملاكه، فكانت تقوم بكفايته إلى أن توفي في يوم الثلاثاء مستهل جمادى
الأول بدمشق، ودفن بقاسيون وله شعر حسن، رحمها لله تعالى.
توجه السلطان إلى الحجاز
قال: لما قوى عزم السلطان على الحجاز الشريف كتم ذلك، وأنفق ونفى من جيشه، وجرد
جماعة صحبة الأمير جمال الدين أقش الرومي السلاح دار، وهم المتوجهون صحبة
السلطان، وجرد العساكر التي بقيت صحبة الأمير شمس الدين آفسنقر أستاد الدار إلى
دمشق، فنزلوا بظاهرها.
وتوجه السلطان إلى الكرك في صورة أنه يتصيد، فوصل إلى الكرك في مستهل ذي القعدة،
وكان رسم بتجهيز جميع ما يحتاج إليه برسم الحجاز هناك.
فسير الثقل في رابع ذي
القعدة، وتوجه السلطان في السادس من الشهر إلى الشوبك، وتوجه منه في حادي عشر
الشهر، ووصل إلى المدينة النبوية، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، في الخامس والعشرين
منه، فزار ورحل في السابع والعشرين. فقدم مكة، شرفها الله تعالى، في خامس ذي الحجة،
فتصدق بصدقات وافرة وكساوي كثيرة، وبقي كأحد الناس بغير حاجب، ثم غسل

الكعبة، وبقي في وسط البيت، ومن رمى له إحرامه غسله له بما ينصب من الماء في
الكعبة ويرميه إلى صاحبه،ثم جلس على باب الكعبة وأخذ بأيدي الناس ليطلع بهم إلى
الكعبة.وتعلق أحد العوام به
فلم يصل إلى يده لازدحام الناس عليه، فتعلق بإحرامه وكاد يرميه إلى الأرض وهو
مستبشر بهذا الأمر، وعلق كسوة البيت الشريف ورفعها بيده على أركان البيت الشريف
هو وخواصه. وسبل البيت الشريف لسائر الناس، وتردد إلى الصالحين. وكان قاضي
القضاة صدر الدين سليمان معه في طول الطريق يستفتيه. وكتب إلى صاحب اليمن كتابا
ينكر عليه أمورا وكتب فيه: "سطرتها من مكة وقد أخذت طريقها في سبع عشرة خطوة"
يريد بالخطوة المنزلة. وقضى السلطان فرض الحج ومناسكه كما يحب، محلق، ونحر،
وأحسن إلى أميري مكة، شرفها الله تعالى: الأمير نجم الدين أبي نمى، والأمير إدريس بن
قتادة، إلى صاحب ينبع و"أمير" خليص، وزعماء الحجاز كلهم، وطلب أميرا مكة نائبا من
السلطان، فرتب شمس الدين مروان. وزاد أميري مكة جملة من الغلال في كل سنة بسبب
تسبيل البيت الشريف، وزاد أمراء الحجاز، إلا جما ومالك أميري المدينة، فإنهما انتزحا من
بين يديه.
وخرج السلطان من مكة، شرفها الله تعالى، في ثالث عشر ذي الحجة، ووصل إلى المدينة
في العشرين منه، وخرج في بكرة النهار الثاني، ووصل إلى الكرك في يوم الخميس سلخ ذي
الحجة.
واستهلت سنة ثمان وستين وستمائة
واستهلت سنة ثمان وستين وستمائة والسلطان الملك الظاهر بقلعة الكرك، فأقام بها حتى
صلى الجمعة، وركب من الكرك بعد الصلاة مستهل المحرم في مائة فارس جريدة، وعلى يد
كل واحد من أصحابه جنيب، وساق إلى دمشق. فلما قارئها والناس لا يعلمون شيئا من
حاله ولا يجسر أحد يتكلم، سير أحد خواصه في البريد بكتب البشاير بسلامته وقضاء
حجة إلى دمشق. فأحضر الأمير الأمير جمال الدين النجيبي الأمراء وغيرهم ليقرأ عليهم

كتاب البشري، فبينما هم في ذلك وقد بلغهم أن السلطان في الميدان. فتوجه إليه الأمير
جمال الدين النجيبي فوجد السلطان قد نزل بالميدان بمفرده ووهب فرسه لإنسان من مناديه
سوق الخيل عرفة وقبل الأرض بين يديه وحضر الأمراء إلى الخدمة وأكلوا شيئا، وتوجهوا
ليستريح السلطان، فقام وركب في جماعته اليسيرة وتوجه إلى حلب، فعادوا إلى الخدمة فلم
يجدوا أحدا. ودخل السلطان حلب والأمراء في الموكب فساق إليهم فما عرفة أحد، وبقي
ساعة ثم عرفة الصروري، فنزل في الأمراء وقبلوا الأرض، ونزل بدار السلطنة بحلب،
وشاهد قلعتها، وعاد منها، فوصل إلى دمشق في ثالث عشر المحرم، ولعب الكرة وركب في
ليلته وتوجه إلى القدس والخليل عليه الصلاة والسلام فزار تلك الأماكن المقدسة وتصدق.
وكان العسكر المصري قد سبقه صحبة الأمير شمس الدين آقسنقر استاد الدار إلى تل
العجول. هذا كله وما غير عباءته التي عليه، وذلك كله في عشرين يوما. وركب من تل
العجول ووصل إلى قلعة الجبل في ثالث صفر.
ثم توجه إلى ثغر الإسكندرية في ثاني عشر صفر ودخل الثغر في الحادي والعشرين من
الشهر. وكان الصاحب بهاء الدين قد سبقه إلى الثغر وجهز الأموال والتعابي من الأقمشة،
فخلع على الأمراء وأنعم عليهم بالتعابي والنفقات. ولعب الكرة بالإسكندرية. وخرج منها
إلى الحمامات، ونزل بالليونة، وابتاعها من وكيل بيت المال.
وبلغه حركة التتار فعاد إلى قلعته، فوصل إليها في ثامن ربيع الأول سنة ثمان وستين
وستمائة.
توجه السلطان إلى الشام جريدة
قال: ولما بلغ السلطان حركة التتار، وأنهم تواعدوا مع فرنج الساحل، وأن التتار أغاروا
على الساجور بقرب حلب، وعلى جهة أخرى وأخذوا مواش العربان، فأراح العسكر
وجرد الأمير علاء الدين أيدكين البندقدار بجماعة من العسكر ليقيموا في أوائل البلاد
الشامية. وركب في جماعة يسيرة من قلعته، وذلك في ليلة الاثنين حادي عشرين شهر ربيع
الأول ووصل إلى غزة، وتوالت الأمطار، فوصل إلى دمشق في سابع شهر ربيع الآخر،

ووردت إليه الأخبار برجوع التتار لما بلغهم خروجه، فأغار على عكا، واستولى على بلاد
الإسماعيلية على ما نذكره إن شاء الله تعالى. واقام السلطان بالشام بقية سنة ثمان وستين
وستمائة.
وفي هذه السنة نصيب الدارابزين على الحجرة الشريفة النبوية. وذلك أن السلطان لما
توجه إلى الحجاز رأى الضريح النبوي والزوار تقف إلى جانب الحائط، فرأى أن يعمل
داربزبنا ليكون حرما حول الحجرة، فأمر بعمله، فعمل وكمل، وسير إلى المدينة في سنة ثمان
وستين صحبة الشيخ مجد الدين عبد العزيز بن الخليلي، فنصب.
وفيها: كانت وفاة قاضي القضاة محيي الدين أبي الفضل يحيى بن قاضي القضاة محيي
الدين أبي المعالي محمد بن قاضي القضاة زكي الدين أبي الحسن علي بن قاضي القضاة
مجد الدين أبي المعالي محمد بن قاضي القضاة زكي الدين أبي الفضل يحيى بن على بن عبد
العزيز العثماني. وكانت وفاته بفسطاط مصر في رابع عشر شهر رجب سنة ثمان وستين.
ودفن بالقرافة.
ومولده بدمشق في ليلة الجمعة الخامس والعشرين من شعبان سنة ست وتسعين
وخمسمائة، ورياسته وأصالته أشهر من أن يأتي عليها.
وفيها: توفي الصاحب فخر الدين محمد بن الصاحب بهاء الدين على، وزير الصحبة،
ضحى يوم الاثنين الحادس والعشرين من شعبان ودفن بكرة نهار الثلاثاء بتربتهم بالقرافة.
ومولده في اثنين وعشرين وستمائة بفسطاط مصر، وفوضت وزارة الصحبة بعده لولده
الصاحب تاج الدين محمد.
وفيها: نوفي الصاحب الوزير زين الدين أبو يوسف يعقوب بن عبد الرفيع بن زيد الزبيري،
المعروف بابن الزبير نسبة إلى الزبير بن العوام الأشدي رضي الله عنه. وكانت وفاته في
ليلة الأربعاء رابع عشر شهر ربيع الآخر.ومولده سنة ست وثمانين وخمسمائة. وكان عالما
فاضلا رئيسا يتكلم باللغة التركية. وزر للملك المظفر فظفر،ثم وزر بعده للسلطان الملك
الظاهر أياما،
ثم عزله، فلزم داره إلى أن مات، رحمه الله تعالى، وكان له شعر حسن رقيق.

وفيها: توفي الشيخ الإمام الخطيب أصيل الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن عمر بن
على العوفي الأسعردي المولد. قدم دمشق في الدولة الصالحية وولى الخطابة بها. ثم عزل
بالشيخ عز الدين بن عبد السلام، وعاد ثم عزل بالقاضي عماد الدين بن الحرستاني. وانتقل
إلى الديار المصرية صحبة الملك المظفر في سفرته التي قتل فيها. وتولى خطابة الجامع
الصالحي خارج بابي زويلة. وتولى نيابة الحكم بالشارع الأعظم نيابة عن قاضي القضاة
بدر الدين السنجاري. واستمر على الخطابة والحكم إلى أن توفي في يوم الجمعة رابع عشر
جمادى الآخرة سنة ثمان وستين في بيت الخطابة قبل صلاة الجمعة، وجاء ريس المؤذنين كما
جرت العادة فوجده ساجدا وعليه ثياب الخطابة وقد قضى نحبه، فأحضر ولده في تلك
الساعة وأعلم بموت والده، فطلع النبر وخطب وصلى بالناس. ودفن الخطيب في بكرة يوم
السبت بسفح المقطم بقرافة سارية. وكان لطيفا حسن العبادة والصوت. وله تصانيف
ونظم ونثر، رحمه الله تعالى.
واستلت سنة تسع وستين وستمائة
في هذه السنة، توجه السلطان إلى عسقلان في سابع صفر فهدمها وعفي آثار عمارتها
ورمى حجارتها في ميناها، وعاد فوصل إلى قلعته في ثامن شهر ربيع الأول.
وفيها: هلك الملك المحبير هيتوم بن قسطنطين صاحب سيس؛ ووردت مطالعة ولده ليفون
في سابع عشرين شهر ربيع الأول مضمومها:أنه لما كان في خامس عشرين تشرين الأول
ترهب والده وانتقل إلى الدير وخرج عن أمور الدنيا. فلمافلما كان في نهار الثلاثاء ثامن
عشرين تشرين الأول وهو حادي وعشرين ربيع الأول مات وقت مغيب الشمس، وسأل
شموله بالمراحم السلطانية في ضمه إلى جناح الرحمة. فكتب بتغريته بأبيه وتهنئته بما صار
إليه من الملك، وإطابة قلبه.
القبض على الملك العزيز فخر الدين
عثمان بن الملك المغيث صاحب الكرك
والأمراء الشهر زورية
قد ذكرنا أن السلطان لما تسلم الكرك من المشار إليه بعض القبض على والده أمره بمائة

فارس. واستمر المذكور في الخدمة الشريفة ولازم السلطان
في أسفاره وغزواته. وكان يلعب
معه بالكرة، ويحضر معه في أوقات الصيد وغير ذلك من مشاهده
العامة. وظهرت منه
شهامة. وأحسن رماية النشاب وأخذ نفسه في ذلك بمأخذ
الفرسان الشجعان. ولما كان
السلطان
على هدم عسقلان أفرد له جانبا يهدمه، فمر السلطان عليه في
بعض الأيام وهو قائم
يستعمل الرجالة ومحثهم على الهدم ويجتهد فيما هو فيه.
فبينما السلطان ينظر إليه ويتأمله
إذا انهدم ما تحته من البناء فوثب من مكانه وألقى نفسه إلى
الأرض ووثب أخرى فسلم
والسلطان ينظر إليه. فعجب السلطان من اهتمامه مع حداثة
سنه. ثم عاد إلى ما كان
عليه من الهدم ولم يتأثر لذلك. وبينما السلطان في أواخر هدم
عسقلان ورد عليه كتاب
نائبه الأمير بدر الدين الخزندار يستحثه على العود إلى قلعة
الجبل، ويعمله أنه لا يأمن وثوب
الأمراء الشهرزورية، وأن قدرته تضعف عن مقاومتهم في غيبة
السلطان. وحال ورود كتابة
أمر الناس بالرحيل ورجع لوقته إلى الديار المصرية. ولما رجع
رمي الملك العزيز بقوة وحش
بيده في أثناء الطريق وحملها إلى السلطان والأمير شمس
الدين المذكور: انظر إلى هذا
الصغير وما هو عليه، والله ما يقصر. فقال له سنقر الأشقر:
لقد ربيت حية صغيرة بين
ثيابك تنتفع بها إذا كبرت. وكان سنقر الأشقر يكرهه لقبض أبيه
عليه وتسليمه للملك
الناصر واعتقاله كما تقدم، فأراد مكافأته في ولده. ولما وصل
السلطان إلى قلعة الجبل في
ثامن شهر ربيع الأول، كما تقدم، نزل إلى الميدان في يوم
الثلاثاء الثاني عشر من الشهر ولعب
الكرة، ودخل الملك العزيز على عادته إلى الميدان ولعب بالكرة
فجاء الأمير شمس الدين
سنقر الأشقر ليأخذ الكرة منه، والملك العزيز مجتهد في
ضربها، ورفع جوكانه ليضربها فوقع
في رأس الأمير شمس الدين ولم يقصد ذلك، فكاد أن يسقط
إلى الأرض لولا "أن" اعتنق
عنق فرسه حتى سكن ما به من ألم الضربة. فجاء السلطان إليه
وهو يمازحه، فقال له:

"كاد هذا الصغير أن يرميك عن فرسك حتى اعتنقت رقبته."
فنظر إلى السلطان وقال:
"والله إن كان اليوم ما رماني، فغدا يرميك أنت، وهذا الصبي
والله لك بئس الذخيرة". فلما
كان في يوم الخميس رابع عشر الشهر جلس السلطان في
مجلسه واستدعى الأمراء
الشهرزورية وهم عشرة منهم: الأمير بها الدين يعقوبا، وتوتلت
وسنقران وقبض عليهم،
وقبض على الملك العزيز معهم واعتقلوا، ثم أحضر الأمراء
الشهرزورية وغيرهم وقررهم،
فاعترفوا أنهم قصدوا قتل الملك السعيد ابنه، وقيامهم بالأمر
فإن أطاعهم الناس وإلا أقاموا
الملك العزيز، فسألهم: "هل كان هذا الأمر عن مباطنته؟"
فحلفوا أنه لم يطلع على ما عزموا
عليه ولا باطنهم فيه. واستمر الملك العزيز في الاعتقال إلى
آخر أيام الملك السعيد عندما
حوصر بالقلعة فأفرج عنه وعن الأمراء الشهرزورية وغيرهم.
وكان قد رزق أولادا في
اعتقاله في الدولة الظاهرية، فلما أفرج عنه الملك السعيد أمره
أن ينصرف في حال نفسه
ويتوجه إلى الأمراء إن أحب ذلك، أو يقيم بالقلعة إلى أن ينفصل
الأمر. وخرج بعض من
أفرج عنهم إلى الأمراء فقبضوا عليهم واعتقلوهم، فخشي
الملك العزيز من ذلك فسأل أن
يرجع إلى معتقله ويقيم مع أولاده فرجع إليهم، فاستمر في
الاعتقال إلى أن ملك الملك
الأشرف خليل بن السلطان الملك المنصور قلاون فأفرج عنه
في سنة تسعين وستمائة على
ما نذكره إن شاء الله تعالى.
ولنرجع إلى سياقة أخبار الدولة الظاهرية:
وفي عاشر جمادى الآخرة من السنة توجه السلطان إلى الشام
وصحبته ولده الملك
السعيد، فكان دخول الملك السعيد إلى دمشق في ثامن شهر
رجب. وخرج هو والأمير
بدر الدين الخزندار من جهة القطيفة. وكان السلطان قد توجه
من جهة بعلبك ووصل إلى
طرابلس، فأغار وقتل وفتح صافيتا وحصن الأكراد وحصن عكا
وبلاد الإسماعلية، وغير
ذلك على ما نذكره إن شاء الله تعالى.
وفيها في تاسع شوال: دخل الشيخ خضر شيخ السلطان إلى
دمشق، وجاء إلى كنيسة

اليهود وأخرجهم منها وجعلها زاوية، وعمل لأصحابه بسيسة عشرة قناطير بالدمشقي،
فأكلوا منها، وحضر المغاني تعمل سماعا ورقصوا على بقية البسيسة بأرجلهم، فما أفلح
بعد ذلك. فاجتمع اليهود وخرجوا عن مظالم كانت بينهم ورفعوا أصواتهم بالدعاء وقالوا:
"يا محمد بن عبد الله، نحن في ذمتك وعهدك، لا دولة لنا ولا سلطان، فانتصر لنا". فكانت
حادثة السيل، وخروج الشيخ خضر من الكنيسة على صورة منكرة.
حادثة السيل بدمشق
وقي ثاني عشر شوال سنة تسع وستين وستمائة، وهو يوم عيد عنصرة اليهود، جاء سيل
عظيم على دمشق في الساعة الثامنة من النهار، وعلا على سور دمشق قدر رمح، وفي
بعض المواضع أحد عشر ذراعا، ودخل من باب الفراديس بعد أن خرب حسره، وأهرب
جسر بابي السلامة وتوما، ووصل إلى المدرسة الفلكية وصار فيها مقدار قامه وبسطه.
واستمر ثلاث ساعات من النهار وهبط. وكان مبدأ هذا السيل إنه انعقد على جبال
بعلبك غيم متكاثف فسمع لرعده دوى هائل في يوم السبت حادي عشر شوال، وكان
بذلك الوادي ثلوج كثيرة، فوقع المطر على الثلوج فحلها، وسال في يوم الأحد من جهة عين
الفيجة بعد أن رمى فيها صخورا عظيمة ساقها بين يديه، واقتلع أشجار جوز عادية،
وانتهى إلى دمشق وخرب عدة كثيرة من دور العقبية، وخرب حيطان الميدان وقطاير
البساتين، وأهلك خلقا كثيرا من الروم والعجم كانوا قد قدموا حجاجا ونزلوا بالميدان
وغرقوا عن آخهم هم وجمالهم ودوابهم، وأغرق من الحيوانات على اختلاف أجناسها مما
لا يعد كثرته، وردم الأنهار بطين أصفر، واقتلع الأشجار من أصولها، ودخل السلطان بعد
ذلك بأيام إلى دمشق فما وجد بها ماء ولا حماما يدور، وشرب الناس من الصهاريج والآبار
ويقال أنه هلك بهذا السيل عشر آلاف نفس، وأخذ الطواحين بحجارتها.
وحكي أن فقيرا يعرف بالخير حضر إلى دار نائب السلطنة بدمشق قبل هذه الحادثة

وقال: "عرفوا الأمير أن أريد أعدو إلى بعلبك". فقال له الأمير: "رح، أجر". وضحكوا
منه فتوجه، وعاد وهو ينذر الناس بالسيل فضحكوا منهم ولم يعبأوا بكلامه بكلامه فما
أحسوا إلا والسيل قد هجم.
وفي هذه السنة: عزل قاضي القضاة شمس الدين أحمد بن خلكاه عن قضاء دمشق،
وخرج منها ذي القعدة. وكانت مدة ولايته عشر سنين سواء. وقلد القضاء بعده بالشام
قاضي القضاة، عز الدين أبو المفاخر محمد بن عبد القادر المعروف بابن الصايغ، وكان
تقليده قد كتب والسلطان على طرابلس، وتأخر إلى أن حضر السلطان إلى دمشق، وكان
وصول السلطان إلى دمشق، وكان وصول السلطان إلى دمشق في يوم الأربعاء خامس عشر
شوال.
سفر الشواني الإسلامية إلى قبرس
وكسرها وأسر من كان بعا وخلاصهم
وفي شوال سنة تسع وستين وستمائة: كتب السلطان من الشام إلى الديار المصرية بتسفير
الشواني لقصد قبرس، فأشار ابن حسون برأي كان بئس الرأي، وهو أنه قال: "لو دهنت
الشواني سواد تشبها بشواني الفرنج، وعملت لها أعلام بصلبان حتى إذا دخلت إلى بلاد
الفرنج يعتقدونها لهم، فتغتنم الغرة منهم" فاتبع رأيه. وتتطاير الناس بذلك، وسافرت الشواني
فانكسرت بالقرب من قبرس فورد كتاب صاحب قبرس إلى السلطان وفيه تقريع: "إن
الشواني كسرها الريح وأخذتها، وهي أحد عشر شينيا، وأسرت من فيها". فكتب
السلطان إلى الديار المصرية وهو بالشام بإنشاء عشرين شينيا وإحضار خمسة شواني
كانت بقوص. وأجاب "السلطان" صاحب قبرس بتقريع وتوبيخ، ويعلمه أنه فتح القرين في
كلام كثير تركنا إيراده اختصارا. وبقي القواد في الأسر هم والرماة. ففادي بهم الفرنج
أسرى، وبقي الاحتياط على الرؤساء وهم ستة نفر، منهم ريس الإسكندرية، وريس
دمياط، وأبو العباس المغربي وغيرهم. واستمروا في الأسر إلى سنة ثلاث وسبعين
وستمائة. وقصد السلطان ابتياعه وسير الأمير فخر الدين المقري الحاجب إلى صور

بسبب ذلك، فتغالى الفرنج فيهم. وكانوا قد نقلوا إلى عكا وحصل الاحتزام عليهم، وجعلوا
في حبس حصين. فرسم السلطان للأمير سيف الدين بن خطلبا - أحد النواب بصفد -
بسرقتهم، فأرغب الموكلين بهم بالمال حتى دخلوا إليهم بمبارد ومناشير، وسرقوا من جب
القلعة، وخرجوا في مركب. وكانت خيل مهيأة، فركبوا ووصلوا إلى القاهرة ولم يدر بهم
أحد بعكا. ثم قامت فتنة بعكا بسببهم.
عود السلطان إلى قلعته ووصول رسل اليمن،
واهتمامه بأمر الشواني، وما أنعم به من الخلع والخيول على الأمراء والأجناد
قال: وسار السلطان إلى الديار المصرية فدخل قلعة الجبل في ثاني عشر ذي الحجة سنة
تسع وستين، وعند وصوله جهز الأمير شمس الدين آفسنقر أستاد الدار بالعساكر إلى
الشام، فخرجوا في الشهر المذكور.
ووصلت هدية صاحب اليمن في الشهر "المذكور" وفيها التحف الثمينة وفيل ودب
أسود.
والي السلطان النزول إلى مصر بنفسه والأمراء في خدمته لمباشرة عمل الشواني وفي الشهر
المذكور خلع وفرق بالميدان على ألف وسبعمائة نفر من الأمراء والخلقة أثمان خيل، وفرق
ألفا وثمانمائة وخمسين رأسا، وذلك في ثاني عشرين الشهر.
ثم عاد العطاء في الثالث
والعشرين منهم حتى فرغ الناس وعمهم بالعطاء، ولازم صناعة الإنشاء عدة أيام بسبب
الشواني.
القبض على من يذكر من الأمراء
وفي هذه السنة في خامس عشر ذي الحجة أمر السلطان بالقبض على جماعة من الأمراء
منهم الأمير علم الدين سنجر الحلبي الكبير، والأمير جمال الدين الأقش المحمدي، والأمير
جمال الدين أيدغدي الحاجبي الناصري، والأمير عز الدين إيغان الركني سم الموت، والأمير
شمس الدين سنقر المساح، والأمير سيف الدين بيغان الركني، والأمير علم الدين سنجر
طردح الأمدي وغيرهم، وحبسوا في قلعة الجبل.
وسبب ذلك أن السلطان بلغه عنهم وهو بالشقيف أنهم قد عزموا على القبض عليه،

فأسرها في نفسه إلى أن وصل إلى القاهرة وقبض عليهم واعتقلهم، ثم أفرج بعد ذلك عن
بعضهم.
وفيها: في سابعه عشر ذي الحجة تقدم أمر السلطان بلإراقة الخمور في سائر بلاده،
والوعيد لمن يعصرها بعد ذلك بالقتل والنهب. فأهريقت بأعمال بالديار المصرية وأبطل
ضمانها، وكان في كل يوم بالديار المصرية خاصة يزيد على ألف دينار وكتب بذلك توقيع
قرئ على الناس بالقاهرة ومصر.
وفي هذه السنة: أمر السلطان بإنشاء جامع بمنشأة المهراني، وهي التي على نهر النيل،
والخليج الحاكمي فارق بينهما وبين مصر، فعمر.
وفيها: توفي قاضي القضاة شرف الدين أبو حفص عمر بن عبد الله بن صالح بن عيسى
السبكي المالكي قاضي قضاة المالكية بالديار المصرية. وكانت وفاته بالقاهرة في ليلة الأحد
الخامس والعشرين من ذي القعدة سنة تسع وستين وستمائة. ودفن في الغد بمقابر باب
النصر. ومولده بالصالحية من الأعمال القليوبية في ذي الحجة سنة خمس وثمانين
وخمسمائة. وكان رحمه الله تعالى عالما، وكان قد ولي الحسبة بالقاهرة مدة وعقود
الأنكحة، ثم ولي نيابة الحكم بالقاهرة عن قاضي القضاة تاج الدين بن بنت الأعز. ثم فوض
إليه القضاء أحد الأربعة كما تقدم ذكر ذلك، رحمه الله تعالى. وولي بعده قضاء المالكية
القاضي نفيس الدين أبو البركات محمد بن القاضي المخلص هبة الله بن القاضي كمال الدين
بن السعادات أحمد بن شكر.
وفيها: أيضا توفي القاضي شمس الدين أبو إسحاق إبراهيم بن المسلم بن هبة الله بن
البارزي قاضي حماة الشافعي، رحمه الله، وولى قضاة حماة في سنة اثنتين وخمسين
وستمائة، واستمر إلى أن توفي الآن.
وفيها: كانت وفاة الملك الأمجد تقي الدين أبي الفضائل عباس بن السلطان الملك العادل
سيف الدين أبي بكر بن أيوب. وهو آخر من مات من أولاد الملك العادل، وكان محترما
عند الملوك الأيوبية، معظما عند السلطان الملك الظاهر، لا يرتفع عليه أحد من المجلس ولا

الموكب وكان رحمه الله دمث الأخلاق سمحا كريما عاقلا حازما. وكانت وفاته بدمشق في
يوم الجمعة ثاني عشرين جمادى الآخرة ودفن بسفح قاسيون، وليس له عقب.
وفيها: توفي القاضي كمال الدين أبو السعادات أحمد بن الوزير فخر الدين الأعز أبي الحمايل
مقدام بن القاضي كمال الدين أبي السعادات أحمد بن شكر كان أحد الأكابر المشهور بن
الديار المصرية متأهل للوزارة وغيرها. وهو خال قاضي القضاة تاج الدين بن بنت الأعز،
رحمهما الله تعالى، وكانت وفاته بالقاهرة في السادس والعشرين من شهر رمضان ودفن في
الغد من يوم وفاته بسفح المقطم، وكان يومئذ ناظر بيت المال، رحمه الله تعالى.
وفيها: توفي الأمير علم الدين سنجر الصيرفي وكان من أعيان الأمراء بالديار المصرية، فلما
تمكن السلطان الملك الظاهر أخرجه إلى الشام وأقطعه إقطاعا جيدا وزاده عدة قرى
ببعلبك، فتوجه إليها فمات في يوم الأربعاء سادس صفر وهو في عشر الستين رحمه الله
تعالى.
وفيها: توفي الشيخ العارف قطب الدين أبو محمد عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر
بن محمد بن سبعين المرسي الزقوطي، أحد المشايخ المشهورين بسعة العلم، وله تصانيف
عدة وجماعة كثيرة ينسبون إليه، وأقام بمكة سنين كثيرة إلى أن توفي بها في الثامن والعشرين
من شوال من هذه السنة، ومولده في سنة أربع عشر وستمائة. والوقوطي نسبة إلى حصن
من عمل مرسية يسمى زقزطة رحمه الله تعالى.
وفيها: توفي العدل الرئيس زين القضاء أبو المكارم عبد الوهاب بن القاضي الرئيس فخر
القضاء أبي الفضائل أحمد بن المرتضى أبي عبد الله محمد بن الجليس أبي المعالي عبد
العزيز بن الحسين بن عبد الله بن الحباب التميمي السعدي الأغلبي، سمع وحدث وهو من
بيت الرياسة والعدالة والفضل بالديار المصرية منذ سكنوها، وهم من ذرية زيادة الله بن
الأغلب آخر ملوك بني الأغلب بإفريقية.
وكانت وفاته بمصر في التاسع والعشرين من جمادى الأول من السنة. ومولده في غرة المحرم
سنة تسع وثمانين وخمسمائة.

وفيها: توفي الطواشي الأمير شجاع الدين مرشد الخادم المظفري عتيق صاحب حماة
ومقدم جيشها، وكان من الشجعان الأبطال، وكان إذا حمل في جيش العدو يقول: أين
أصحاب الخصي وكان السلطان الملك الظاهر يعتمد عليه لأمانته وشجاعته. وكان
يتصرف في المملكة الحموية تصرف ملوكها للوثوق به.
واستهلت سنة سبعين وستمائة
توجه السلطان إلى الكرك ثم إلى الشام وعزل
الأمير جمال الدين النجيبي عن نيابة دمشق وتولية
الأمير عز الدين أيدمر نائب الكرك نيابة السلطنة
بالشام وإستنابة الأمير علاء الدين أيدكن
أستاد الدار بالكرك
وفي سنة سبعين وستمائة: بلغ السلطان أن الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا وغيره من
العربان تغيرت نياتهم وعزموا على الانضمام إلى التتار. فعلم أنه إن استدعاهم لا يحضرون
وينكشف الحال، وإن قصد الشام تسحبوا، فنزل إلى الميدان في سابع محرم وفرق على
خواصه أربعمائة ألف درهم، واثني عشر ألف دينار عينا، وستين حيصة ذهبا، وأمر
بتجهيز العساكر إلى عكا بعد الربيع. وتوجه السلطان من قلعته بعد المغرب من ليلة تسفر
عن سابع وعشرين المحرم في جماعة يسيرة من خواصه، وخرج من الزعقة في البرية إلى
الكرك وأخفى مقصده، فوصل في سادس صفر، وطلع إلى قلعة الكرك، وكتب تقليد الأمير
عز الدين أيدمر نائب الكرك بنيابة الشام، ولم يعلمه بذلك "حتى تسلم أيدكين نيابة الكرك"
بل أفهمه أنه يستنيبه بحصن الأكراد، وتوجه إلى دمشق فوصل إليها في ثالث عشر الشهر
وسير للأمير جمال الدين النجيبي "نائب دمشق" تشريفا وأمره أن يتوجه إلى الديار المصرية،
وولى الأمير عز الدين أيدمر الظاهري نيابة السلطنة بالشام.
وركب السلطان في ليلة سادس
عشر صفر وتوجه إلى حماة ونزل بظاهرها بالجوسق، ونزل صاحب حماة في خيمة أسوة
الناس، ورتب أستاد داره وأمير جانداره وحواشيه في خدمة السلطان لأنه كان جريد.
فكان أول ما شرع فيه أمر العربان. وكان سبب نفورهم اشياء من جملتها أخذ أولادهم
رهائن.

ولما وصل إلى حماة وجد عثمان بن مانع وعمرو بن مخلول وجماعة من أكابر العربان بغتة
فأكرمهم، وما أظهر لهم شيئا، وكتب إلى الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا يطلب منه
فرس فلان، والفرس الفلاني تسكينا له، وكان عيسى قد كتب إلى السلطان قبل خروجه
من الديار المصرية يستأذن في الحضور خديعة، فخدعه السلطان ورسم أن لا يحضر حتى
يطلب. فكتب إليه الآن: "إنك كنت طلبت الحضور، ونحن الآن بحماة، فإن أردت الحضور
فاحضر" فحضر فسأله السلطان عما نقل عنه العربان، فاعترف به، فرعي له حق الصدق.
وأحسن إليه وإلى أمراء العربان، وأطلق رهائنهم، وأطلق لعيسى نصف خبزه الذي كان
أخذه منه في سنة ثمان وستين من سلمية وغيرها، وهو مائة ألف وثلاثون ألف درهم،
وأطلق له من حلب ألف مكوك غلة إنعاما، وأطلق لغيره من العربان من خمسمائة مكوك
إلى مادونها.
وفي مستهل شهر ربيع الأول، ركب السلطان من حماة بعد العشاء الآخرة ولم يعلم بقصده،
وسار على طريق حلب، ثم عرج فأصبح بظاهر حمص، وتوجه إلى حصن الأكرد وعكار
فكشفهما، وتوجه إلى دمشق.
وورد الخبر أن جماعة من التتار أغاروا على عين تاب، وتوجهوا إلى عمق حارم في نصف
شهر ربيع الأول، فكتب" السلطان" إلى الديار المصرية بتجريد الأمير بدر الدين بيسرى
بثلاثة آلاف فارس، وتوجه بذلك صارم الدين المشرقي، وخرج من دمشق الثالثة من نهار
الأحد ثامن عشر شهر ربيع الأول، ودخل القاهرة الثالثة من ليلة الأربعاء حادي عشرين،
فخرج الأمير بدر الدين بيسرى واالعسكر بكرة نهارالأربعاء المذكور.
ووصل الأمير شمس الدين أستاد الدار بالعسكر المجرد وكانوا على جينين وهم خمسمائة
فارس .وكان التتار قد أغاروا على حارم والمروج وقتلوا جماعة ، وتأخر بن مجلى
والعسكر الحلبي إلى حماة ، وجفل أهل دمشق ، وبلغت قيمة الجمل ألف درهم ، وأجرته
إلى مصر مائتي درهم .

ووصل الأمير بدر الدين بيسرى والعسكر إلى دمشق في رابع شهر ربيع الآخر، وتوجه
السلطان بالعسكر إلى حلب، وجرد الأمير شمس الدين أستاد الدار وجماعة معه إلى
مرعشن، وجرد الأمير الحاج علاء الدين طيبرس الوزيري والأمير شرف الدين عيسى بن
مهنا إلى حران والرها، فتوجها وصلا إلى حران، فاتصل الخبر بمن فيها من نواب التتار
فخرجوا فالتقاهم الأمير شرف الدين عيسى وطاردهم وطاردوه، ثم وصل العسكر فخرج
عليهم كمينه، فلما رأوه نزلوا عن خيولهم، وقبلوا الأرض، وألقوا سلاحهم، فقبضوا على
آخرهم، فكانوا ستين رجلا. ثم سار الأمير علاء الدين طيبرس إلى حران، فلما أشرف
عليها أغلق من فيها أبوابها وتركوا بابا واحد، فخرج منه الشيخ محاسن أحد أصحاب
الشيخ حياة ومعه جماعة كثيرة، وذلك في يوم الثلاثاء ثالث عشر ربيع الآخر، وأخرج لهم
طعاما قليلا لأجل البركة، فتلقاه الأمير علاء الدين وترجل له. فلما اجتمع به أخرج له
الشيخ مفاتيح حران وقال له: "هذا بلد السلطان فتسلمه". فقال له: "طيب قلوب الجماعة
ويكونون على ما هم عليه إلى أن يصل السلطان". وعصى برج باب يزيد وفيه شحنة التتار
فطلبه فامتنع، وقال: "إذا جاء السلطان خرجت إليه"؛ فعاد الأمير علاء الدين طيبرس ولم
يدخل حران، وعبر الفرات سباحة.
وبعد توجهه فارق أكابر أهل الحران البلد ووصلوا إلى دمشق مثل: أمين الدين بن شقير،
وخطيبها الشيخ شهاب الدين بن تيمية، وأولاد بشر، وابن علوان وغيرهم. وأقام جماعة
كثيرة من أهل حران بحلب وحماة وحمص وتفرقوا في البلاد، وبقي جماعة بحران.
فلما كان في الخامس والعشرين من شهر رمضان من السنة، وصل جماعة من التتار إلى
حران، فأخربوا أسوارها وأكثر أسواقها ودورها ونقضوا جامعها واخذوا أخشاب
سقوفه، واستصحبوا معهم من بقي فيها، فخرجت وأخليت ودثرت إلى الآن. وكانت من
المدن الجليلة.
عود السلطان من حلب ورجوعه إلى
الديار المصرية وعوده إلى الشام

وفي آخر شهر ربيع الآخر بلغ السلطان أن الفرنج أغاروا على قاقون، وقتل الأمير حسام
الدين أستاد الدار وجرح الأمير ركن الدين بيبرس العجمي الجالق وجرح "بجكا العلائي"
وإلى قاقون. فرحل السلطان من حلب، ودخل دمشق وبين يديه التتار الذين أسروا من
حران. وأما الفرنج فإنهم لما قصدهم العسكر المجرد بقاقون تأخروا عنهم، ووصل الأمير
جمال الدين أقش الشمسي بعسكر عين جالوت، فولوا مدبرين، ولحقهم العسكر واسترجع
منهم تركمانا، وقتل من رجالاتهم وعرقب من خيولهم "خمسمائة رأس". وخرج السلطان
من دمشق في ثالث جمادى الأول وصحبته العساكر بنية الغارة على الفرنج، وقصد عكا
فتوالت الأمطار وهو على مرج برغوث حتى كاد الناس يهلكون. فانثنى عزمه عن
الإغارة. ورد العسكر الشامي وصار إلى الديار المصرية. فوصل إلى قلعة الجبل في الثالث
والعشرين من جمادى الأول وأقام بقلعته أياما.
ثم توجه إلى الجيزية للتنزه في يوم الأربعاء ثالث جمادى الآخرة في جماعة من أمرائه
وخواصه، فحضر إليه مطالبيه، وأخبروه أن بناحية بوصير السدر من الجيزية مغارة بها
مطلب. فتوجه إليها وأمر بحفرها. فجمع متولي الجيزية جماعة، فحفروا وأعمقوا،
فأخرجوا قطاطا ميتة، وكلاب صيد وطيور وغير ذلك من الحيوانات، وهي ملفوفة في
خرق، فإذا حلت اللفائف عنها وأصابها الهواء صارت ترابا تذروه الرياح، ولم يوجد فيها
خلاف ذلك. وعاد السلطان من الجيزية في يوم الثلاثاء العشرين من الشهر.

إيقاع الحوطة على القاضي شمس الدين الحنبلي واعتقاله

وفي سنة سبعين وستمائة: أمر السلطان بإيقاع الحوطة على منزل قاضي القضاة شمس
الدين محمد بن الشيخ عماد الدين إبراهيم المقدسي الحنبلي.
وسبب ذلك أن تقي الدين شبيب الحراني كان أخوه ينوب عن قاضي القضاة المشار إليه
بالمحلة فعزله، فغضب أخوه المذكور لذلك، وكتب قعة إلى السلطان يقول: "إن القاضي
شمس الدين عنده ودائع للتجار من أهل بغداد وحران والشام وغيرهم جملة كثيرة، وقد

مات بعض أهلها واستولى عليها". فاستدعاه السلطان وسأله عن ذلك فأنكره وجحد،
فطلب منه اليمين فحلف وتأول يمينه، فعند ذلك أمر السلطان بهجم داره، فهجمت ووجد
فيها كثير مما ادعاه شبيب، بعضه قد مات أربابه، فأخذت زكاة ما وجد مدة سنتين.
وسلم ما بقي لأصحابه، فعضب السلطان عند ذلك على قاضي القضاة، وأمر باعتقاله،
وتوجه السلطان إلى الشام وهو في الاعتقال، فتسلط شبيب عليه حينئذ وادعى أنه
حشوي وأنه يقدح في الدولة. وكتب بذلك محضرا، فأمر الأمير بدر الدين الخزندار نائب
السلطنة بعقد مجلس، فعقد له يوم الاثنين حادي عشر شعبان من السنة واستدعى من
شهد في المحضر، فنكل بعضهم عن الشهادة فأطلقوا، وشهد الباقون، وفأخرق بهم
وجرسوا، ثم تبين للأمير بدر الدين الخزندار تحامل شبيب لما ظهر له من إساءته على
القاضي شمس الدين والقدح فيه، فأمر باعتقاله والحوطة على موجوده. وأعاد القاضي إلى
الاعتقال فاستمر به إلى أن أفرج عنه في النصف من شعبان سنة اثنتين وسبعين وستمائة،
"ولم يول السلطان بعده قضاء الحنابلة أحدا".
توجه السلطان إلى الصيد
ثم إلى الشام
قال: ولما عاد السلطان من الجيزية، أقام بقلعة الجبل إلى شهر رجب من هذه السنة،
وخرج متصيدا إلى جهة الصالحية، فبلغه حركة التتار فرجع إلى القلعة وتجهز.
وخرج إلى الشام في ثالث شعبان من السنة، ونزل بمرج قيسارية وحصلت الهدنة مع
الفرنج.
ونزل السلطان بمنزلة الروحاء وعيد بها عيد الفطر، ورحل منها في ثاني شوال إلى خربة
اللصوص، ثم توجه إلى دمشق.
ووردت رسل التتار، وهم رسل صمغار مقدم عسكر التتار بالروم، ورسل البرواناه،
فحضروا بين يدي السلطان وسمع مشافهتهم، وتضمن الكتاب الذي على أيديهم الرغبة في
الصلح وطلب رسل من السلطان. فجهز إليهم الأمير مبارز الدين الطوري أمير طير،

والأمير فخر الدين المقري الحاجب، فتوجها هما والرسل في نصف شوال سنة سبعين،
واجتمعا بصمغار، بين سيواس والجسر، فأكرمهم وأوصلوه ما كان معهم من الهدية، وهي:
قسى تسعة، دبابيس تسعة، واعتذروا عن قلتها كونهم حضروا على خيل البريد. وفي
اليوم الثاني اجتمعا بالبرواناه وأعطياه قماشا فاخرا كان السلطان قد سيره إليه خفية،
وسير معهما هدية لأبغا بن هولاكو، وهي جوشن ريش قنفد، وخوذة كذلك، وسيف،
وقوس، ودركاش، وتسع فردات نشابا، وتوجهوا صحبة البرواناه إلى الأردو، وأوصلوا إلى
أبغا هديته. وقال له الأمير مبارز الدين لطوريغ الطوري: "السلطان يسلم عليك ويقول: إن رسل منكوتمر وردوا إليه مرارا" أن
السلطان يركب من جهته. ويركب الملكط منكوتمر من جهته، وأين وصلت خيل سلطاننا
كان له، وأين وصلت خيل منكوتمر كان له" فانزعج أبغا انزعاجا عظيما، وقام وركب
وخرجت الرسل إلى خيامهم، ثم طلب أمراءه للمشورة، وبعد ذلك خلع على الرسل وأذن
لهم بالصفر فعادوا.
وأما السلطان فإنه أقام بدمشق حتى ضحى بها، وأحسن إلى صاحب حماة، وأمر
بجلوسه معه بطراحة ومسند وكرسي في رأس السماط مسامتا للسلطان.
ثم توجه بعد ذلك إلى حصن الأكراد وعكار وشاهد العمارة بهما، وعمل بيده، وخلع
على من بحصن الأكراد من الأمراء وأرباب الوظائف.
وعاد فتصيد في الطريق وخلع مقدار خمسمائة تشريف على من أحضر صيدا، ورجع إلى
دمشق ودخلها في خامس المحرم سنة إحدى وسبعين.
وفي سنة سبعين وستمائة: كانت وفاة الملك الأمجد أبي الحسن بن الملك الناصر صلاح
الدين داود بن الملك المعظم شرف الدين عيسى بن السلطان الملك العادل سيف الدين أبي
بكر محمد بن أيوب، رحمهم الله تعالى، بدمشق فجأة في يوم الاثنين سادس عشر جمادى
الأولى، ودفن بسفح قاسيون وله من العمر ما ينيف على خمسين سنة تقريبا. وكان من
الفضلاء، وله مشاركة في العلوم ومعرفة بالأدب، وتنقلت به الأحوال في عمره، وصحب

الفقراء والمشايخ، وانتفع بهم وأخذ عنهم. وكان كثير البز لمن يصحبه من المشايخ. وكانت
همته عالية ونفسه ملوكية، وله صبر على المكاره. وكان جميع أهل بيته يعظمونه ويعترفون
له بالتقدمة، حتى عم أبيه الملك الأمجد تقي الدين الذي قدمنا ذكر وفاته. وكان حسن
الخط والترسل، وكان واسطة عقد هذا البيت. فإن أمه ابنة الملك الأمجد مجد الدين
حسن بن السلطان الملك العادل الكبير، تسمى باسم جده. وإلى جده لأمه المذكور ابن
الملك العادل ينسب الغور الأمجدي وهو الخميلة، والنويعمة، ودامية، والحمام، وورثة أولاد
الملك الناصر عن أمهم. وتزوج الملك الأمجد هذا ابن الملك الناصر داود، ابنة الملك العزيز
غياث الدين بن الملك الظاهر أخت الملك الناصر صاحب الشام وأولدها ولدا سماه صلاح
الدين محمود.

وفيها: توفي الصدر الكبير وجيه الدين أبو عبد الله محمد بن علي بن سويد بن مالي بن
محمد بن أبي بكر الربعي التغلبي التكريتي التاجر المشهور بسعة المال والثروة والجاه ونفوذ
الكلمة، "بلغ" ما لم يبلغه أحد من أمثاله. وكانت كتبه تنفذ عند سائر الملوك، حتى عند
ملوك الفرنج بالساحل. وكانت النجابون تأتيه من بغداد إلى دمشق في مهمات تتعلق
بالخلافة. وكانت متاجره لا يتعرض إليها. وكان خصيصا بالملك الناصر صاحب الشام لا
يخرج عن إشارته ورأيه. وانبسطت يده في دولته. وكان عنده فضة كثيرة، مراود وجسرا،
فاستأذن الملك الناصر على ضربها دراهم فأذن له، وجعل دار الضرب بدمشق بيده،
فضرب منها شيئا كثيرا، وكانت مغشوشة، فخسر الناس فيها أموالهم. ولما ملك هولاكو
البلاد وصل إليه فرسان من جهته يتضمن تأمينه على نفسه وماله فما وثق به. وفارق
دمشق إلى الديار المصرية. وغرم جملة مقارب ألف ألفَ درهم بسبب الدراهم المغشوشة
وغيرها. ثم تمكن في الدولة الظاهرية تمكنا كبيرا، ووكله السلطان الملك الظاهر وجعله
وصيه على أولاده من بعده وناظر أوقافه، وخوطب في مكاتباته بالمجلس السامي المولوي.

وكان مع تمكنه من الملك الناصر لا يكتب له عنها إلا الصدر الأجل. وكان سبب تمكنه
من السلطان الملك الظاهر ما حكاه شمس الدين محمد بن إبراهيم بن أبي بكر الجزري في
تاريخه عن والده، رحمه الله تعالى، قال: كنت عند وجيه الدين في داره في أيام الملك
الناصر، وقد جاء إليه الملك الظاهر وهو يومئذ في خدمة الملك الناصر من أمرائه، وشكى
إليه ضعف إقطاعه وأنه قد ركبه دين كثير، وليس عنده كسوة لصغاره، وسأله أن يتحدث
له مع الملك الناصر، وكان قد وصل إلى وجيه الدين في تلك الساعة من عكا جوخ سقلاط
وغيره، فأعطاه منه كفاية عشرة أقبية، وخرق كتان فرنجي مائتي ذراع، وخمس تقاطيع
سكندري، وتفصيلتين حرير، وألف درهم. وقال له: "ياخوند مهما كان لك من حاجة أو
خدمة أطلب ذلك مني، ولا حاجة بقول السلطان". قال: والله لقد رأيت الملك الظاره وقد
أهوى إلى أقدام وجيه الدين ليقبلها، فرعى له السلطان الملك الظاهر حق هذا الإحسان.
وملك وجيه الدين المذكور عدة من ضياع دمشق وأملاكها. وكان مع لك كله فيما حكي
عنه شحيحا على طعامه، لكنه كان يتكرم بماله. وكانت وفاته بدمشق في ليلة الجمعة
التاسع والعشرين من شوال سنة سبعين وستمائة. ومولده بتكريت في ذي القعدة سنة تسع
وستمائة، رحمه الله تعالى.
وواستهلت سنة إحدى وسبعين وستمائة
توجه السلطان إلى الديار المصرية على خيل البريد وعوده إلى الشام
قال: لما عاد السلطان من كسف الحصون في خامس المحرم من هذه السنة، استشار
خواص الأمراء في أن التتار تواترت الأخبار بحركتهم، وأنهم متى قصدوا البلاد والعساكر
والخزائن غير حاضره صعب الأمر وعرفهم أنه يتوجه إلى الديار المصرية على البريد.
وركب ليلة السادس من المحرم بعد عشاء الآخرة، وصحبته الأمير بدر الدين بيسرى،
والأمير جمال الدين أقش الرومي، وجبرك السلاح دار، وجرمك الناصري، وسنقر الألفي
السلاح دار، وعلم الدين شقير مقدم البريدية، فدخل قلعته يوم السبت ثالث عشر المحرم، ولم

يشعر الناس إلا وهو داخل من باب القلعة، فدخل وتوجه إلى الميدان ولعب الكرة، وكتب
إلى الأمراء المقيمين بالشام أنه سطرها من البيرة، وسير علائم بخطه ليكتب عليهاأجوبة
البريد من دمشق إلى الأطراف. وكان الأمير سيف الدين الدوادار بقلعة دمشق لتجهيز
الكتب والبريد. وفي يوم الاثنين توجه إلى مصر وركب في البحر ولعب بالشواني. وفي ليلة
الأربعاء سابع وعشرين المحرم سابع وعشرين المحرم جهز العسكر المجرد إلى الشام، وتوجه
هو إلى الشام في ليلة التاسع والعشرين من الشهر هو ومن كان معه من الأمراء. ووصل إلى
دمشق في ثالث صفر، ودخل قلعتها ليلا.
وحضر إليه رسل أبغا وكان مضمون مشافهتهم طلب الاتفاق.
ثم توجه السلطان إلى قلعة البيرة عندما نازلها التتار. وكان من انهزامهم ما نذكره إن شاء
الله تعالى في الغزوات والفتوحات.
ثم عاد إلى السلطان إلى الديار المصرية فدخل قلعته في الخامس والعشرين من جمادى
الآخرة سنة إحدى وسبعين وستمائة.
وفي السابع والعشرين من الشهر: أفرج عن الأمير عز الدين الدمياطي وأنزله بدار الوزارة
ورتب له الرواتب، وكان في الاعتقال من سنة رجب سنة إحدى وستين وستمائة.
وفي شهر رجب: خلع السلطان على الأمراء والقضاة والوزراء والمقدمين، وعم بذلك
المسافرين والمقيمين.
وقي هذه السنة: نجزت عمارة قبة الصخرة الشريفة، وذلك في يوم عرفة، وكان السلطان قد
توجه إليها وجميع الصناع لعمارتها كما قدمناه.
اعتقال الشيخ خضر
والأسباب التي أوجبت ذلك
وفي يوم الاثنين ثاني عشر شوال سنة إحدى وسبعين: أحضر الشيخ خضر ابن أبي بكر
بن موسى العدوي المهراني شيخ السلطان إلى قلعة الجبل، وأحضر جماعة خانقوه على
أشياء كثيرة منها اللواط والزنا وغيره، فتقدم أمر السلطان باعتقاله. وكان سبب ذلك أنه
تعاطى أمورا منكرة وأفحش، ثم شرع يغض من الأمير بدر الدين بيليك الخزندار نائب
السلطنة، والصاحب بهاء الدين، وانتقل إلى حد المهاجرة لهما بالقول بحضرة السلطان، وهو

أن السلطان أطلق له شيئا فتوقف الأمير بدر الدين في إمضائه، فقال له بين يدي السلطان:
"كأنك تشفق على السلطان وعلى أولاده، كما فعل قطز بأولاد الملك المعز". فخشي عاقبة
ذلك فانفق هو والصاحب بهاء الدين على التدبير عليه وإطلاع السلطان على ما خفي عنه
من حقيقته حاله، ووافقهما على ذلك الأمير عز الدين أيدمر نائب السلطنة وبالشام، ورتبه،
وذلك أنه طلب إسماعيل ومظفر نائبه بدمشق وآخر من أتباعه اسمه محمد بن بطيخ
وتهددهم أولا، ثم وعدهم أنهم متى اعترفوا على شيخهم بما يعتمده أحسن إليهم وجعل
لهم الرواتب. فذكروا عنه أشياء كثيرة وأشهدوا على أنفسهم بذلك. فكاتب السلطان في
أمره، فأمر بإرسالهم على خيل البريد فأرسلوا. ولما حضروا بين يدي السلطان سمع
كلامهم. ثم أحضره وقال له: "هؤلاء نوابك بالشام ما تقول فيهم؟" فذكر من خبرهم
وصدقهم وأنه رضي بما يقولونه فيه. فذكروا عنه من القبائح والمنكرات وارتكاب المحرمات
شيئا كثيرا، وخانقوه على ذلك. فأطلقهم السلطان وامر بإيقاع الحوطة على موجوده.
وحكى الشيخ قطب الدين اليونيني في تاريخه: أنه لما حضر أولئك لمخانقته كان ذلك
بحضور الأمير فارس الدين أقطاي المستعرب الأتابك، والأمير سيف الدين قلا ون، والأمير
بدر الدين بيسرى، والأمير سيف الدين قشتمر العجمي، فخانقه أصحابه على كل عظيمة
لا تصدر من مسلم. فقال: "ما أعرف ما تقولون. ومع هذا، أنا ما قلت إني رجل صالح،
أنتم قلتم هذا. فإن كان الذي تقولون صحيح فأنتم كذبتم".
فقام السلطان وقال للأمراء:
"قوموا بنا لئلا نحترق بمجاوبته". فقاموا وانتقلوا إلى طراف الإيوان. فاستشار السلطان
الأمراء في أمره، فقال له الأتابك: "هذا مطلع على أسرار الدولة وبواطن أحوالها وما ينبغي
إبقاؤه، ووافقه من حضر من الأمراء على هذا الرأي، وقالوا: ببعض ما قيل عنه يباح دمه.
ففهم ما هم فيه، فقال للسلطان: "واسمع ما أقول لك، أنا أجلي قريب من أجلك، وما بيني
وبينك إلا مدة أيام يسيرة من مات منا لحقه الآخر عن قريب".
فلما سمع السلطان كلامه

وجم، وقال للأمراء: "ما تشيرون في هذا"؟ فسكنوا. فقال السلطان: "أرى أن يجلس في
مكان لا يصل إليه أحد ولا يسمع كلامه، فيكون كمن قبر وهو حي". ثم أمر به فحبس في
مكان منفرد بقلعة الجبل، ولم يدخل إليه إلا من يثق السلطان به غاية الوثوق. وكان يرسل
إليه الأطعمة الفاخرة والفواكه والملابس، واستمر في الاعتقال إلى أن توفي في سنة ست
وسبعين وستمائة قبل وفاة السلطان بأحد وعشرين يوما. وسنذكر إن شاء الله تعالى،
مبدأ أمره وسياقة أخباره عند ذكر وفاته.
وفيها: هرب الأمير عمرو بن مخلول من آل فضل من قلعة عجلون هو وحامد رفيقه. وكان
السلطان قد اعتقلهما في برج من أبراج القلعة، فحفر حفيرة ملاصقة للسور ووقدوا النار
حتى تكلس حجر السور، فنقباه وخرجا منه، وقد كانت أعدت لهما خبل سوابق
فركباها وتوجها إلى بلاد التتار، ثم ندما على ما فعلاه، فكتبا إلى السلطان يسألان مراحمة،
فحلف أنه لا يرضي عنهما إلا أن يعودا إلى قلعة عجلون ويضعا أرجلهما في القيود على ما
كانا عليه، ففعلا ذلك وكان عودهما من بلاد التتار في ذي الحجة سنة اثنتين وسبعين
وستمائة. ولما رجعا إلى الطاعة وفعلا ما أمر السلطان به عفا عنهما وأطلقهما وأحسن
إليهما.
وفي هذه السنة في رابع عشرين ذي الحجة: توفي الملك المغيث فتح الدين عمر بن الملك
الفائز إبراهيم بن الملك السلطان العادل سيف الدين أبي بكر محمد بن أيوب، رحمهم الله
تعالى، في معتقله يجب خزانة البنود، ودفن بتربتهم بالقرافة بجوار الإمام الشافعي. ومولده في
صفر سنة ست وستمائة، رحمه الله تعالى.
وفيها: كانت وفاة الأمير سيف الدين محمد بن الأمير مظفر الدين عثمان ابن الأمير ناصر
الدين منكورس بن بدر الدين خمردكين صاحب صهيون وبرزية في شهر ربيع الأول. وكانت
وفاته بصهيون وقد ناف على ستين سنة، ودفن بتربة والده. وتسلم صهيون وبرزية بعده
ولده الأمير سابق الدين سليمان، ثم أخذهما السلطان منه في هذه السنة على ما نذكره إن
شاء الله تعالى.

وفيها: كانت وفاة الحافظ الخطيب فخر الدين أبي محمد وأبي الفرج عبد القاهر بن الشيخ
علاء الدين عبد الغني بن محمد بن تيمية الحراني. وكانت وفاته بدمشق في ثاني عشر
شوال من هذه السنة. ودفن بمقابر الصوفية. ومولده اثنتي عشرة وستمائة، سمع الحديث
من جده ومن ابن اللتي، وخطب بجامع حران وكان فاضلا دينيا، وهو من بيت معروف
بالعلم والفضيلة رحمه الله تعالى.
واستهلت سنة اثنتين وسبعين وستمائة
طلسم باب القصر بالقاهرة